

أمينة المفتي
أوراق منسية

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

اليوم - ١٨ سبتمبر ١٩٧٣ - زرت شقتي بفيينا وأنا بطريقي لإسرائيل كان جسدي يرتعش وأنا أصعد الدرج، وفشلت مرات في معالجة الباب. وعندما أضأت الأنوار واجهتني صورة موشيه الكبيرة باللباس العسكري. فمسحت زجاج الإطار وقبلته، وعلقت باقة من زهور البانسيه التي يحبها إلى جواره. لقد خيل الي أن ابتسامته الرائعة تفيض بالعتاب . . بل هي كذلك. فتذكرت . . يا لغبائي . . كيف دفعته بنفسي إلى نهايته، عندما شجعته على الهجرة لإسرائيل. حاولت أن أستعيد ابتسامته فلم أنجح.

كانت فاتنة وساحرة وجمالها لا يقاوم... ولدت لأسرة شركسية مسلمة هاجرت إلى الأردن...

هناك أصبح والدها من أكبر تجار المجوهرات الأثرياء... وعلا شأن عمها حتى حمل رتبة لواء فى البلاط الملكى... أما أمها فتحولت لسيدة من سيدات المجتمع الراقى.. كل شىء كان يتيح للحسناء الثرية أن تحيا حياة طبيعية، لولا أنها آلت على نفسها إلا أن تختار طريقا آخر كي تشق من خلاله حياتها.. هذا الطريق هو طريق الشيطان، الذى جعل منها فى النهاية أشهر جاسوسة عربية للموساد الإسرائيلي فى التاريخ.. نعم هذه هي أمينة المفتى التي كانت ولا تزال حديث الناس فى عالمنا العربي الكبير، ومادة خصبة للباحثين والمحللين، الذين يحاولون دراسة كل ما يتعلق بشخصية هذه الجاسوسة، التى استطاعت بدهاء النفاذ إلى صفوة المجتمع... وتمكنت خلال سنوات قليلة أن تصل إلى أعلى مراكز صنع القرار السياسي فى الأردن، واستطاع الموساد تحويلها إلى رأس حربة فى ظهر العرب، باعتبارها وسيلة لجمع أخطر المعلومات السياسية والعسكرية !!

وهذا الكتاب هو محاولة جادة للإبحار فى عالم أمينة المفتي السري، وسبر أغوار هذه الشخصية، من حيث المولد والنشأة، والظروف والملابسات التي صاحبت عملية تجنيدها من جانب جهاز المخابرات الإسرائيلي، وكيف أوغلت فيها مظاهر الأنوثة، فبدت رقيقة الملامح، عذبة، شهية، طموحة، ذكية، لكنها راحت تتمرد على قيم الشرق وتقاليده المحافظة، فأحبت يهوديا باعت لأجله الدين والوطن ؟!

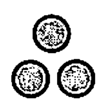
W.Salama 010 15 17 873



دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

مذكرات أخطر جاسوسة عربية للموساد

أمينة المفتي.. أوراق منسيه



اسم الكتاب : مذكرات أخطر جاسوسة عربية للموساد
اسم المؤلف : فريد الفالوجى
المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٧/٢٧٣٤٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 376 - 363 - 3
التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف
الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف
الإشراف العام: أ. أسعد بكرى كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :
حلب : دار الكتاب العربى ـ الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ـ ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق : مكتبة رياض العلبى ـ خلف البريد ـ ت : ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النورى ـ أمام البريد ت : ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة ـ جسر فيكتوريا ت : ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبه الفتال ـ فرع أول ـ ت: ٢٤٥٦٧٨٦
فرع ثانى ـ ت : ٢٢٢٢٣٧٢

الطبعة الأولى
٢٠٠٨



E-mail:darkitab2003@yahoo.com
E-mail:darkitab-Nassif@hotmail:com

سوريا ـ دمشق ـ الحجاز ـ شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص. ب ٢٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧
مصر ـ القاهرة ـ ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت ـ شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢
لبنان ـ تلفاكس : ٣٤١٨٦: ٠٥ / ـ تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٣ ـ ص. ب ٣٠٤٣ الشويفات

مذكرات أخطر

جاسوسة عربية للموساد

أمينة المفتي.. أوراق منسيه

◆

فريد الفالوجى

◆

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

شكر وتقدير

أتوجه بخالص الشكر والعرفان.. لكل من ساهم فى خروج مذكرات أمينة المفتى إلى النور.. بعدما كانت عرضة للتلف والمجهول.. وأخص بالشكر السادة فى سوريا ولبنان:

الأستاذ/ أحمد أبو شكيب.

الأستاذ/ نبيل حمزة الرساسى.

الأستاذ/ رعد وفائى العاملى.

الأستاذ/ كميل إسحق الطرابلسي.

فبفضل تعاونهم المخلص الصادق.. وإحساسهم بالمسئولية وبقيمة هذا الملف التاريخى.. ومدى أهميته للقارئ والباحث والمهتم.. ما تحرر هذا العمل من قيود الروتين والنسيان.

إليهم جميعاً أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان..!!

فريد الفالوجى

الإهداء

إلى الأمير الأحمر.. وفدائى الثورة الفلسطينية الأشهر.. قائل القوة «١٧».. وبطل مذبحة ميونيخ.. على حسن سلامة.. سليل أسرة النضال والفداء.. وابن منظمة التحرير الفلسطينية الوفى.. وشهيد الجهاد.. والبطولة.. والكفاح..!!

المؤلف

مدخـل

على مـدى تاريـخ الحـروب السـرية بين المخـابرات الـعربيـة والموسـاد، لمعت أسمـاء ثلاث نسـاء عـربيات خـائنـات، استـرخصـن بيـع عـروبتهن، وعـملن بشـراسـة لصـالح إسـرائيل، هن: «هبة عبد الرحمن سليم عامر»[1]، و «انشـراح موسـى»[2]، وهما مصريتان، وكانت الثالثة: «أمينة داوود المفتى» الأردنية.

كانت أمينة المفتى بحق، حالة فريدة من نوعها، لا تكاد تماثلها حالة أخرى تقترب من أحداثها وتفاصيلها فى تاريخ الصراع العربى الإسـرائيلى.

ولدت أمينة عـام ١٩٣٩ فى عمان لأسـرة شـركسية الأصل مفـرطة الذكـاء، وذات مركز اجتمـاعى مرموق، فوالدهـا تاجـر ثرى معـروف، وأمها سيدة مجتمع من الطراز الأول تجيد التحدث بلبـاقة بعدة لغـات، أما عمهـا، فكان برتبة لواء فى البلاط الملكى الأردنى.

---

(١) هبة سليم: أول وآخر جاسوسة عربية للموساد نُفِّذ فيها حكم الإعدام شنقاً، وكان ذلك بعد حرب أكتوبر مباشرة، بعدما أعدم خطيبها المقدم «فاروق الفقى» رمياً بالرصاص قبيل الحرب بوقت ضئيل، وتعد هبة سليم أول جاسوسة يتم تجنيدها فى أوربا لأسباب أيديولوجية بحتة، بعيداً عن الجنس أو المال أو مـآرب أخرى، كـانت هبـة تدرس فى السـوربون حيث سـقطت فى بئـر الخيـانة، وعندما زارت إسـرائيل كانت طائرات سـلاح الجو فى حراسـة طائرتها، تماماً كما يستقبل الرؤسـاء وملوك الدول، والتقت برئيسة الوزراء «جوالدا مائير» حيث وقف عشرة جنرالات لتحيتها، وتمكنت المخابرات المصرية من استدراجها إلى ليبيا، وهناك ألقى القبض عليها لتحاكم فى القاهرة. (انظر كتابنا: جواسيس الموسـاد العربى، عن مكتبة مدبولى بالقاهرة).

(٢) انشـراح موسـى: تجسست لصـالح الموساد ضد مصر هى وزوجها وأولادهـا الثلاثة، وفى حين أعدم زوجها شنقاً أفرج عنها السادات لمغازلة مناحيم بيجن فترة الإعداد لاتفاقية السـلام مع إسـرائيل، وانتقلت انشراح مع أولادها إلى إسـرائيل لتعيش أسـوأ أيام حيـاتها هناك، حيث تجاهلتها الموسـاد، وفوجئت باحتقار الشعب الإسـرائيلى لأنها «خائنة باعت وطنها من أجل المال.

(جاءت قصتها كاملة على مدى ٢٧٢ صفحة بكتابنا: «الملازم أول دينا عمر.. جندهـا زوجها فجندت أولادهـا الثلاثة»، الصـادر عن دار «أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى». القاهرة).

وفى المرحلة الثانوية، أوغلت فيها مظاهر الأنوثة المبكرة، فبدت رقيقة الملامح، عذبة، شهية، طموحة، ذكية، وبرغم تقاليد أسرتها والمجتمع «البدوى» الذى يحيط بها، كانت تسخر من تقاليد الشرق وقيوده، وتسعى دائماً لأن تحطم مظاهر «التخلف»، تحدوها أحلام الانطلاق، والحب، والحرية.

وفى ثورة تقلباتها، أحبت «بسام» الفلسطينى الأصل رقيق الحال، وأطلقت تجاهه فيضانات المشاعر المتدفقة بلا حدود.. مشاعر بكر تلتحف بصدق الحب العذرى، إلا أن الشاب الفقير فر منها خوفاً من ظروفها، وظروفه.. فالفارق الكبير بينهما أرعبه ودفعه إلى البعد عنها.

لكن أمينة صدمت بشدة عندما عرفت بأنه هجرها وارتبط بفلسطينية فقيرة مثله، أجمل منها، وأكثر اتزاناً، وكتب لها رسالة قصيرة يقول فيها:

- «أنت أنانية.. مغرورة.. غضوبة.. شرسة الطباع.. تؤمنين بأن المال يمكن أن يشترى كل شىء. نعم هذا حقيقى.. لكن من المحال أن يشترى الحب بالمال»!!

هكذا كشف لها الحبيب عن مساوئ تنشئتها، وأسلوها الخاطئ فى فهم الحياة.. ومنذ تلك اللحظة السوداوية فى حياتها، تملكتها رغبة مجنونة فى الثأر والانتقام.. وانقلبت مشاعر الحب عندها إلى كراهية مقيتة لكل فلسطينية زميلة لها فى المدرسة.. بل ولكل ما هو فلسطينى على الإطلاق.

ولَّدت هذه التصارعات النفسية أثاراً سلبية على دراسة أمينة المفتى.. إذ حصلت على الثانوية العامة بدرجات ضعيفة، دفعت عائلتها للتفكير فى تسفيرها إلى أوروبا للالتحاق بإحدى جامعاتها، وهذا تقليد متبع بين أبناء الأثرياء فى الأردن، والشراكسة عموماً.

فى عام ١٩٥٧ التحقت أمينة المفتى بجامعة «فيينا»، وأقامت بالمنزل رقم «٥٦» شارع يوهان شتراوس[1] لعدة أسابيع، قبلما يفتح القسم الداخلى

---

(١) بعد أن أخرجت أمينة المفتى من تحت الرماد وأعلنتها للعالم، تسابقت الأقلام للكتابة عنها.. ففى «آخر ساعة» ـ العددان ٢٧٤٩، ٢٧٥٠ ـ ادعى مراسل المجلة فى النمسا وبطريقة استخفافية، أن =

بالجامعة أبوابه لإقامة الطالبات المغتربات المستجدات.

لقد أسبغت الحياة الجديدة على الفتاة الأردنية سعادة غامرة، ومع حياة الحرية التى كم تمنتها وحلمت بها تعلمت التدخين والشذوذ، وأدمنت التساحق مع زميلة لها من جوهانسبرج، حيث رأت فى هذا الفعل الخبيث انطلاقها وتحررها من قيود الشرق، والخجل.

هكذا مرت بها سنوات الدراسة بجامعة فيينا، وتحصل فى النهاية على بكالوريوس علم النفس الطبى(٢) Medical Psyshology، وتعود فى أغسطس ١٩٦١ إلى عمان مكرهة، تضج بالنفور والغضب، حيث كانت تحمل بداخلها طبائع أخرى، وأحاسيس مختلفة، وآلام الهجرة إلى القيود والرقابة.

= زملاء أمينة المفتى فى الدراسة (لم يذكر اسماً واحداً) لم يكونوا يعلمون بقصتها إلا بعد أن قرأوا الحلقة الأولى من قصتها فى «آخر ساعة»، لذلك أصيبوا بصدمة شديدة، متجاهلاً كتابى الذى صدر منذ سنوات عن تفاصيل حياتها، والتى نقلها السيد المراسل - محمد الحريرى - عن هذا الكتاب بما به من وقائع وأسماء قمت بإضافتها لزوم الحبكة، وكأن زملاء أمينة فى النمسا كانوا جهابذة فى اللغة العربية ومن عشاق «آخر ساعة» لذلك أصابتهم الصدمة.. وبعد أن لخص السيد المراسل كتابى، ادعى بفخر، وياله من فخر، أن آخر رقم زوجى فى شارع يوهان شتراوس هو رقم ٤٢، وياله من مجهود خارق واكتشاف عظيم، المثير أن أحد رؤساء تحرير «آخر ساعة» السابقين والذى يعمل حالياً رئيساً لتحرير مجلة «م. ص» نشر كتابى فى حلقات مسلسلة بجريدة كويتية مقابل مبلغ مالى كبير، مدعياً أنها للمرحوم «صالح مرسى» طالباً عدم كتابة الاسم منعاً للمشاكل مع الورثة.

كذلك نشرت القصة فى حلقات بجريدة «الحقائق» اللندنية بقلم د. سمير قديح الباحث الفلسطينى الذى سطا على أغلب أعمالى ونشرها باسمه على الإنترنت والعديد من الصحف فى الدول العربية ومصر، واتخذتها عشرات من الصحف المصرية مادة دسمة للنشر العلنى كأنها بلا صاحب لأن قانون الملكية الفكرية مجرد حبر على ورق، والعجيب، أن أحد قيادات الأمن السابقين، يعد كتاباً عن أمينة المفتى اعتماداً على «كتابى» عنها، وقد صرح لى بذلك أثناء جلسة جمعتنا أثناء انعقاد معرض الكتاب الدولى فى يناير ٢٠٠٧.

(٢) علم النفس الطبى: فرع من فروع الطب يدرس فى أوروبا، مختص بدراسة استجابة الشخص للمرض، بهدف خلق أكفأ ظروف تناول المريض علاجياً. بما يتفق مع ملامح شخصيته الفردية، كما أن هذا الفرع يختص بطرق البحث السيكولوجى التى تستخدم الدراسة الإكلينيكية للحالة العقلية للمريض، فما يتصل - ليس فقط بمرض ذاته - بل أيضاً بالإمكانيات التعويضية الكامنة فى شخصيته.

بيد أنها فى غمرة معاناتها هذه، لم تكن لتنسى حبيبها الأول - بسام - الذى رفض حبها وغرورها ووضعها الاجتماعى والطبقى، فجابت عمان طولاً وعرضاً بحثاً عنه، حتى هزتها الحقيقة المرة الدامية عندما علمت بأمر زواجه من فتاته الفلسطينية الفقيرة، عند ذلك حوصرت بين الهموم والملل والحقد والكراهية، ولم تجد حلاً لأزمتها النفسية إلا فكرة السفر ثانية إلى النمسا، بدعوى استكمال دراستها العليا لنيل الدكتوراه، عازمة على ألا تعود إلى الشرق أبداً إذا ما أتيحت لها الفرصة لتحقيق ذلك.

فى فيينا، تمادت أمينة فى احتقار عادات الشرق وتقاليده، وانساقت بلا رقيب وراء أهوائها، فمارست الحرية بشتى أشكالها متجاهلة دينها الإسلامى وكل ما يمت إلى العقلانية بصلة، إلى أن التقت بفتاة نمساوية يهودية الديانة تدعى «سارة بيراد»، عرفتها بشقيقها «موشيه» الطيار الوسيم الجذاب، فلم تقاوم أمينة مشاعرها نحوه، وانزلقت معه فى علاقة حب جارف، سرعان ما تحولت إلى علاقة خاصة جداً، محرمة، امتدت لسنوات، وانتهت بزواجها منه بعدما اعتنقت اليهودية فى النمسا، وغيرت اسمها بعد هذا الزواج إلى «آنى موشيه بيراد»، وهو الاسم الذى حمله جواز سفرها النمساوى الجديد.

تصورت أمينة المفتى أن أحلامها العظمى قد تحققت بهذا الزواج، بيد أنها كانت واهمة تماماً، إذ سرعان ما اكتشف أن الجرم الذى اقترفته لن يروح سُدًى.. فعاشت حياة ملؤها الخوف والفزع، تساورها الشكوك فى اقتراب انتقام أهلها بالأردن، إضافة إلى مطاردة المخابرات العربية لها، خاصة وعمها يشغل مركزاً مرموقاً بالقصر الملكى، حيث سيسعى بكل وسيلة لقتلها حفاظاً على مكانة الأسرة، وسمعة الشراكسة بالأردن، إلى جانب أن الانتقام السريع منها سيكون رادعاً لكل من تسول له نفسه من الأردنيين الاتصال بالإسرائيليين والتعامل معهم.

لذلك.. مرت عليها الأيام فى فيينا كئيبة مخيفة مرعبة، حتى إنها باتت ترتجف عند سماعها لأدنى صوت خارج البيت أو داخله، فدفعت زوجها دفعاً

إلى الهجرة لإسرائيل حيث ستشعر بالأمن والأمان هناك، وبرغم معارضته للفكرة من أساسها، إلا أنها ألحت عليه باستماتة، وأقنعته بأنه كطيار حربى سيحظى بالترحيب ويتبوأ مركزاً مرموقاً هناك.

وافق موشيه مرغماً، وكتبا معاً استمارة طلب هجرة، ووفق عليها بدون مناقشة، وفى إسرائيل التحق موشيه بسلاح الجو بعدما تقلد رتبة رائد Major وتدرب على قيادة الطائرة «سكاى هوك»، وفى أواخر يناير ١٩٧٣ طار بطائرته باتجاه الجبهة السورية بغرض الاستطلاع الجوى، فأسقطته مدفعية السوريين، واعتبر مفقوداً منذ تلك اللحظة، ذلك أن دمشق فى حينها لم تعلن رسمياً عن إسقاط الطائرة الإسرائيلية أو أسر قائدها، لكنها أعلنت فيما بعد بأن الطائرة انفجرت فى الجو وقائدها بداخلها[1].

كانت الصدمة ذات وقع شديد على عقل أمينة «آنى»، فلم تصدق الخبر أو تستوعبه فى بادئ الأمر، ثم سرعان ما انتابتها آلام حادة فى معدتها، وأخذت تصرخ صرخات ذهول بلا وعى، وتسكت فجأة محملقة فى لا شىء وهى تئن أنات الوجع المشوبة بالفجيعة والحسرة، ضارية صدرها بيديها بقوة نادبة حظها، لإدراكها بأنها كانت السبب فيما حل بزوجها الحبيب الذى هاجر إلى إسرائيل لإرضائها.

لازمها الصراخ والذهول لأيام طويلة، حتى وهى داخل عيادة «كوبات حوليم هستدروت» للأعصاب فى «ريشون لتسيون»[2]، فاحتبس صوتها، وفقدت

---

(١) كان الإعداد لحرب أكتوبر على قدم وساق، ومن لم يكن من الصالح استراتيجياً الإعلان عن إسقاط الطائرة الإسرائيلية حتى لا تغير إسرائيل خططها وطلعاتها الاستطلاعية بما يعطى مؤشراً أكيداً على الاستحداثات العربية فى التسليح والتدريب، التزمت إسرائيل أيضاً الصمت ولم تعلن عن سقوط طائرتها لأسباب عديدة، حتى إنها لم تقر بالحادث عندما أعلنت عنه دمشق فيما بعد، وكان هناك خطأ فادح ربما كان وراء ذلك، حيث وافقت قيادة سلاح الجو على طيران موشيه بمفرده باتجاه سوريا دون طائرة أخرى مرافقة، فى مخالفة فجة لكل تحركات الطائرات الحربية والتى لا يسمح فيها أبداً لطيار حديث بالاتجاه بمفرده صوب الأعداء.

(٢) أول مستعمرة يهودية أنشئت على أرض فلسطين عام ١٨٨٢.

شهيتها للطعام والشراب والنوم، أو لنقل إن صدمة الفاجعة أربكت كل وظائفها الفسيولوجية، فصمتت، واستبدلت بهمهمات متحشرجة واهنة ونظرات ذابلة ذاهلة، ثم نطقت أخيراً بعد شهر ونصف الشهر، قائلة بأنها تشكك فى حادث سقوط الطائرة، وفى البيان السورى المقتضب، وبأن موشيه لا يزال حيّاً، متخفياً بين الحشائش والمغارات، فهو طيار ماهر وقدراته الفنية عالية جدّاً.

وفى منزلها ـ وكانت ترافقها إحدى الإخصائيات النفسيات ـ كانت تحدث نفسها نهاراً بصوت مسموع، وفى الليل يسمع لها ما يشبه الأنين الخافت الملىء بالوجع، هو بلا شك مزيج متهالك من مشاعر الحسرة والضياع.

لقد أيقنت بأنها صارت وحيدة، غريبة بلا وطن أو هوية، وكان من المستحيل أن تعود ثانية إلى الأردن، أو تعيش هكذا بلا أصدقاء فى مجتمع غريب ينظر أفراده إليها نظرة شفقة، وربما نظرة احتقار لأنها تعد فى نظرهم امرأة خائنة باعت وطنها من أجل نزوة، أو علاقة محرمة.

من أجل ذلك كان من الأفضل لها أن تغادر إسرائيل، وبعد حسابات وتحليلات لما ستفسر عنه حياتها المستقبلية، قررت أولاً أن تتريث حتى تتحصل على ميراث زوجها، والمكافأة التى ستصرف لها فى إسرائيل كتعويض عن موته.

كانت هذه المشكلات والمسائل تؤرق ابنة الشرق الخائنة الهاربة، وبدلاً من أن تلوم نفسها وتعترف بالواقع، صبت جام غضبها على العرب الذين أرهقوها فى الأردن، وطاردوها فى النمسا، وضيعوا حلمها فى الاستقرار بإسرائيل، فهم آفة مستقبلها المظلم، وسبب نكبتها وفجيعتها فى زوجها الذى هربت به حفظاً لحياتهما وأمنهما.

ولأنهم هدموا حياتها بموته، تمنت لو أنها تستطيع الانتقام منهم، فها هى وحيدة بائسة بين أناس لا تعرفهم، بل وتجهل لغتهم وطقوسهم وعاداتهم، وتضاعفت لديها فكرة الانتقام من السوريين والفلسطينيين حتى غدت الفكرة هدفاً تسعى إلى تحقيقه على أرض الواقع، وقوى لديها هذا الأمل بسبب

احتفاظها بجوازى سفرها الأردنى والنمساوى، مما سيسهل لها دخول أية دولة عربية وقتما شاءت..!

وقبلهما يحطمها الانتظار ويعتريها الجنون، تقدمت بطلب إلى السلطات الأمنية للسماح لها بالسفر إلى دمشق وبيروت لتقص أخبار زوجها، لكن طُلب منها الانتظار، وهذا ما لم تتحمله أعصابها.

لذلك سرعان ما عادت أدراجها إلى النمسا من جديد، وما أن حطت قدميها على أرض مطار فيينا حتى تملكها الخوف والهلع من أن تكون المخابرات العربية تترقب وصولها، هكذا لم تعد هناك بقعة نائية على وجه المعمورة، إلا ووجس الخوف من الانتقام يتربص بها ويقض مضجعها.

من جانبها.. لم تكن الاستخبارات الإسرائيلية لتفوت هذه الفرصة الذهبية، فبين مخالبها امرأة عربية وحيدة مذعورة، ومنكرة القلب، ترى الدنيا حواليها كوابيس خوف وظلام ومستقبل غامض، وتضج كراهية لكل ما هو عربى.

وبواسطة إجراءات الإرث والتعويض، حدثت اتصالات، ولقاءات، وعروض تسويفية، إلا أن الزوجة الملتاعة قرأت تفاصيل ما يدور فى الخفاء، ولرغبتها الغريزية الشرسة فى الانتقام، أبرم الاتفاق فى يسر، ووافقت أميننة «آنى» بلا تردد على التعاون مع الموساد، مستغلة جوازى سفرها فى السفر إلى بيروت ودمشق.

حصلت عملية الموساد على دورة تدريبية مكثفة فى فنون التجسس المختلفة، من تصوير، وتشفير، وتلقط الأخبار، والتمييز بين الأسلحة، وتقوية الذاكرة، وأساليب الامتزاج والتغلغل داخل المجتمع الفلسطينى، خاصة فى مخيمات اللاجئين، دون إثارة أية شكوك حولها.

سافرت أمينة المفتى أولاً إلى بيروت واستقرت فى إحدى الشقق، وكانت مهمتها المحددة هى تقصى أخبار رجال المنظمات الفلسطينية، والمخيمات، ومعسكرات تدريب الفدائيين، والطرق التى يستخدمونها للتسلل إلى شمال إسرائيل.

ومن خلال عملها فى المستشفيات الفلسطينية، كطبيبة عربية متطوعة فى

خدمة اللاجئين، وبواسطة بعض الأعوان الذين قامت بتجنيدهم[1]، تمكنت أمينة المفتى من اكتساب ثقة الفلسطينيين، والوصول إلى مكتب ياسر عرفات شخصياً، وأقرب مستشاريه وأعوانه، منهم الفدائى الأشهر «على حسن سلامة» رئيس المكتب «١٧» والمسئول العسكرى فى منظمة «أيلول الأسود» التى نفذت عملية «ميونيخ» عام ١٩٧٢، وأطلقت عليه جولدا مائير لقب: «الأمير الأحمر» وطالبت برأسه مهما تكلف الأمر.

من خلال علاقات أمينة بأعلى المستويات، لكونها طبيبة عربية متعاطفة مع القضية الفلسطينية، أمدت الموساد بأدق أسرار القيادات الفلسطينية من خلال تنصتها على مكالماتهم وتسجيلها، كذلك عرفت أساليب العسكريين فى المخيمات، والكثير من المعلومات عن الخلايا، والتنظيمات، والتدريبات، ومخازن الأسلحة والذخائر، فأتاحت للإسرائيليين فرصاً ذهبية لتعقب القيادات واغتيالهم، والاستعداد لصد وإفشال الهجمات الفدائية التى كانت لا تتوقف، كما أمدت الموساد بمعلومات دقيقة عن «على حسن سلامة» وملامح وجهه المجهولة والمشوشة لدى الإسرائيليين.

المثير أن «سلامة» كرجل استخبارات من الطراز الأول، راودته الشكوك حول أمينة المفتى، وفى نهاية عام ١٩٧٥، بعث رجاله لتقصى أخبارها فى فيينا، وهناك عثروا فى شقتها على أجندة خاصة تحوى مذكراتها حتى مقتل زوجها وعملها مع الموساد انتقاماً له ورغبة فى «إفناء» الشعب «الفلسطينى» الذى ينتمى إليه «بسام»!!

أما الجزء الآخر من مذكراتها، منذ اعتقالها فى بيروت، واستجوابها، وحبسها خمس سنوات حتى مبادلتها، فقد حرصت أمينة المفتى على تسجيل الأحداث التى عاشتها، وسنوات حبسها داخل الكهف الجبلى الموحش طوال تلك السنوات.

---

(١) جندت أمينة المفتى كل من: «مانويل عساف»، و «مارون الحايك» الموظفين بتليفونات بيروت، إضافة للأردنية «خديجة زهران» المتزوجة من لبنانى وكانت تمتلك محلاً لبيع الملابس.

فى مذكراتها هذه، صورت عملية الموساد شتى انفعالاتها النفسية الدفينة فى تشريح دقيق، وذلك بعدما سمح لها الفلسطينيون بالكتابة فى محبسها، وأمدوها بالأوراق والأقلام، لكنهم لم يسمحوا لها بأخذ مذكراتها هذه معها إلى إسرائيل عندما تقرر مبادلتها.

لقد حزنت «آنى موشيه» وبكت بمرارة، عندما استولى رجال الأمن فى منظمة فتح على مذكراتها، ولم يلتفتوا إلى إلحاحها الشديد عندما كانوا ينقلونها إلى مطار بيروت حيث ستنقلها الطائرة إلى قبرص، وقال لها قائد الحراسة المرافق، إن إسرائيل طلبت مبادلتها هى فقط، ولم تذكر مذكراتها هذه فى المباحثات مع الصليب الأحمر الدولى..(!).

وطوال الطريق من صيدا فى الجنوب إلى بيروت، لم تهدأ للحظة واحدة، وكانت تردد فى أسى:

- «أوراقى.. أرجوكم أريدها.. أنتم لا تحتاجونها فى شىء.. لكنها جزء من نفسى.. وأنّات أوجاعى.. وعذاباتى..!!».

وقيل أنها لما فقدت الأمل فى أخذ مذكراتها، أوصت أحد الضباط الفلسطينيين المرافقين لها فى الطائرة، بألا يمزقوا أوراقها، كما ألحت عليه أن يحمل رغبتها هذه إلى الرئيس عرفات ومساعديه، وأغلب الظن أن المرأة الخائنة تصورت إمكان استرداد مذكراتها بشكل ودى بواسطة الصليب الأحمر الدولى فيما بعد.

وشاء الحظ أن تنشر الصحف الإسرائيلية مقالات مطولة عن «أمينة المفتى»، أول فتاة عربية مسلمة اجتازت حد المغامرة والخوف، بالزواج من طيار أوروبى يهودى، حثته على الهجرة معاً إلى إسرائيل فيقتله السوريون، فتذهب إلى بيروت لتقصى أخبار زوجها، ولما فشلت، قررت الانتقام من كل العرب ثأراً له.

بين سطور هذه المقالات والتحقيقات، عبرت أمينة عن جانب هام من جوانب حياتها منذ أطلق سراحها وعادت إلى إسرائيل يسحقها الحزن والأسى.

وفى إسهاب وصفت مشاعرها الدفينة حيال الأزمات التى مرت بها منذ غادرت بيروت إلى تل أبيب.

بذلك، اكتملت حلقات مذكراتها التى مثلت حالة فريدة أمام أطباء الأمراض النفسية، وكذا الباحثين والمهتمين، وإن كانت فى ذات الوقت تعد ذا قيمة أدبية رفيعة لما تحويه من أوصاف مسهبة عن الخيانة ووأد العقل والضمير والدين والمبادئ والتقاليد، وهى تضيف إلى مكتباتنا العربية تصنيفاً جديداً من كتابات الخونة والجواسيس يمكن أن نطلق عليه «أدب الخيانة»، فبالمذكرات تشريح دقيق لشتى الخلجات والانفعالات وردود الأفعال، وكذا كشف لكوامن خلايا الخيانة عند بعض البشر، وهذا ما لم يتوافر بشكل دقيق فى مكتباتنا من قبل.

لكن...

الذى لا يعرفه القارئ، أن المذكرات الأصلية قد اختفت أو احترقت أثناء حصار بيروت سنة ١٩٨٢[1]، وقصف مبنى منظمة التحرير الفلسطينية، وكنت قد حاولت باستماتة الوصول إلى هذه المذكرات، لكننى أصبت بالإخفاق مرات ومرات، وخطر ببالى بعد طول يأس، أن الإسرائيليين ربما استولوا عليها بطريقة أو بأخرى، لذلك تراجعت همتى فى البحث عنها وإمكان الوصول إليها، إلى أن تحقق أملى بعد لأى، حيث تسلمت صورة ضوئية، سيئة للغاية،

(١) بدأت عملية غزو لبنان عملياً يوم ١٩٨٢/٦/٤ حيث تعرضت جميع مواقع القوات المشتركة للقصف الجوى والمدفعى والبحرى لمدة ٥٥ ساعة متواصلة، وبكثافة عالية جداً، وبلغ متوسط نشاط الطيران الإسرائيلى نحو ١٣٠ طلعة فى اليوم الواحد، واندفعت القوات الإسرائيلية بقيادة أرئيل شارون لإحكام حصارها لبيروت، فجر يوم ١٩٨٢/٦/١٣، بعد أن توصل فيليب حبيب المبعوث الأمريكى إلى ترتيب وقف دائم لإطلاق النار بين القوات السورية والقوات الإسرائيلية، لتمهيد الطريق أمام القوات الإسرائيلية لتطويق بيروت، الذى استمر حتى ١٩٨٢/٩/٤، حيث ارتكبت أبشع المذابح فى صبرا وشاتيلا للمدنيين الفلسطينيين العزل، وأرغمت القوات الثورية الفلسطينية على مغادرة بيروت إلى تونس واليمن، مع استخدام كافة أساليب الحرب النفسية والسيكولوجية الضاغطة لتحقيق مصالح إسرائيل وأطماعها فى احتلال الجنوب اللبنانى لتدعيم أمن المستوطنات الشمالية وحدود الدولة العبرية، «وتنظيف» مخيمات اللاجئين فى سائر لبنان من الشباب الثورى..!!

للمذكرات الأصلية، بواسطة صديق قديم تبوأ مركزاً مرموقاً، وكنت قد تصادقت معه فى منتصف السبعينيات عندما تعرفنا عن طريق «المراسلة والتعارف»، ففى ذلك الوقت كنت قد أسست «نادى المنصورة للتعارف» ونشر عنه فى بعض المجلات وقتها.

تسلمت صورة ضوئية للمذكرات لا يمكن قراءتها إلا بواسطة عدسة مكبرة، وتخمين وتحليل الكلمات والألفاظ والجمل، وعكفت على دراسة كومة الأوراق هذه، وإعادة كتابتها وصياغتها وتنقيحها، وحذف كل ما بها من ألفاظ فجة مكشوفة، أو تلك التى لا تتلاءم أدبياً وأخلاقياً.

كان الناشر، الحاج محمد مدبولى، قد ألح على كثيراً، لكى ألتقى بأحد سفراء فلسطين فى عاصمة عربية، حيث أنه قرأ كتابى: «أمينة المفتى.. أشهر جاسوسة عربية للموساد»[١]، ويرغب فى الحصول على صورة من مذكراتها، وهو الكتاب الذى جاءت به إشارة إلى هذه المذكرات، وكان هناك أكثر من مسئول فلسطينى مهم، سعوا جاهدين لنفس الطلب، وكنت أعتذر وأنا أرفض طلبهم فى حرج شديد.

وأخيراً، أتيحت الفرصة لأنشر المذكرات للقارئ العربى لأول مرة، عسى أن أكون قد وفقت،

والله الموفق والمستعان..!!

فريد الفالوجى

القاهرة ـ مدينة نصر

٠١٢/٧١١٢٦٦٢

٠١٢/١٤٩٧١٧٥

---

(١) الكتاب يصف بالتفصيل حياة أمينة فى عمان، وفيينا، وإسرائيل، وتجسسها فى بيروت، وكيفية كشفها، وطرق استجوابها، وسجنها خمس سنوات فى مغارة جبلية، وأنصح كل من يريد تفهم المذكرات بعمق، بقراءة هذا الكتاب أولاً، لأن المذكرات تكملة له، لا العكس..!

القسم الأول

الأردن (١)

«وقبلما أستوعب ما قاله أبى.. أضاف: إننى يا ابنتى خائف جداً عليكِ.. فهل ترى ستكون أيامكِ هناك فروحة كشبابك الغض البديع.. أم هى رحلة معاناة ستذوبين فى محيطها..؟»

٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦

اليوم هو عيد ميلادى السابع عشر.. لا أشعر بأية بهجة بهذه المناسبة التى طالما كنت أنتظرها وأترقبها بشوق من قبل، لكن اليوم لست أدرى لماذا أنا مكتئبة، منقبضة، وتجتاحنى أحزان شلالية الوقع ظالمة.

فمنذ عدت من المدرسة وأنا أميل إلى الوحدة والانزواء، ولا رغبة لدى حتى للتبسم بافتعال، برغم مظاهر الفرحة التى تملأ البيت من حولى، وانشغال أمى بترتيب الحفل ودعوة الأهل والأصدقاء.

ترى.. هل لغياب «بسام»[1] عن المدرسة اليوم صلة بذلك..؟

كان بالأمس قد هاتفنى ونقل إلىّ نبأ حالته الصحية السيئة، مما قد يعوقه عن مغادرة بيته اليوم.. لكن، ألا يهاتفنى اليوم مهنئاً بعيد ميلادى؟

أيعقل أن ينسانى فى هذا اليوم؟

كنت قد ارتديت فستاناً جديداً لأظهر به أمام المدعوين.. وعلَّقت أمى العديد من قطع المجوهرات الثمينة فى عنقى، وملأت بها أصابعى وصدر فستانى، فلم أعبأ لكل ذلك.. فالجميع يعرفون أن والدى بالغ الثراء، ويمكنه أن يزيننى بأثمن المجوهرات، وربما تكون هذه هى المرة الأولى التى ألحظ فيها نظرات الإعجاب من نساء العائلة وغيرهن، اللائى يبحثن عن عروس ثرية وجميلة لأبنائهن، وكانت نظرات أمى الفخورة مليئة بالسعادة.

كالعادة، انتهى الحفل مبكراً.. وفى حجرتى كانت هدايا الأصدقاء والأهل تملأ أحد الأركان.. هدايا ثمينة تتناسب مع فتاة من أسرة ثرية مثلى، فلم أهتم بكل ذلك ولم أحصر تفكيرى سوى فى ذلك الحزن الذى يجتاحنى..!

لماذا لا أزال حزينة.. وخائفة..؟

ماذا يا ترى تخبئ لى الأيام القادمة..؟

---

(١) لم تكن تكتب اسمه صريحاً.. بل تشير إليه بالحرف اللاتينى "B".

امتدت يدى إلى كتاب «الأبراج» الذى لا يبارح حجرتى.. وكان طالعى ببرج العقرب يحمل أنباء غير سارة تنتظرنى.

فقد قرأت أن برجى مائى طبيعته البلغم لأنه بارد رطب، المولودة به تكون امرأة بيضاء اللون تميل إلى صفرة معتدلة الطول، حسنة الوجه مقرونة الحواجب، ملفوفة الساق، نمامة، مليحة العينين، غليظة الكفل، كثيرة الخصام والمغامرة، لا تمر بأحد إلا خاصمته، تحب الرجال والترحال، سريعة البطش، حاذقة نحريرة، ترى أهوالاً كثيرة وتنال حرق نار، ولا تعرف لحبيبها قبراً، كلما كبر سنها بغضها الناس، ولا ترزق بولد.. أما الحبيب.. فهو أشقر اللون بحمرة.. أزرق العينين.. مدور الوجه.. أحمر الشفتين.. معتدل القامة.. حسن الصورة.. ببطنه علامة.. وعلى فخذه شامة.. يحب النساء والخمور.. ويكره عناقيد البخور.. عمره قصير.. وميراثه وفير.

صدمنى ما جاء بالطالع وأصابنى بالتوتر.. وحاولت أن أهدأ وأكذب ما جاء به من وصف للحبيب لا ينطبق بالمرة على «بسام».. فهل ترى سأحب إنساناً آخر.. أشقر.. أزرق العينين..؟

وحتى إن تحقق ذلك.. فعمره قصير على أية حال.

إذن.. ماضية أنا إلى الحزن والأسى غصباً عنى..!!

١٤ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٦:

أهواك.. يا أول من حرك لدى المشاعر.. فرقرق قلبى بحبك الدفوق.. وأرعشت بسماتك سنى عمرى.

قبلك.. كنت لا أشعر بأن لى قلباً بصدرى يخفق عندما يحب.. والآن عرفت أن هذا القلب يدق فى اضطراب، عابد فى محرابك.. وفى كل خفقة من خفقاته ينطق باسمك.. اسمك أنت وحدك..!!

١٩ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٦:

هذه الملعونة.. إنها تهد بدنى كلما جاءتنى بغير انتظام بعد كل عدة أشهر.. بكيت بسببها اليوم كثيراً.. وكادت أمى أن تبكى لأجلى.. وأظن أنها أطلعت أبى على الأمر.. فكانت نظراته الحنون لى تحثنى على التماسك.. لكن هيهات أن أقدر.

وفى المساء جاء أبى مبكراً وبرفقته الطبيب.. انصرف الرجل بعد ما أعطانى أقراصاً.. بينما بقيت أمى معى تحكى لى حكايات، حفظتها لكثرة روايتها لى.. تتصل بما كانت تفعله فى شبابها المبكر مع هذه الملعونة.

وعلى صدرها الدفيء أهدأ... وأنام..!!

٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦:

طقس بارد يجتاح البلاد.. ويغمر شوارع عمان مطر هطول.. من نافذتى بالطابق الثانى يبدو المطر رائعاً من خلف الزجاج.. إننى أحب المطر حينما تنقر حباته زجاج نافذتى.. وحينما أراه يلمع على أوراق أشجار حديقتنا.

لكننى برغم ذلك أكاد أموت هلعاً إذا ما أرعدت السماء وزمجرت.. وومض البرق الخاطف.. فلحظتها أكاد أصرخ فى جنون دون أن أعرف لذلك سبباً.

٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٦:

تسلمت اليوم الخميس من بسام خطاباً غريباً.

كانت عبارات الخطاب هذه المرة غامضة لا أفهمها.. لكنه على أية حال يتهمنى ظلماً بأننى قاسية ولا قلب لى.. وأننى أتلاعب بمشاعره لأجل أن أتفرج عليه وأتسلى به وهو يلاحقنى بعواطفه.

هل كتب بسام هذه الرسالة حقاً..؟

ولماذا..؟!

إننى لا أكاد أصدق ما قرأته.. فأنا ويعلم الله كم أحبه منذ عرفته فى آذار/

مـارس الماضـى.. ولو أن لديه هـاتفـاً بالبـيت لطلبـتـه الآن وعـاتبـتـه لأنه ظلـمنـى وصدمنى أيضاً.. وما كان له أن يفعل ذلك بإنسانة تحبه، وبمثل هذه القسوة.

بكيت كثيراً عندما قرأت رسالته.. وسأكتب إليه لأناقشه فى اتهاماته الباطلة.

إنه يحاول مقابلتى فى أحد المتنزهات.. وحاول ذلك مراراً.. لكننى رفضت ذلك بحسم.. فأسرتى كبيرة.. والشركسيات معروفات.. وأخاف أن يرانى البعض برفقته فيطلع أهلى على سرى ويزوجوننى فى الحال لأقرب شخص يطلب يدى.

هكذا.. وبسـبب نـزوة رعناء أترك المدرسـة والدراسـة.. وأحـبس فى البـيت كالسجينة حتى يأتى زوج المستقبل.

حاولت كـثـيـراً إفهام بسـام أنه لا يقـدر المسـئوليـة ولا يخـاف علىّ، فـسلوك البنت هو الذى يحـدد طريقـهـا ومسـتقـبلهـا.. وطالما كنت فـتـاة ملتـزمة، مـهـذبة، حظيت بثقة أهلى ومؤازرتهم.

بيد أن بسام لم يكن يفهم ذلك.. ولم تكن لديه القدرة ليفهم. (!)

لذلك فـقـد بدأ يتـعـامل مـعى بفظـاظة واثقـاً من حـبى لـه.. وأننى حـتـمـاً سأستجيب لرغبته مهما كانت العواقب.. لكنه كان واهماً.

فماذا أفعل مع هذا المخلوق الأنانى المحير..؟

أحببته نعم.. لكن خروجى معه فلا..!

إن الأوصاف التى قرأتها عن فتى أحلامى بكتاب الأبراج بعيدة عن ملامحه كل البعد.. لكننى لا أرسِّخ هذا التصور بنفسى.. ذلك لأننى أحببت.

نعم.. أحببت بكل كيانى وليس لى خيار..!!

٣ كانون الثانى/ ينـايـر ١٩٥٧:

هل أنا غبية وحمقاء إلى هذا الحد..؟

وبخنى معلم الكيمياء أمام زميلاتى بالفصل.. ووقفت كالبلهاء لا أعرف ماذا أقول.

لقد ضبطنى المعلم وأنا أكتب حرف "B" مكرراً بدفترى دون أن أنتبه لشروحه.

زميلاتى ضحكن بينما كنت أبكى فى صمت.. أبكى على حبى الذى ينسحب من بين يدى شيئاً فشيئاً.. دون أن أستطيع أن أفعل أى شىء لإبقائه.

بالأمس أخبرتنى صديقتى «خلود» أنها شاهدت «بساماً» يحادث «جيداء» وكانت تبتسم له وتكاد تأكله بعينيها.

فماذا بينهما إذن..؟!

أعرف أن زميلتى «جيداء» أجمل منى إلى حد ما.. لكنها أقل منى بكثير ثراءً وحسباً.. فأبوها يمتلك مصنعاً للحلويات ولا يرقى بأى حال لمستوى والدى ومكانته.. لكن «بسام» قد لا يهمه هذا الأمر.

إن ما بدأ لى أنه يبحث عن فتاة حلوة تخرج معه.. ويتباهى بعلاقته بها أمام أصحابه.. ومثله لا يؤتمن كما قالت لى «خلود».. فهو محب للتظاهر وإثبات الذات، وإبراز قدرته على اجتذاب الفتيات والتلذذ بدموعهن ومطاردتهن له..!!

٤ شباط/ فبراير ١٩٥٧:

اليوم، الأربعاء، تأكد لى صدق ما جاءتنى به «خلود».. ففتاى الخائن ارتبط فعلاً بعلاقة حب مع «جيداء».. وبدأ أنهما فى انسجام إلى أبعد مدى.

ربما كان يتعمد إظهار حبه لها نكاية فى.. أو للتباهى أمام أقرانه.. أو هو «يمثل» الحب للفتاة المسكينة.

لقد كان فى الأسابيع الأخيرة يتهرب منى ويتحاشى التقاء نظراتنا حتى وإن كانت بالصدفة.

فَلِمَ ذلك..؟

يا لحسرتى فى حبى الأول..!!

تركنى هذا الفلسطينى المغرور ألوك الوجع دون أن يأبه بى.. أهكذا يقابل

الحب بالجحود والأذى..؟

وهل هذا هو الحب الذى تتحدث عنه الكتب وتصدعنا به الأغانى..؟

إننى أمقت هذا الحب.. وأحتقر ضعفى أمامه..!

مزقت اليوم رسائله وحرقتها.. وعندما كنت أنظر إليها والنار تزحف على حروفها أحسست باللهيب فى قلبى.. وعقلى.. حتى صورته الوحيدة التى كانت لدى، حرقتها تشفياً.. ويا ليته كان إلى جوارى لأحرقه أيضاً كما حرقنى بخداعه وخيانته.

أهذا هو بسام الذى أحببته ومنحته قلبى ومشاعرى؟

أهذا هو الحبيب الذى اقتحم حياتى بلا استئذان.. فأحالها إلى حياة جديدة تملؤها النشوة والسعادة وأغاريد الحياة..؟

لقد سألته يوماً:

ـ أتحبنى كما أحبك يا بسام..؟

وماذا تقول لنفسك عما بيننا..؟

وماذا تقول نفسك..؟

فقال لى:

ـ إن الإجابة أصعب من أن تترجمها الكلمات.

ويومها سألنى أن أجيب أنا.

لكن بماذا كنت سأجيب وقتها..؟

وأين لى بالجرأة التى تدفعنى لأفصح فى مواجهته عن مشاعرى التى تنطق بها عيناى وارتجافات قلبى ورعشات حروفى..؟

كان هذا الشعور الجميل قد غزا خلاياى واهتزت له حياتى طرباً وبشراً.. وأدمنت صوت الحبيب الذى يجيئنى عبر الهاتف لدقائق معدودة.. حتى صرت

أنتظر رنين الهاتف يحمل أنفاسه وخفقاته.. وصوته الموسيقى العذب المنغم الذى يشبه اهتزازات أغصان الورود فى الربيع.. ويماثل ارتعاشات الموج على صفحة الغدير.. بل هو كعزف نسيم يداعب أجنحة الفراشات الساحرة.

والآن...

حتى بعدما تأكدت لى خداعاته.. واتهاماته لى بأننى فتاة مغرورة شرسة الطباع وأنانية.. اكتشفت أننى مازلت أحبه.. أحبه بكل كيانى وجوارحى.. ولا أجد للحياة طعماً بدونه..!

إننى ممزقة من الداخل.. تصرخ بأعماقى آهات لوعة قاسية.. ويخالجنى إحساس دافق بأننى تائهة.. ضائعةٌ فى واد سحيق موحش.. مشلولة الأعضاء بلا حول أو قوة.

إنه إحساس رهيب الوقع مشحون بالقتامة والشجن والمعاناة.. بل هو ملىء بالندم لأننى كنت حمقاء غبية.. لم أستطع الدفاع عن حبى الأول والاحتفاظ به قوياً صامداً ضد الأعاصير وتقلباتها.

هل يرجع ذلك لأننى فتاة غريرة بلا تجارب.. صادقة إلى حد السذاجة فى زمن لا يعرف الصدق..؟

وبرغم كل شىء.. أعترف بأننى حتى هذه اللحظة لا أزال أحبه.. ومن الصعب تخيل حياتى بدونه.. أو تصور أنه فضَّل علىّ فتاة أخرى وارتبط بها.

تلك الفلسطينية الساذجة البهاء التى سحقتنى بانتصارها علىّ.. فخلفتنى حطاماً أجرع المرار والألم.. وخيبة الفشل.

حتى هو.. بسام.. تجاهل مشاعرى وحطم كبريائى وعزة نفسى.. وبسهولة فرق ما كان بيننا.. وداس على حبى المقدس بشماتة دون أدنى اهتمام أو مبالاة.

يا لجبروت الإنسان وطغيانه عندما يملك ويتحكم..!

إننى أنهزم بقسوة أمام ضعفى وأندحر.. وأتفتت إلى جزيئات متناهية

الصغر فأرى أننى لا شىء.. لا شىء مطلقاً.

وماذا هناك بعدما فقدت المقدرة على مقاومة إحساس بالقهر أمام عواطفى..؟!

* * *

من خلال ما سطرته أمينة هنا، نستطيع أن نتبين بسهولة مدى التخبط الذى سيطر عليها، وعدم قدرتها على تصديق ضياع حبيبها منها، فهى تارة تكرهه وتمزق خطاباته وصورته الفوتوغرافية.. وتارة أخرى تصب جام غضبها على نفسها لأنها أضاعت حبيبها حفاظاً على كرامتها.. فى حين أنها كانت على استعداد لمقابلته فى مكان خلوى لكن نظراً لكونها من أسرة مرموقة ومعروفة، فقد رفضت فكرة الخروج مع حبيبها خوفاً من أن يراها شخص مَّا.

كذلك بدت كراهيتها لزميلتها الفلسطينية الجميلة التى خطفت الشاب الذى أحبته.. ويبدو أنها منذ تلك اللحظة كرهت كل ما يذكرها بفلسطين.. وأصبح هذا الأسم يمثل لديها معانى الخيانة والغدر.. وهو ما انعكس على تصرفاتها فيما بعد عندما تجسست على الفلسطينيين ليس لأجل مكسب مادى.. أو لاستقصاء أخبار عن زوجها اليهودى المفقود. بل للانتقام لا شىء غيره..!

وفى مذكراتها التى كتبتها يوم ١٤ شباط/ فبراير.. سوف نرى مدى ما أصابها من وهن وتراجع.. وتواضع أيضاً.. حتى أنها بكت بحرقة مؤلمة وهى تتوسل إليه ألا يظلمها.

لكن يبدو أن الشاب الفلسطينى ـ الذى لم يكن يخدعها أو يطمع فيها ـ كان قد استقر عزمه على إنهاء علاقتهما بالحسنى دون خسائر من أى نوع.. لذلك اتصل بها معاتباً فى كياسة.. إلا أنها لم تكن بحاجة إلى عتابه بل إلى قلبه وعواطفه.. وهذا ما لم يتحقق.

تقول أمينة المفتى:

١٤ شباط/ فبراير ١٩٥٧:

كأنه الحلم اللذيذ الذى ما اكتمل.. فإلى الآن لا يستوعب عقلى حقيقة ضياع «بسام» منى.. لكن هذا ما حدث.. لقد ضاع الحبيب فضاعت معه بسماتى وضحكاتى.. وحل بقلبى وخز مؤلم يتوحش ويتعاظم ولا يكاد يتركنى لأهدأ أو أستقر.

وبالأمس.. الخميس.. هاتفنى بسام من منزل أحد أصدقائه.. كان ا لوقت عصراً حينما دق الجرس.. وفوجئت به يطلبنى.. سحبت الكابل إلى غرفتى ودار بيننا حديث طويل وعتاب مر.. وهو يلقى باللوم علىَّ ويتهمنى بأننى متعالية وعنيدة كما نشأت كشركسية ثرية.. وأنا أحاول تبرير مواقفى معه والدفاع عن نفسى.

وانفجر الموقف بيننا عندما تحولت المكالمة إلى بكاء متصل أبَى أن ينقطع.. كان بكائى أنا.. أما هو فقد لزم الصمت حتى انتهت المكالمة.. ومعها انتهت قصة حبى الأول إلى الأبد.

قصة الحب التى هدهدت عمرى.. وسمت بى نحو السحاب ثم قذفت بى إلى الأرض بلا رحمة..!

لقد اكتشفت اليوم كما أنا ضعيفة.. لقد بذلت كبريائى سدى.. وسكبت دموعى دونما أثر.. ودعوت الله فى رجاء أن ينسينى هذا الحب.. وينزع صورة «بسام» من خيالى.. وصدرى.

ترى..

ما الذنب الذى جنيته لأجابه بالصدود والهجران..؟

وإلى هذا القدر من القسوة يواجه بكائى بالصمت واللامبالاة..؟

دموعى هذه ثمينة جداً علىَّ.. وسأعوضها ذات يوم إذا أتيحت لى الظروف المناسبة.

* * *

هكذا نمت بذور الانتقام بداخل أمينة المفتى.. حتى أنها أعلنت عن ذلك صراحة قبل سطرين.. بما ينم عن تضخم هذه الرغبة التى ستسعى لتحقيقها إن استطاعت ذلك.

* * *

٢٢ آذار/ مارس ١٩٥٧:

فجر اليوم ماتت خالتى التى كانت مريضة منذ مدة.. وغطت البيت جهامة محزنة اعتلت الوجوه كلها..!!

* * *

٢٢ آذار/ مارس ١٩٥٧:

داهمت عصابة من اللصوص متجراً للمجوهرات مجاور لمتجر والدى.. واستولوا على كمية كبيرة من المشغولات والنقود بعد أن تمكنوا من فتح الخزينة الفولاذية.

كان والدى شديد القلق لأن متجره أكبر بكثير.. ويبدو أن اللصوص كانوا بالفعل يفكرون فى اقتحامه ووجدت خدوش بالأقفال الخارجية.. لكنهم فشلوا.. ومنذ وقع هذا الحادث قام والدى بنقل كميات كبيرة من المجوهرات إلى المنزل.

* * *

٥ نيسان/ أبريل ١٩٥٧:

ما يزال خيالى يشطح بعيداً وفكرى فى انشغال.. حتى أننى لا أقدر على استيعاب دروسى بسهولة.

لقد تصورت أننى أوشكت على نسيان «بسام».. لكننى كنت واهمة.. فهو لم يهجر خيالى بعد.. ودائم الإلتصاق بأنسجة عقلى رافضاً ان يغادرنى ويتركنى لأستريح.

مراراً حاولت ومازلت أحاول أن أنساه.. لكن ماذا عساى أن أفعل..؟

لقد لجأت إلى الله أن ينسينى حبه.. لكنه يعشش بداخلى غصباً عنى.. وخدعتنى ظنونى عندما تصورت أننى قد أنساه.. فإلى متى يصدمنى غبائى..؟ لقد طلبوا من قيس بن الملوح أن يتعلق بأستار الكعبة ويدعى ربه أن ينسيه حب ليلى.. لكنه تعلق بها وقال: اللهم زدنى لليلى حباً.. ولا تنسنى ذكرها إلى يوم القيامة.

فهل أذهب إلى الكعبة أنا أيضاً لأرجو الله أن ينسينى حب هذا الباسم ولا تخطر صورته ببالى إلى يوم القيامة..؟

إننى لم أجد بعد ولم يذهب عقلى مثل ابن الملوح.. وإن كنت فى خوف مما سيعترينى إذا استمر الحال هكذا.

لقد اختفت أخباره عنى.. وبرغم محاولة الظهور أمام زميلاتى كأن أمره لا يعنينى.. إلا أننى أتشوق لرؤيته ولو من بعيد.. وأتنسم أية أخبار تجيئنى عنه.

لكن.. لا أخبار تصلنى.. وكأن زميلاتى تعمدن ألا يتحدثن عنه أمامى.. ولولا خجلى لسألتهن وألححت فى السؤال..!!

* * *

٧ أيار/ مايو ١٩٥٧:

التزمت البيت لتحصيل دروسى استعداداً للامتحانات.. إن علوم «الثانوية العامة» مرهقة جداً وشاقة.. ووزعت وقتى بين التحصيل والنوم.. عازمة على حرمان نفسى من مغادرة البيت لأى سبب كان.

إن حديقة بيتنا الخاصة واسعة ومليئة بالورود وأشجار الزينة.. ويكفى أن أتجول بها بعض الوقت نهاراً لأشعر بانتعاش لذيذ يهبنى القدرة على مواصلة الاستذكار بقية اليوم.

والدى يحفزنى على النجاح بتفوق لإكمال تعليمى الجامعى فى كلية الطب.. فهو يريدنى طبيبة بأى ثمن ليرتفع قدره بين أفراد العائلة الكبيرة أكثر وأكثر.. وأظن بأننى مهما فعلت أو بذلت من مجهود لن أتمكن من تحقيق رغبته.

ذلك لأننى كنت مشغولة جداً هذا العام بمشكلتى الخاصة التى أرقت حياتى وأبعدتنى كثيراً عن التحصيل والتميز كما كنت دائماً طوال السنوات الدراسية الفائتة.

الآن جاهدة.. أحاول فى وقت قصير محدود تعويض ما فاتنى.. وهذا الأمر يسبب لى ارتباكاً وأرقاً نفسياً يضاعف من توترى.. إضافة إلى انفلات أعصابى لاضطرابات النوم التى تلازمنى.

* * *

١٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٧:

خاب ظن أبى وأمى.. فقد حصلت على مجموع ضعيف فى الامتحان.. إن نسبة ٥٦٪ تعد نسبة هزيلة لن تحقق طموحاتى.. أو ترفع من شأن أبى كما كان يتمنى.

حبست نفسى بحجرتى أبكى على مصيبتى.. لكن والدتى جاهدت لتهدئتى والخروج بى من عزلتى.. وفى الوقت نفسه أخبرت والدى بأن نجاحى المتواضع هذا كان نتيجة لتوترى.. و «الدورة الشهرية».. وضعف بدنى نتيجة عدم إقبالى على الطعام.

وبرغم التهانى التى جاءت من الأهل والأقارب.. فقد كان والدى يقول أننى تكاسلت فى التحصيل.. ونظراً لتوافر كل الإمكانات فقد كان من الأجدر أن أنجح بدرجات عالية حسبما كان يأمل.

واصلت المكوث داخل حجرتى أجرع الندم وأبكى لما جرى لى.. لقد كان هذا الفلسطينى الناعم أحد أسباب نجاحى المتواضع.. مأساتى معه أخذت منى الكثير من الوقت.. والآن أشعر بأننى كنت غبية حمقاء.. فكيف ضيعت كل هذا الوقت فى التفكير فى قصة حب فاشلة..؟

لن يفيدنى الندم والتحسر.. ولن يفيدنى أيضاً تعاظم حجم الكراهية التى أشعر بها تجاه «بسام».. إنه السبب الأول فى مأساتى الآن.. ومن الأفضل نسيانه إلى الأبد لكى أشق طريقى بعقل مستريح قادر على التفاعل مع الحياة.

وذات مساء وأنا غارقة فى خضم معاناتى.. همست لى أمى بأن أبى ألمح إلى إمكانية إلحاقى بإحدى جامعات أوروبا على غرار أبناء الذوات فى الأردن.. لكن عمى الضابط فى القصر الملكى عارض هذه الفكرة.. بدعوى أننى مازلت بعد فتاة صغيرة يخشى عليها من الاغتراب وحدها فى بلاد غريبة بعيدة.

تمنيت ألا يقتنع والدى برأى عمى.. فالسفر للتعليم فى أوروبا منتهى آمالى وطموحاتى.. وتماديت فى عزلتى كوسيلة ضغط على والدى.. لعله يوافق..!!

* * *

٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٥٧:

اليوم ودعت أحزانى وقفزت فوق آلامى.

صعد والدى فى المساء إلى حجرتى وأخذ يحملق فىَّ لبعض الوقت.. ثم اقترب منى وسحبنى إلى صدره.. وقبلنى بعاطفة جياشة ثم أجلسنى قبالته وقال لى:

- يا ابنتى.. كم كنت أتمنى أن أراك دائماً طبيبة أفخر بها.. ولأن هذا الأمل لم يفارقنى حتى هذه اللحظة.. فقد فكرت فى إيفادك إلى إحدى جامعات أوروبا لدراسة الطب.. وبالفعل اتصلت بالسفارة النمساوية للاستفسار عن شروط الالتحاق بجامعة فيينا.

وبعد صمت للحظات أردف:

- لكن أريد منك وعداً بأن تحققى لى هذه الرغبة.. وأن تكونى فى الغربة فتاة مهذبة كما ربيتك.. ومجتهدة بما فيه الكفاية.. أريد وعداً بألا يسخر الناس منى ويتلفظون بالسىء فى الخفاء.. إن ثقتى بك كبيرة يا ابنتى.. فعدينى بألا تتصرفين بحماقة.. أو تجعليننى أضحوكة العائلة والناس فى عمان.

فوعدته بما أراد.. وبت ليلتى أرفل فى ثوب الحبور.. وتتهادى من حوالىّ عرائس الأحلام.

٨ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

تم ترتيب كل شيء بواسطة السفارة النمساوية.. حيث استقر الرأى على إلحاقى بجامعة فيينا.. وجاءت الموافقة النهائية أخيراً متضمنة سائر الشروط.

خرجت إلى المحلات مع أمى.. حيث تبضعنا واشترت لى أمى العديد من الملبوسات.. وعندما كانت تعيد ترتيبها فى البيت كانت تبكى بالرغم من ابتسامتها التى لم تفارق شفتيها.

كنت فى قرارة نفسى أرفض الأزياء التقليدية التى تعرضها المحلات.. وأتشوق بضعف زائد لأزياء أوروبا الحديثة التى تتناسب مع تطلعاتى للحياة الجديدة والمجتمع الجديد.. لكننى لم أكن أبغى مضايقة أمى بالرفض.. وتركتها تنتقى لى ما تريد.

ومع حلول الليل وانفراداتى بنفسى شرد خيالى إلى الأيام القريبة التى تنتظرنى فى فيينا.. وكيف لى مواجهة الحياة بها وأنا التى لم أغادر عمان من قبل..؟ وأخذت أتخيل أشياء غريبة وأحلم فى يقظتى.. وأرسم صوراً رائعة لإنطلاقى بعيداً عن تقاليد الشرق البالية.. والأعراف التى لا تتفق مع رغبتى فى أن أحيا حياة مختلفة رائعة.

إن ما يبهجنى حقّاً هو أن لا أحد له صلة بعائلتنا يقيم بفيينا.. على العكس من والدى الذى كان يؤرقه هذا الأمر ويشغله كثيراً.. لكنها رغبته على أية حال.. فهو الذى أرادنى طبيبة.. ولأنه يعرف بمدى هلعى لمنظر الجروح والدم.. أراد لى دراسة الطب النفسى.. ورشح له العديد من معارفه جامعة فيينا.. حيث تتميز بوجود قسم «علم النفس الطبى» ـ MEDICAL PSYSHOLOGY ـ الذى هو فرع من فروع الطب.. يختص بدراسة استجابة الشخص للمرض.. بهدف خلق أكفأ ظروف تناول المريض علاجياً.. بما يتفق مع ملامح شخصيته الفردية.

يختص هذا القسم أيضاً بطرق البحث السيكولوجى التى تستخدم الدراسة الإكلينيكية للحالة العقلية للمريض... فيما يتصل ـ ليس فقط بمرضه ذاته ـ بل

أيضاً بالإمكانيات التعويضية الكامنة فى شخصيته.

ولما اطمأن والدى على أننى سأدرس فرعاً جديداً من فروع الطب الحديث، بحيث لن أدخل غرفة العمليات.. وافق على جامعة فيينا مضطرّاً.. وإن كان بداخله رفض مكتوم لأننى سأكون غريبة ووحيدة.. بعيداً عن معارفه وأقربائه فى باريس وروما وبروكسل.

هكذا تحدد سفرى فى أوائل أيلول ولم يتبق لى بالأردن سوى شهر ونصف الشهر.. بعدها سأعانق الحياة وأطير كالفراشات بلا قيود..!!

١٨ آب/ أغسطس ١٩٥٧:

كنت آمل أن أراه قبل مغادرتى لعمان.. هكذا طاف بى الهاجس مراراً وتكراراً.. وحاولت نسيان الأمر.. بيد أن هناك فى داخلى كان ثمة إلحاح لا يكاد يتوقف إلا لكر.

حاولت كثيراً أن أنسى هذ الرغبة.. ففشلت.. وكانت أمامى كل الفرص للخروج والتبضع وزيارة الأصدقاء.. لذلك بحثت عنه فى كل مكان يفترض وجوده فيه.. إلا أنه اختفى وذاب وسط زحام عمان.

وطوال الأيام الفائتة حاولت باستماتة العثور عليه أو تلقط أخباره.. فباءت محاولاتى بالخيبة.. ولولا حيائى لاتصلت هاتفياً بصديقه الذي طالما اتصل بى من منزله.. وأعتقد أننى فكرت أيضاً بالذهاب إلى منزله للسؤال عنه.. ثم تراجعت.

وأصابنى ضيق حاد لاحظه أهلى على وجهى.. فاعتقدوا أنه القلق والارتباك بسبب التجربة الجديدة والسفر والاغتراب.. وكنت أضحك من ظنهم بينى وبين نفسى.. وأتألم.

صديقتى الوفية «خلود» هى الوحيدة التى تعرف كل ما أفكر فيه.. وتلمس عن قرب تمزقاتى وهمومى.. وبحب، قالت لى يجب أن أنسى.. فالمستقبل مفتوح

أمامى وحتماً سأقابل يوماً ما الشخص الذى يحبنى ويحترمنى.

كانت كلماتها تساعدنى كثيراً على الجلد والتماسك.. وبعد فترة قليلة كنت أخور لاهثة.. وسرعان ما يطاردنى شبح «بسام» وكنت على استعداد لأن أسامحه وأنسى إساءاته لى.. لكن ها هى الأيام تجرى وأكاد أغادر عمان وهو لا يعود.

فهل حقاً أستطيع نسيانه فى فيينا..؟

ليتى أقدر..!!

٣٠ آب/ أغسطس ١٩٥٧:

حقائبى ملأى بالملبوسات.. وقلبى ملىء بالأسى.. وأرّق عينى الفكر والشرود والسهر.

ألمح بعينى أمى شعاعات حزن تحاول إخفاءها عنى.. وأبى فى كل لحظة يرانى فيها يقبلنى.. ويحتضننى.. وتعمد ألا يقضى وقتاً طويلاً فى المحل حتى يكون بجوارى أطول وقت ممكن.

أما أخوتى.. فهم أيضاً يعاملوننى بحنان غريب يفوق ما عهدته منهم.. حتى عمى الذى كان مشغولاً دائماً فى البلاط الملكى.. أوجد وقتاً إضافياً لزيارتنا كل ليلة قبلما يذهب إلى بيته.

كل هذه المظاهر أزعجتنى.. ورسمت بخيالى صوراً مخيفة للفراق.. إنه لحدث بشع ذقت مرارة على يدى «بسام» وعرفت ألوان مذاقاته كلها.. فكيف الحال مع أهلى..؟!

* * *

٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧:

غداً سأودع عمان وأطير إلى فيينا برفقة والدى.. أمضيت نهارى بحديقة البيت مع صديقاتى وقريباتى اللاتى فى مثل سنى.. كن يضاحكننى وبوجوه بعضهن يطفح الحسد.. والحزن أيضاً.. وكنت أبدو متحمسة للسفر وللمستقبل

الجديد المنتظر وبداخى يقبع مارد من الخوف.

التقطت «خلود» عدة صور تذكارية جمعتنا معاً بين الزهور والأشجار.. وأحسست بكفها يضغط بقوة على كفى وكأنها تخشى أن أهرب منها.

وعندما صعدت لحجرتى لأنام وجدتنى لا أستطيع.. تمنيت والهاتف إلى جوارى أن يفعلها «بسام».. لكنه ذهب إلى حيث لا أدرى وتركنى أقلب صفحات ذكرياتنا.. وأناجيه بلا مجيب.

أحقاً تسيبنى..؟

هل طردنى من ذاكرته بمثل هذه السهولة..؟

طردت هذا الهاجس المؤلم وقمت إلى النافذة لعلى أراه يطوف بيتنا.

كانت السيارات تمرق ولا أحد يكاد يلتفت إلى ناحية شُبَّاكى.. لا أحد يفكر بمأساتى.. لا أحد يهتم بآهاتى الجريحة التى نزفت.. أو يمسح عنى بعض دمعاتى..

لا أحد.

استأسدت خواطرى ونهشت ذخائر صبرى.. وبقيت متيقظة طوال الليل يصم أذنى طنين عجيب.. ولم أنم إلا عند الفجر..!

* * *

٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧:

كان الوداع حارّاً مؤلماً دامعاً.. برغم إلحاح عمى على أفراد الأسرة ألا يبكوا فى الوداع.. وكان هو الوحيد الذى بدأ بشوشاً جلداً أمام محنة الفراق والوداع.

وحينما حلقت بنا الطائرة فى سماء عمان بكيت غصباً عنى.. وربت والدى على كتفى وهو يحيطنى بذراعه ويبتسم مشجعاً.. واستمر اللهيب يحرق أعصابى لساعات طويلة.. وعندما رأيت فيينا من شباك الطائرة هدأت نفسى قليلاً وقد انشغلت بمشاهدة المدينة وشوارعها الرفيعة ومبانيها الأنيقة.

لحظات وشرد عقلى.. وأيقظنى والدى من شطحاتى وقال لى:

ـ «هذه هى فيينا يا أمينة.. بين بيوتها ومعالمها ستعيشين عدة سنوات.. وكما بكيت وأنت تغادرين عمان.. ستبكين أيضاً ذات يوم وأنت تودعين فيينا إلى وطنك.. لأنك سوف تخلفين مراتع ذكرياتك هنا التى لن تفسد أبداً».

وقبلما أستوعب ما قاله أبى.. أردف:

ـ «إننى يا ابنتى خائف جداً عليك.. فهل ترى ستكون أيامك هنا فروحة كشبابك الغض... أم هى رحلة معاناة وشقاء ستذوبين فى محيطها العميق»؟

كانت كلمات والدى غامضة بالنسبة لى.. تغلفها نبرة أقرب إلى التحسر والندم.. ربما الندم لأننى سأبقى وحدى فى خضم هذا العالم والغريب.. ندم القائد العسكرى الذى خطط لإحدى العمليات الإستراتيجية دون دراسة كافية لحال جنوده.

أنهينا إجراءاتنا فى سهولة.. وعندما غادرت صالة المطار فى جنوب شرق فيينا ولفحنى هواء المدينة الجميل.. سبحت مع الأحلام والأمنيات.. وأذهلتنى الشوارع والحدائق والميادين ذات النافورات.. وأصابنى صمت يسيجه الانبهار بالمدينة الساحرة.

تخللت أنسجتى رائحة الورود وعبق التاريخ والفن والعمارة.. فسكرت من النشوى.. واصطخبت بأعماقى أعذب المشاعر.. وها هى ليلتى الأولى فى أوروبا.. ما أروعها من حقيقة لا أكاد أصدقها.

* * *

القسم الثانى
فى النمسا (١)

«إنهم فى بلاد الشرق.. فى بلادنا.. الناس تحيا فى الزرائب كالغنم.. منافقون أفاقون خاملون.. أغبياء كالصنم..

وعندما كبيرهم يُضَرِّطُ..

يهللون للفراسة والحكم..

ويؤرخون فساءه كبلاغة..

فاقت بها شعوبهم كل الأمم..!!»

٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧

ياله من حلم رائع أرى فى يقظتى تفاصيله وأعيها.. حلم يمر أمام ناظريَّ حلوَ المذاق ناعم الملمس.

قد كنت أحيا فى فلاة مجدبة موحشة.. واليوم أخالنى فى جنة اللّه التى لا مثيل لها.. جنة ما أبهى تضاريسها الخلابة وروعة صفائها.

إننى ما كنت قبل اليوم أحيا كالبشر.. بل كنت سجينة الجهل مُقبَّرة فى ظلام التخلف والعادات البائدة البالية.

ليتنى ولدت هنا وعشت هنا.. حيث الحياة بلا قيود أو نواهٍ.. أو متاهات الغباء التى سكنت بلادى وعششت كخيمة سوداء تحجب النور الذكى.. موروثة من جيل إلى جيل لا تندثر أو تدفن بين الكثبان.

فهنا الحياة ملأى ضجيج أغنيات وضحكات.. إنها تموج بلذاذات ليس لها من حدود.. لذاذات أنستنى ذلك الكلب العقور الذى خاننى فى عمان وفرق كبريائى.

لقد كنت أخشى أن تظل ذكراه تطاردنى وتؤرقنى.. لكننى بصقت على كل ذكرياتى معه.. نعم.. بصقت على كل لحظة استبد فيها بفكرى.. فبين الزحام والأضواء هنا تاهت منى ملامحه.. وانسحقت سحقاً فى خيالى.

لكم كنت ساذجة حقّاً عندما أحببته.. وظننت أن الحياة بدونه بلا مذاق أو جمال.. الآن عرفت الحقيقة.. واكتشفت مدى غبائى وجهلى وسذاجتى.. فمن يعيش بفيينا لا يعرف حزناً أو ألم.

* * *

١٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧:

اليوم ودعنى والدى وغادر إلى عمان.. ترك لى نقوداً ونصائح.. وسأبقى هنا بحجرتى وحدى فى «٥٦» شارع «يوهان شتراوس». لقد كان علىَّ اجتياز دورة

مكثفة فى اللغة الألمانية قبلما أنخرط فى دراستى بكلية الطب.. فنجاحى فى الألمانية هو الشرط الأساسى للقيد ضمن طلبة الكلية.. حيث تدرس العلوم بالألمانية التى هى لغة البلاد هنا.

لذلك التحقت بأحد معاهد اللغات للطلاب المغتربين.. والذى يقع مقره داخل أسوار الجامعة.. وإن كان ذلك لا يمنعنى من الاستمتاع بالخروج والتجوال بحرية بين المتنزهات والمحال التجارية.. تساعدنى معرفتى بالفرنسية والإنجليزية فى التحرك.

لكن يضايقنى كثيراً إصرار النمساويين على تجاهل أى لغة.. ويتحدثون مع الأجانب بالألمانية التى لم أفهمها بعد.. والمثير فى الأمر أن لسانى قد تحرك أخيراً واستطعت نطق بعض العبارات المتداولة فى المحال والأسواق.. وإلى حد كبير فقدت توترى وارتباكى عندما أحادث غرباء.

كنت عكس أغلب الطلاب الوافدين أجد ليونة فى اللغة الألمانية وطريقة نطقها.. لذلك كنت أتقدم فى تعلمها يوماً بعد يوم.. لدرجة أننى كنت أساعد زملائى أحياناً فى شرح ما ندرسه.

* * *

١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٧:

كتبت رسالتى الثانية لصديقتى «خلود».. ضمنتها وصفاً دقيقاً لحياتى هنا ودراستى فى معهد اللغات. وتعجبت لأمرى عندما أوشكت أن أطلب منها موافاتى بأية أخبار عن «بسام».

ولماذا يخطر ببالى هكذا وأنا فى قمة انشغالى هنا..؟

ترى هل لا يزال يذكرنى..؟!!

١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٧:

انتقلت اليوم لبيت الطالبات المغتربات بالجامعة.. المبنى رائع ونظيف وتحيط به حديقة مزهرة.. كما تطل حجرتى ذات السريرين والحمام على حديقة دائرية خيالية التنسيق.. وجاءت إقامتى مع طالبة بنهائى الطب من «جوهانسبرج» اسمها «جولى باتريك» بقصد تنشيط لغتى الألمانية.

فى البداية اعتقدت أننى سأقيم مع فتاة زنجية.. لكننى دهشت عندما وجدتها فتاة شقراء ذات حسن خلاب وضحكة رنانة.

ضحكت «جولى» كثيراً عندما صارحتها باعتقادى الأول.. وأخبرتنى وهى تكاد تموت ضحكاً بأنها إنجليزية الأصل.. وأن الأوروبين البيض من استوطنوا «روديسيا» ويمثلون الأقلية فى البلاد.. لكنهم مع ذلك يحكمونها ويعملون على إخراج السكان السود الأصليين من ظلمة الجهل إلى النور.

كانت «جولى» فتاة رقيقة تكبرنى بنحو خمس سنوات.. تدخن السجائر.. وتشرب الخمر سرّاً فى الحجرة.. وتسخر من ملابسى وعاداتى.. وتتوعدنى دائماً بأنها لن تعود إلى وطنها إلا وقد غيّرتنى من الخارج.. والداخل.

* * *

٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٧:

أخذتنى «جولى» إلى أسواق وسط المدينة حيث المحلات الكبيرة الفخيمة.. وانتقت لى العديد من الملابس الأوروبية الحديثة.. وكانت تنصحنى فى كل وقت بأن أحرص على رونقى وجمالى وإظهار أنوثتى من خلال أناقتى.. كذلك كانت تنصحنى كيف أبدو متحررة سلوكاً وعقلاً.. وأن أنسى كل موروثات عاداتى القديمة فى بلاد «الخيمة والناقة» كما تسميها.

فى البداية كنت أشعر بالخجل وأنا فى الملابس الحديثة.. ثم اعتدت على هذه الملابس ولم أعد أظن بأن هناك عيوناً ترقبنى.

أيضاً.. اعتدت على وضع «الماكياج» حيث علمتنى زميلتى كيف أتجمل فى سهولة وبساطة دون الإعتماد عليها فى ذلك.

لكن ما أرقنى حقاً هو إصرارها على أن أدخن فى تحرر كالأوروبيات.. وكانت التجربة الأولى مريرة وشاقة.. فقد تملكتنى نوبة سعال عنيفة.. وبعد محاولات وتشجيع من «جولى» أجدت التدخين.. ولم تعد حقيبة يدى تخلو من علبة السجائر والقداحة.

* * *

٢ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٧:

بالأمس.. خرجت و«جولى» وبرفقتنا زميلتنا «شارلوت» إلى سهرة بأحد نوادى فيينا الليلية.

لا أعرف كيف أصف سعادتى وأنا أرقص فى انطلاق بلا حدود.. أرقص فأنفض حيائى الذى يلجم تصرفاتى ويعرضنى للسخرية والتهكم.. وكلما رقصت أحسست كما لو أننى أطير فى الآفاق بلا أجنحة.. فيزهو عمرى وتنتشى أحلامى.

شربت «جولى» كثيراً حتى ترنحت من السكر.. بينما لم تعارضنى واحترمت رغبتى عندما رفضت مشاركتها.. فقط حذرتنى من برد أوروبا الذى لا يدفئه إلا الخمر.. الخمر وحده و «الجنس»..!

بدت الكلمة الأخيرة غريبة على مسامعى.. وتلجلج لسانى وأنا أنطقها متساءلة على استحياء.. فنظرت «جولى» إلى فى دهشة وقد فغرت فاها كأننى ارتكبت جريمة.

لكن «شارلوت» كانت صريحة معى أكثر من اللازم.. وذلك عندما أخبرتنى أن الجنس حرية شخصية.. وأنها تمارسه مع صديقها السويدى فى أى وقت.

عند ذلك تكلمت «جولى» وقالت رداً على كلام «شارلوت»: أن ممارسة

الجنس مع صديق أمر له مخاطرة.. وقد يؤدى إلى مشكلات وخيمة خاصة إذا كانت الفتاة مازالت طالبة..(!)

ثم وجهت «جولى» حديثها إلى قائلة فى نصح بأننى يجب ألا أفكر مطلقاً فى الانطلاق ومصاحبة أحد الشباب.. وذلك حتى لا أنجرف إلى علاقات جنسية تضر بى.. خاصة وأنا فتاة شرقية قبل أى شىء.. ويجب أن أكون عذراء عند زواجى.

حيرتنى «شارلوت» وأخافتنى «جولى».. وفكرت كثيراً فيما دار من حديث.. وبرغم إحساس بصدق «جولى» وخوفها علىّ.. إلا أننى كنت بحاجة لمعلومات أكثر تغذّى نهمى لمعرفة أسرار مثل هذه الأمور الغامضة.. التى تخفى على فتاة مثلى ولدت وتربت وعاشت فى بلاد يسودها الجهل والقهر.

لكن مثل هذه الأشياء فى أوروبا تعد ثقافة لا ضرر من تداولها وتعليمها وتعلمها.. حيث تناقش وتدرس وتشرح فى المدارس والصحف وعلى الألسنة بحرية بلا أدنى خجل.

* * *

١١ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٧:

تحاضر لى «جولى» كل يوم وتخصنى بمعلومات هامة جداً وخاصة.. إنها بلا شك صديقة وفية مخلصة.

فمنذ عدة أيام وهى تحذرنى من الجزائريين والمغاربة.. وبالأخص الجزائرى «عونى بن قاسم» الذى يهوى الإيقاع بالفتيات المستجدات بحجة مساعدتهن.. ثم يقيم معهن علاقات خاصة تحت مسمى الحب والصداقة.

كنت أعرف «بن قاسم» هذا.. لكنه لم يكن مقرباً إلى بالقدر الذى يجعلنى أخافه.. لكننى منذ عرفت سيرته بدأت أرقبه عن بعد.. ودهشت حيث لمحت نظراته الثاقبة للفتيات.. ومطارداته لهن بين أروقة الجامعة وحدائقها.

شغلنى هذا الأمر كثيراً.. وسألت «جولى»:

ـ لماذا حذرتنى من «بن قاسم» بالذات..؟

فأجابتنى بلا تفكير:

ـ لأنه تسبب فى وفاة طالبة من بلجراد اسمها «أوفيليا».. حيث أقام علاقة حميمة معها فحملت منه.. وماتت المسكينة فى المستشفى عندما كانت تجرى عملية الولادة.

صدمتنى الحكاية لأيام طويلة.. وجعلتنى أتساءل عن جدوى العلاقات الجنسية بين الشباب فى أوروبا بهذا التفشى الموبوء.. وهل هذه هى الحرية التى يريدون تصديرها إلينا..؟!

الحرية التى يتشدقون بها فى الغرب.. ويتعاطاها الناس كالبهائم دون قياس لمآسى إطلاق حدودها.

إنها فيروس التفكك الأسرى والانحلال وعصور الظلام.

وبعد اطلاعى على الكثير من مشاكل شباب المغتربين من الجنسين.. تملكنى الفزع.. خاصة وقد انتشرت حادثة الاغتصاب المروعة داخل إحدى قاعات الجامعة أثناء حفل صاخب.

كنت عقيمة الثقافة قبلما أجىء إلى أوروبا.

نعم هذه حقيقة لا أنكرها.

والآن.. عرفت الكثير والكثير.. وتكونت لدى رؤى حقيقية عن أسرار الفتيات الوافدات من مجتمعات منغلقة إلى حد ما.. ومدى اشتياقهن لحياة الحرى والمجون بشتى صورها، بعيداً عن الرقابة والخوف والقيود الاجتماعية.

والمدهش.. أن «جولى» كانت تسخر من هؤلاء الفتيات.. وترفضن مثلى الإنخراط وسط مجتمع الشباب بشكل واسع، تخوفاً من انسحابها دراسياً إلى الخلف.. فهى كما كانت تقول ما جاءت إلى النمسا إلا لأجل الدراسة فقط.

لذلك.. كانت جولى لا ترتبط مع الشباب إلا بعلاقات زمالة واحترام.. ونصحتنى كثيراً أن أحذو حذوها لكى تمر سنوات الدراسة فى الغربة بلا منغصات.. فأعود إلى وطنى «الشرقى» وأنا أشعر بالأمان.

بيد أنها ذات يوم تحدثت بصراحة مفرطة أذهلتنى.. حيث أفهمتنى أن لكل فتاة منا أحلامها الخاصة.. وحاجاتها الحسية الملحة كالجنس والإشباع.

فى بادئ الأمر استنكرت ما تقوله.. ومع حديثها الأكثر تحرراً غصت فى خجلى.. وشعرت ببدنى كله يرتجف حياءً.. فعتبت علىَّ استخفافى بما تقول.. وأكدت أننى لن أسمع أبداً هذا الشرح من أى إنسان.. ولن أجده فى كتاب.. أو أصل إلى شروح سهلة تفسره كما تفعل هى.

وفجأة سألتنى ونظراتها مسلطة إلى:

ـ لا تخدعيننى يا أمينة.. ألا تستمتعين وحدك فى السر؟ إن هذا الفعل يطلق عليه علمياً «العادة السرية».. فهل تمثلين علىَّ دور الراهبة العفيفة التى لا تعرف شيئاً سوى التعبد والصلاة والدعاء..؟!

فصرخت فيها أن تكف عن هذا الهراء.. لكنها كانت لا تزال تحدق فى وجهى بثبات وقالت:

ـ ألم تمارسى العادة السرية يا صديقتى أبداً؟

انتفضت كما لو أن ثعباناً لدغنى.. فضحكت هازئة وهى تقول:

ـ إننى أمارس هذا الأمر بشكل يومى منذ سنوات.. فهو صحى جداً وذو فائدة للعقل والبدن معاً.. ولا يعقل ألا يمر إنسان قط بتلك المرحلة النموية الهامة.. وإلا فستطحنه العقد النفسية وأمراض الكبت.

قالت هذا ثم أخرجت من دولابها كتاباً بالإنجليزية عنوانه:

"The repression" وطالبتنى بقراءته.

كان الكتاب ـ وعنوانه «الكبت» ـ يشرح الإنسان فسيولوجياً ويكشف أمراض

النفس فى تحليل مبسط واضح.. وعند ذلك انشغل عقلى بأمور جديدة كانت خافية عنى.. ووجدتنى أسرح بين ضفاف شاسعة لا نهاية لها.. وكلما أمضيت فى قراءته ازددت اقتناعاً بأننى كنت غبية ساذجة.. بلغت الثامنة عشرة من عمرى ولا أعرف شيئاً البتة عن وظائف العديد من أعضاء جسدى!!

* * *

٢٥ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٧:

لم تكن الأيام الفائتة هادئة صماء.. باردة.. بل كانت صاخبة مثيرة وأكثر سخونة من صيف بلادى.. وأحداثها أكاد أخجل من تسجيلها هنا بمذكراتى ويومياتى التى لا أدرى لماذا أحرص على كتابتها..

ولمن..؟

لكننى أمام هذا الحدث العجيب فى حياتى لا يسعنى إلا أن أكتب عنه بأسلوب بسيط.. وبألفاظ مخففة.

فمنذ أيام أصيبت «جولى» بدوار حاد فى المساء.. وطلبت منى كوباً من عصير الليمون.. فشربته ونامت.. وكانت تلك المرة الأولى التى أراها تخفى وجهها تحت الأغطية.. فأشفقت عليها وهممت بالخروج لأخبر طبيبة الدار.. لكنها رفضت بإصرار.. فجلست إلى جانبها أتحسس جبهتها الدافئة.

كنا قبيل منتصف الليل.. تتساقط فى الخارج ندف الجليد.. بينما حجرتنا معتدلة الحرارة.. مما دعا «جولى» إلى تخفيف ملابسها.. وفى الظلام تجاورنا نتحادث.. ويتجه بنا الحديث شيئاً فشيئاً إلى الجنس حتى فوجئت بها تقول وقد استردت عافيتها أو كادت:

- «أنت الآن يا صديقتى فتاة مثقفة ذكية.. معك الآن أستطيع التجوال بحرية لا نهائية فى شتى الأمور.. أعندك رغبة فى الحديث»؟

قلت وأنا أزدرد لعابى:

ـ «نعم»!.

أمسكت عند ذلك بكتفى وجذبتنى لأسفل.. فاستجبت وانزلقت حتى جاورتها على سريرها الضيق وبى شغف لأعرف المزيد والمزيد.

أشعلت سيجارتها وناولتنى أخرى.. ومع الدخان المتصاعد امتد الحديث طويلاً.. وعند وميض السجائر كنت ألمح بعينيها نظرات ناعسة ذات بريق غريب.. وأجد فى صوتها نبرة أخرى لم أعهدها.

قالت فيما يشبه الهمس أنها ما نصحتنى بالابتعاد عن الشباب إلا لأننى فتاة شرقية طيبة تفتقد الثقافة الجنسية الصحيحة.. ولولا ذلك ما تخوفت علىّ من سوء المصير فى بلاد تمثل الحرية أحد أهم معالم تحضرها.

وأضافت فى صوت أقل همساً أنها قد ارتاحت لصحبتى.. واختارتنى بالذات رفيقة لها فى الحجرة.. وصديقة وحيدة تأنس إليها فى الغربة الكئيبة.. بل واعتبرتنى حبيبتها أيضاً.

قالت ذلك وقد مالت واستكانت على صدرى تداعب شعرى المنساب.. واستمرت فى حديثها الهامس تنصحنى بأن أستمتع بالحياة.. استمتع بكل ما لا أعرفه لأتعلم وأعرف.. وأن أنشد اللذة بلا خوف أو توتر.. فهذا لن يتوفر إلا برغبتى فى استكشاف ذاتى وإطلاقها من معقلها إلى حيث النشوة اللانهائية.. بلا خوف أو خجل.

لست أدرى كيف سحرتنى «جولى» ليلتئذ وسيطرت على عقلى.. فخضعت لها مستسلمة بلا مقاومة.. ذلك لأن جسدى قد تفاعل مع لمساتها ولم أعد بقادرة على إسكات نداءاته.

ترى.. هل هو هاجس البحث عن ذاتى المبعثرة بين الشرق والغرب؟

أم هو الخجل الشديد الذى كبّل إرادتى وشل مقاومتى؟

ربما هو وذاك معاً..

وربما لأننى استشعرت أحاسيس غريبة.. بدت كدبيب نمل له خدر مسكر ومذاق شهى؟

هذا الدبيب الخدر تحول إلى رعشات ارتجافية أترعتنى لذاذات ما ذقتها قبلاً أو تخيلت مذاقاتها التى لا توصف روعة.. وانتشاءً.. وأحاسيساً بكراً دفوقة فى استكانة.. وأعاصيرية ثائرة متقلبة.

كانت تجربة مثيرة حقاً.. وما أدهشنى أننى رضخت خاضعة لـ «جولى» وهى تكاد تعتصرنى وتتخلل مفاتيح نفسى بأصابع خبيرة عليمة.. حتى أننى تركتها تتصرف كما تريد.. وأستجيب لها أيضاً كما تريد.. وفى الظلام كنت مذهولة وأنا أنصت لضجيجها وهى تهمس بلغة آمرة تطالبنى بالمزيد من التلاحم.. والاندماج.. والسباحة تلذذاً..

ففعلت..(!)

نعم.. فعلت كل ما أمرتنى به.. بل وزدت عليه لإضفاء المزيد من النشوة وامتزاج الأحاسيس.

بعدها نمت ثملة لا أعى شيئاً.. لكن جسدى كان يزفر فى فوران محبب.. وارتجاف لطيف بعث فى نفسى سكينة حانية..!

وفى الصباح تملكنى الخجل عندما تصطدم عينى بنظرات «جولى».. لذلك لزمت الفراش حتى خرجت من الغرفة إلى الكلية.. فقمت استعداداً للخروج أنا كذلك.. وعلى حين فجأة انفتح باب الحجرة ووجدتها فى مواجهتى.. فوجمت وأدرت وجهى.. ولم أتخيل كيف سأواجهها من جديد.. ومن أين لى بالقدرة على ذلك؟!

لكنها كانت ذكية حقاً عندما قرأت ما يجول بخاطرى.. فقد اقتربت منى وأدارت ذقنى إلى ناحيتها.. ورأيتها ممتقعة اللون مضطربة وهى تقول:

ـ اسمعى يا أمينة.. إن ما حدث بالأمس يا صديقتى تجربة عملية وجب

عليك معايشتها.. للتغلب على خجلك من ناحية.. ولإدراك مكنون ذاتك من ناحية أخرى.. ولتعلمى أن طريقة تصريف الطاقة هذه.. هى الوسيلة الوحيدة المأمونة.. والبعيدة عن مشكلات الحمل والإجهاض ورعب الخوف منهما.

وأضافت:

- لقد كانت الجنسية المثلية Homosexuality فى يوم ما هى العلاقة الصحيحة أخلاقياً كحب.. ويتحول إليها فى عصرنا الكثير من الأفراد الذين يعتبرون أسوياء ناجحين.. بل عباقرة.

وفى نهاية حديثها تركت لى الخيار فى أن نظل معاً فى الغرفة.. أو انتقال أحدنا إلى غرفة أخرى.

تركتنى «جولى» وخرجت.. وأخذت أقلب فكرى فيما حدث.. وألهث وراء إجابات لألف سؤال.. وأعترف بأننى عجزت عن الوصول إلى نتيجة ترضينى.. وبقيت طوال النهار متوحدة.. خجلى.. أدور فى دوامة عنيفة الضربات لا ترحمنى.. أو تدعنى لأهدأ.

وعند المساء جاءت «جولى» فهاجمنى خجلى.. ولفنى سكون وصمت.. وحاولت أن أبدو هادئة مرحة كطبيعتى لكننى فشلت.. ويبدو أن «جولى» أدركت أن لا فائدة منى.. لذلك سحبت حقيبتها الكبيرة فى سهوم وأخذت تعبئ ملابسها.. وعند ذلك تبين لى مدى فداحة الأمر.. فأنا بدونها سأبدو كاليتيمة.

وقبلما أفتح فمى ضارعة.. التفتت إلى وقالت فى أسى:

- آسفة جداً يا عزيزتى.. سأنتقل إلى غرفة أخرى.. فالحائط الذى انتصب بيننا يبدو أنه لن ينهدم أبداً.

فى خطوتين قفزت نحوها وألقيت برأسى على صدرها وأخذت أبكى.. كنت لا أصدق أنها ستتركنى وحدى.. ولا أتخيل ماذا سأفعل بدونها، وبلا تردد حملت ملابسها بنفسى إلى الأدراج والخزانة.. فعانقتنى بقوة ثم نظرت إلى عينى بعمق.. ومسحت دموعى..!!

١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٧:

تبدلت فتاة الشرق التى تكره التخلف وترنو إلى التحرر.. تبدلت كثيراً.. فكراً.. وروحاً.. وعقلاً.. ومشاعرَ.. هذه هى الحقيقة بلا كذب.

فذات يوم كنت أهوى «بساماً» وأعشقه.. واليوم أدمن «جولى» وأبغيها.. صارت كالخمر عندى أطلبها.. وأنشدها.. وأشربها لذائذاً كالدفق تصلينى.. فتبعث الرجفات موجاتاً لا تهدأ.. لكن تصور فيصطخب العمر منى لواعجاً عجباً.

الآن.. أنا لم أعد أنا.. بل تشكلت بأشكال أُخرى.. نضت فتاة الشرق حياءها.. وغدت اليوم ملامحها جديدة.. ودواخلها جديدة.. وثقافتها جديدة.. وكلها صارت جديدة فى جديدة.

هل ترى فى الشرق بعض روح من هنا..؟!

هل ترى فى البداوة والمجاهل بعض نور من هنا؟!

وهل هناك بعض أمل فى أن تباد عقول تجهل كيف يحيا الناس هنا..؟!

إنهم فى بلاد الشرق.. فى بلادنا..

الناس تحيا فى الزرائب كالغنم..

منافقون أفاقون خاملون..

أغبياء كالصنم..

وعندها كبيرهم يُضَرِّطُ..

يهللون للفراسة والحكم..

ويؤرخون فساؤه كبلاغة..

فاقت بها شعوبهم كل الأمم[1]..

إن جذور أسرتى الشركسية الأصل، لم تكن أبداً رخصة للعقلانية فى النظر

(١) ونعم البلاغة حقاً يا أمينة..!!

لحقوق المرأة.. فالعشيرة الشركسية المحدودة العدد فى عمان قياساً بعدد السكان.. أصيبت بذات الفيروس اللعين.. وأخذت بغضاً من تقاليد البداوة كمعيار فى شتى أمورها.

فقد كان لزاماً علينا ـ نحن النساء الشركسيات ـ ألا نبدو بين عامة الناس كنسيج مغاير منهجاً.. وسلوكاً.. وشكلاً.. إلا أن ثمة اختلافات كبيرة كانت جلية خلف الجدران لا يراها أحد سوانا.

فالشراكسة كانت تضمهم عادات موروثة أصيلة.. لا تكاد تظهر إلا فيما بينهم.. وتربطهم جميعاً أهداف واحدة سعوا لتحقيقها.. كان من أهمها التعليم.. وتقلد المناصب.. والتجارة.. فتتحقق لهم بذلك مكانة مرموقة.

بيد أن الرؤى على حقيقتها بدت مبهمة غيمية.. فلا نحن ذائبون فى نسيج العادات العربية البدوية من ناحية.. أو تظللنا عاداتنا الخاصة من ناحية أخرى.

لذلك فقد انسحقت هويتنا وفقدنا الكثير من أصول جذورنا.. لكن بقيت هناك بعض أطلال تحضّر تحكم سلوكنا فى أقل القليل من المواقف.

وما بين هذا الانسحاق ومظاهر الذوبان.. بدت شروخ وتصدعات فى عقولنا نحن الصغار.. حيث البداوة فى السلوك الظاهرى.. وبالباطن رفض لها.. وتمرد، وكان تعليم أبناء الأثرياء فى جامعات أوروبا أحد مظاهرا الصرابيع بين العلم والتخلف فى مجتمع من الجهلاء!

* * *

٢ كانون الثانى/ يناير ١٩٥٨:

كانت ليلة رأس السنة من أروع أمسيات حياتى.. سهرت لقرب الصباح فى ملهى "Aube".. كانت معى «جولى باتريك» و «شارلوت» ولفيف من زميلاتنا.. وهناك رقصت بحرية وانطلاق.. وشربت كثيراً حتى أشفقت «جولى» لحالى ومنعتنى من الشرب.

كان يتواجد أيضاً «بن جاسم» الذى تمادى فى التحرش بى.. لكن «شارلوت» لم تتركه يزيد من وقاحاته وعملت على إبعاده عنى طوال السهرة.. بيد أنه كان يتحين الفرصة ليهمس لى بكلمات بذيئة وهو يكاد يفترسنى.. وزجرته بعنف وأنا أقول له:

ـ حاذر أيها الجزائرى القذر.

أيظن هذا الوغد بأننى كنت لأستجيب له؟

آه لو يعلم هو أو غيره من زملاء الجامعة أننى مشبعة تماماً.. ولا أمل لأحدهم فى الوصول إلى حالاً.. أو مستقبلاً!

الغريب أننى فى هذه الأمسية كنت أشعر بزهو مدهش بدا على ملامحى.. ولاحظت «جولى» ما طرأ على فجأة من تغير.. فسألتنى بدهشة عما جرى لى.. فقلت لها فى جرأة مذهلة:

ـ ألا تشعرين بما بى..؟ إننى أكاد التهمك أيتها الوحشية الناعسة العينين.. إن عينيك تثيران بداخلى أشياء صعب وصفها.

وفهمت الملعونة مقصدى.. فغمزت بعينيها وهى تضحك.. وتبعتنى إلى دورة المياه فانفردنا لدقائق.. ولم أسترح إلا بعدما تخلصت من ضجيج لسعاتى اللاهبة.

تلك كانت إحدى صور فتاة الشرق فى ثوبها الجديد.. (!!).

* * *

٩ نيسان/ أبريل ١٩٥٨:

تحولت حياتى خلال المدة القصيرة التى قضيتها فى النمسا إلى حياة أخرى مغايرة لما عهدته قبلاً فى عمان.. وتطورت علاقتى بـ «جولى» إلى ذروة أشكال التحرر.. حتى أنها كانت تقول:

ـ لقد تفوقت علىّ يا ابنة الشرق.. وصرت أكثر إدماناً منى وخبرة واحترافاً.

هكذا تطورت تجاربى وثقافتى «الخاصة» الجديدة.. وعرفت مدلول «السيكوباتية» Psychopathic ولماذا أنا سحاقية..!

ونظراً لتحليلاتى المنهجية لما طرأ على حياتى وشخصيتى وسلوكى من تغيرات.. عكفت على قراءة كتب علم النفس.. واطلعت على كتابات كولمان Colman وسيجموند فرويد، خاصة ما جاء فى «ثلاث مقالات فى نظرية الجنس» "Three Comtributions to the theory of Sex".

لذلك عشقت دراسة علم الأمراض النفسية والطب العقلى والنفسى.. وتأهلت نفسياً لدراسة هذا الاتجاه بالجامعة.

* * *

٢٣ نيسان/ أبريل ١٩٥٨:

منذ أيام جاء والدى لزيارتى والاطمئنان علىَّ.. وهذه المرة قمت بدور المرشد السياحى له.. فأخذته فى جولات مختلفة بالمدينة الساحرة.. وبعد خمسة أيام عاد إلى عمان تغمره سعادة كبيرة لتقدمى الواضح فى اللغة الألمانية.. بالرغم من أنه بدأ متضايقاً إلى حد ما بسبب ملابسى المودرن ومكياجى الخفيف.

وبقدر ابتهاجى برؤيته كنت التحف بالخوف.. فأيام الامتحانات كانت على الأبواب.. وانحصر هذا الخوف فى انفصالى عن «جولى» التى من المفترض أن تعود إلى جوهانسبرج وتتركنى هنا وحدى.. وتمنيت من الله ألا تنجح صديقتى لتظل إلى جوارى عاماً آخر.

صارحتها بما أفكر فيه وأتمناه.. فآزرتنى وحاولت تلطيف الجو المشحون قدر الإمكان عندما قالت أنها أيضاً تفكر فى حالى بعد سفرها.. على وعد بأن تعود إلى فيينا العام الدراسى القادم لقضاء عدة أيام.

نصحتنى «جولى» أيضاً بأن أجتهد فى دروسى.. وأتخير صديقة جديدة، وافدة، لتقيم معى فى الغرفة.

ضغطت حروفها وهى تنطق «وافدة» بما يؤكد رغبتها فى إقامة «صداقة» مع فتاة بلا تجارب.. تماماً كما فعلت هى معى.

وبالرغم من سعيها للتفوق لضمان مركز مرموق فى بلادها.. إلا أنها كثفت كثيراً من «جرعات» صداقتنا كناحية تعويضية.. وأعترف بأننى خلال هذه الفترة.. صرت أكثر تبجحاً.. وحرية فى التجاوب والمشاركة وطلب الوطر.

هكذا أمضيت أياماً جميلة ورائعة فى فيينا مع حبيبتى «جولى».. ونبذت التفكير فى حياتى بمفردى بعد سفرها.. فالأيام القليلة التى بقيت لها هنا لا تستدعى سوى مناشدة السعادة واللذة.. دون إرهاق العقل والخاطر بأية منغصات.

حاولت ذلك قدر استطاعتى.. فنجحت أحياناً.. وفشلت أحياناً أخرى.. فطرقات الحقيقة على أبواب عقلى بدت متصلة مستمرة.. توقظ الوعى وتنأى به عن أحلام الرعونة.

ترى..

كيف ستمضى بى الحياة هنا طوال السنوات المقبلة..؟

وهل ستكون كما الآن هانئة رائعة وردية..!؟

لست أدرى..!!

* * *

٧ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

انتهت امتحاناتى.. ونجحت عن جدارة فى اختبارات اللغة الألمانية وقبلت أوراقى بشكل رسمى فى كلية الطب لأدرس مواد الطب العقلى والنفسى Psy- chiatry إلى جانب المنهاج الطبى.

شكّل هذا الأمر خطوة هامة فى حياتى العملية.. وبدلاً من السفر إلى عمان فور قيدى بالكلية.. فضلت أن أبقى بفيينا إلى جوار صديقتى «جولى» التى نجحت وانشغلت بإنهاء أوراقها.. وتوثيقها فى الجهات الرسمية لترجع بها إلى جوهانسبرج.

لقد تحدد سفرها بعد أيام.. ولم يعد بمقدورنا إضاعة أية لحظة فى الخروج للتنزه.. بل قبعنا بحجرتنا نكاد لا نغادرها إلا للضرورة.

الساعات تجرى ولا تتوقف أبداً.. ونحن أيضاً فى سباق محموم مع الزمن.. حيث ننتهز الساعات والدقائق لكى ننهل معاً من ينبوع سنحن إلى قطراته بعد أيام.. لذلك فنحن نتزود منه ولا نكاد نشبع.. فبداخلنا عطش أبدى لا ينقطع ولا يروى.. ورغبة جامحة مغلفة بالحب والشوق والحنان.

أحياناً.. تبكى «جولى» لأجلى فتبكينى.. وتجمعنا معاناة واحدة.. فالضعف أوشك أن ينقلب انهياراً.. وألم الفراق تلسعنا مرارته ونحن لا نزال معاً.

التقطنا صوراً كثيرة لعلنا لمرآنا نطفئ نار البعد السحيق.. وكتبت لى رسالة حب على منديلى وهكذا فعلت أنا أيضاً.. وكانت تحذرنى فى كل وقت قائلة:

- نصيحتى الأخيرة لك يا صديقتى: لا خير فى مصاحبة الشباب.. وإياك والاغترار بنفسك.. فهم لا يُقدّرون فكرك بقدر ما يتلهفون على جسمك، فإذا ما نضوت ثياب العفاف والشرف.. زهدوا فيك كزهد السباع للجيف..!!

وأضافت:

- مكرمة لك انتقاء فتاة يروقك شبابها فتتخذينها صديقة.. ولتطويعها أنت أدرى.. فهناك لذلك ألف طريقة وطريقة.. لكن قبلما تخطين أول خطوة معها.. لتكن بينكما أولاً صداقة وثيقة.. فالوفاق النفسى أحرى بالامتزاج والتفاهم والتسامح..!!

* * *

٩ تموز ١٩٥٨:

ودعت «جولى» بالمطار وكأنى أنزع أضلعى.. فكيف الحياة بدونها وكيف يهنأ مهجعى..؟ من بعدها سأبدو فلاة جرداء وعُود قشيب بكينا أكثر مما بكينا من قبل.. كنت ملتاعة وكانت بائسة.. كنا نصبِّر بالوعد والدعاء.. وعندما انسلخت

منى ودلفت إلى المطار.. كأنما انسلخت روحى عن جسدى.. فشهقت وكدت أنهار لوعة وحزناً.

وعدت إلى حجرتى وحدى أجرجر آلامى وأُطيِّب جراحاتى.. يا ليتنى ما عرفتها أو تعلقت بها.. وتساءلت:

- ترى هل ستجمعنا الأيام ثانية ذات يوم؟ أم هو الفراق الطويل المرير الذى لا لقاء بعده..؟

لقد اغتمت نفسى ولم تعد بى رغبة للسفر إلى عمان.. فماذا هناك فى عمان؟

هناك الحبس فى البيت والأوامر والنواهى كل لحظة..

هناك قيود لعنة الله عليها تكبلنى وكأننى أذنبت فأودعونى سجناً لا ضوء به أو شعاع هارب.

فلماذا إذن أعود..؟

- أشواقى لأهلى نعم.. لست أنكرها.. لكننى أخشى قيودهم وقد تحررت هنا منها.. تحررت بحيث لا أستطيع أن أتبرقع ثانية أبداً.. فما ذنبى وقد أطلقونى وحَرَّرُونى من القيود..؟

أرجع إلى عمان شوقاً إليهم..؟ سأموت لو بقيت هناك يوماً واحدة... فحياتى لا معنى لها فى غير الضياء.

١١ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

أبرقت لوالدى كذباً بأننى سأبقى بالجامعة لإعداد أبحاث ميداينة هامة.. أعرف أنه هاج ثائراً عندما قرأ برقيتى.. وليس ببعيد أن يحزم حقيبته ويطير إلىّ غاضباً.

دفعت مصروفات الإقامة الصيفية ببيت الطالبات المغتربات.. وكنت أبيت بحجرتى وحدى بلا رفيقة.. فالدار شبه خاوية إلا من فتيات لا يتجاوزن التسع.. لا أعرف منهن واحدة.

وعندما عرضت المشرفة أن تشاركنى إحداهن غرفتى رفضت.. فمن تلك التى ستبيت بسرير «جولى» حبيبتى..؟! إن هذا لن يكون.

١٦ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

كما توقعت.. جاء والدى بالأمس ثائراً على بقائى بفيينا.. وأقسم بأغلظ الأيمان ألا يعود بدونى.. وفشلت كل محاولاتى معه لأبقى.. وعلى ذلك طلبت منه إمهالى حتى توافق الجامعة على طلب إعفائى والعودة إلى الأردن.

واليوم أوهمته بموافقة الجامعة.. وتحدد موعد سفرنا يوم ١٩ تموز/ يوليو قبل منتصف الليل.

واختنقت غصباً عنى.. فها أنا أعود للحبس من جديد..!!

* * *

القسم الثالث
فى الأردن (٢)

«ودون أن تدرى.. أيقظت براكـين أشـواقى من رقـادها.. فـأينعت من جـديد براكـين ذكـرياتى وأورقت لهفة.

هكذا اكتـملت خيـوط الحب الأول التى ظننتـها تهـتكت.. وانسـابت أغنيـات الغـزل تـروى ظمـأ الأوردة المتيبسة»

٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٨

مرغمة عدت إلى عمان محملة بالضجر والأرق.. فقد كنت أعرف أن الحبس الانفرادى ينتظرنى هناك.. فى بيتنا الذى يشبه السجن الكبير.. وتصورت أن والدى سيمنحنى قدراً من الحرية يتناسب وحياتى فى فيينا.. هكذا تصورت.. لكن الحقيقة كانت مؤلمة وبعيدة عن الصواب.

فما أن استقبلنى الأهل بالترحاب والأحضان الحارة حتى شممت رائحة الأصفاد التى سوف أكبل بها.. فادعيت السذاجة والموافقة على لائحة النواهى والأوامر التى كنت أحفظها عن ظهر قلب.

صعدت معى أمى إلى حجرتى لتساعدنى فى ترتيب حوائجى.. فقمت بمناورات لإخفاء صندوق سجائرى.. وتعجبت هى من شكل ملابسى الحديثة مستغربة هذا التطور الخطير الذى طرأ على شخصيتى وسلوكى.

مراراً حاولت الاتصال بجوهانسبرج لكننى فشلت فى ذلك بعد ما كنت أقف لساعات طويلة بمكتب الهاتف المركزى.

كانت صديقتى «خلود» هى سلواى فى «غربتى» حيث دأبت على زيارتى برغم أنها صارت زوجة لابن عمها النقيب بالحرس الملكى.. فى حين لم يسمح لى أهلى بزيارتها بسبب حجة ساذجة وهى أنها متزوجة ولا يصح أن يرانى زوجها ببيته.

هذه هى إحدى آفات الجهل السائدة.. فأنا العائدة من بلاد الحرية أعيش من جديد تقاليد رثة عفنة.. ويعاملنى أهلى كالبهيمة لا أتحرك إلا بإذن خوفاً على من «جزار» يسحبنى ويذبحنى.. وكأننى كنت فى فيينا حبيسة جدران غرفتى لا أكاد أغادرها ليلاً أو نهاراً.

كلما كبرت كنت أفكر فى ذلك كثيراً.. وأتساءل كيف لأبناء القوزاق الشراكسة أن يتعايشوا مع حياة القبيلة؟ صحيح أنهم يحافظون على عادات

المجتمع الذين يعيشون فيه.. لكن ليس لهذه الدرجة.. فالتمادى فى القيود يورث التمرد والبحث عن أية وسيلة للفرار.

وها أنا أعانى آلام القيود التى تدمينى.. وتراودنى رغبة البحث عما يكسر هذه القيود وينقذنى منها!!

* * *

٢٩ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

جاءت «خلود» لزيارتى وصعدنا معاً إلى غرفتى حيث منظر الحديقة أجمل.. واعتيادنا الجلوس فى الشرفة.

كانت مهمومة وهذا ما كان واضحاً على وجهها.. ولما ضغطت عليها صارحتنى بأن أعراض الحمل لم تظهر بعد.. وما يقلقها هو السؤال المستفز الذى تسمعه كل يوم من أسرتها وأسرة زوجها.. الكل يريد أن يعرف لماذا تأخر الحمل وكأن هذا الأمر بيدها هى وحدها.

أما زوجها فهو متعنت يرفض فكرة العرض على طبيب النساء لأن هذا «عيب» وموقف حرج لا يقبله كرجل.

لقد كان يتنفس البداوة والرجعية بالرغم من تعليمه الراقى ومركزه المرموق.. وعمله بين أناس مرموقون أيضاً.

ثم صفعتنى «خلود» بالمأساة التى تعيشها.. مأساة حقيقية كانت تقصها علىّ وهى تبكى بحرقة وتكاد تموت خجلاً.. حيث أعترفت لى بأن زوجها (ضابط فى الحرس الملكى الأردنى) يصر على معاشرتها بشكل مخالف للشرع.. وكلما رفضت طلبه كان يضربها بعنف.. ويأخذها عنوة.. بالاغتصاب.

ثرت لهول الأمر ووجدتنى عاجزة عن إيجاد كلمات فى مثل هذا الموقف.. ونصحتها بأن تتفاهم معه وتبين له أن الدين يحرم ذلك.. فكادت تصرخ وهى تقول إنها استنفدت شتى السبل لإفهامه وإقناعه.. لكنه يصر.. دائماً يصر..

ويغتصبها شذوذاً قائلاً ببجاحة: إن جسدها ملك له.. وله الحرية فى استخدامه كما يشاء دونما أى اعتراض منها.

كان ما يؤرق «خلود» أيضاً أنها من أسرة كبيرة يعمل أفرادها فى تجارة واسعة.. ولأنه ابن عمها فهناك تشابك فى المصالح بما ينفى فكرة الطلاق فى العائلة مهما كانت الظروف.

إنها عادات موروثة وأعراف لا سبيل لتنحيتها.

ولما طلبت منها أن تصارح والدتها بهدوء.. وضعت يدها على فمى.. وقالت وهى تتنهد فى أسى:

ـ لقد أخبرتها بالفعل.. فصفعتنى وبصقت فى وجهى وهى تنعتنى بأقذع الصفات لأننى جرؤت وتكلمت فى أمور خاصة تمس أسرار بيتى!!

عندئذ لم أجد إلا الصمت رداً.. فما أبلغ الصمت إذا عجز الكلام.

لكن دموع صديقتى عند كل زيارة كانت تفقدنى صوابى.. وأكاد أجن لمحنتها التى تملأ مجتمعاتنا.. فهل سيأتى علىّ الدور يوماً؟!

* * *

٢ آب/ أغسطس ١٩٥٨:

شممت رائحتها قبلما أفضه..

كان أول خطاب من حبيبتى «جولى» يحمل فيضانات من الأشواق.. وإشارات رمزية توضح مدى احتياجها إلى مرآيَ.. لكن الظروف السياسية فى روديسيا «جنوب أفريقيا الحالية» كانت سيئة بحيث تمنعها من مغادرة جوهانسبرج عما قريب.

قالت «جولى»: أيضاً إن السود والبيض يأكلون بعضهم البعض فى بلادها.. وأن للبيض حقوقاً فى الأرض يرفضها السود.. لذلك فبلادها تنعت بأنها عنصرية تفوح منها رائحة القتل والمذابح.. وصدرت ضدها عدة قرارات من الأمم المتحدة تدين هذه «العنصرية».

فكرت بإقناع والدى بالسفر إلى «جولى».. لكننى كنت أعرف رأيه مقدماً.. لذلك حبست بداخلى رغبتى فى الفكاك ولو قليلاً من سجن أهلى.. ورضخت رافضة نظرة المجتمع الشرقى القاصرة.. وقيود الجاهلية «للحريم» فى الوقت الذى سمح لى فيه بالسفر والاغتراب وحدى.. وكان هذا التناقض الواضح والشاسع بين الموقفين يزيدنى حيرة وتعجباً.

ففى الوقت الذى ما تزال فيه المرأة العربية تغطى وجهها فى بعض المجتمعات.. تتقدم وتنهض فى مجتمعات عربية أخرى وتنال قسطاً أوسع من الحرية.

وبالقياس ففى المجمع الأردنى تبدو البداوة غالبة وملحوظة.. حتى بعمان نفسها.. فى حين تستأثر أسر بعينها مساحة رحبة من التمدن والتحرر نتيجة الثراء الفاحش والامتزاج.. لكن على ما يبدو فى رأيى.. فإن الحرية هنا جاءت على غير قناعة.. بل هى إحدى مظاهر التعلق بأهداب التحرر فى مجتمع يحتقر عقلية المرأة.. ويعاملها بإزدراء وانحطاط.

إن جذور أسرتى الشركسية التى نزحت من القوزاق لم تكن أبداً رخصة للعقلانية عند النظر لحقوق المرأة (1) فالعشيرة الشركسية ـ وهى أقلية جداً ـ برغم الثراء والمناصب الرفيعة أصيبت بذات الفيروس اللعين.. وأخذت من تقاليد البداوة معاييراً فى شتى أمورها.. إذ كان لزاماً علينا ـ نحن الشركسيات ـ ألا نبدو بين عامة الناس كنسيج مغاير منهجاً.. وسلوكاً!

لكن ثمة تباينات كبيرة كانت جلية خلف الجدران لا يراها أحد سوانا.. فالشركس كانت تضمهم عادات جلبوها معهم عندما فروا من أوطانهم وتفرقوا فى البلاد.. هذه العادات لا تكاد تظهر إلا فيما بينهم فى مناسبات اجتماعية ودينية مختلفة.

ونظراً لقلة أعدادهم فى البلاد التى استوطنوها.. فقد سعوا لتحقيق عدة أهداف تمكنهم من التكيف والتعايش بكرامة.. وكانت أهم هذه الأهداف التعليم

العالى والتجارة والسعى لتبوأ المناصب.. فتتحقق لهم بذلك مكانة مرموقة.

وكانت هناك رؤية خاصة تتعلق بالتجارة.. إذ نبذ الشراكسة التجارة التقليدية البسيطة.. واتجهوا إلى الإتجار فى الذهب والأحجار الكريمة.. وفى الوظائف اتجهوا إلى العمل بالبنوك والترجمة.. والحرص الشديد على الإنخراط فى الجيش والمجتمع العسكرى والدبلوماسى عموماً.

هناك مسألة أخرى أيضاً تتعلق بالنساء.. فالزواج من خارج العائلة والعشيرة أمر مرفوض ولا نقاش فيه البتة.

وعلى ذلك بدت الرؤى على إطلاقها مبهمة غيمية.. فلا نحن ذائبون فى تماماً فى نسيج العادات العربية القبلية من جانب.. أو تظللن عاداتنا الخاصة بشكل علنى من جانب آخر!

وهكذا السخف هويتنا.. أو هى فى طريقها إلى الإنسحاق.. فقد نسينا أو تناسينا موروثات جذورنا.. لكن بقيت أطلال تحضّر تحكم سلوكنا فى أقل القليل من المواقف!

فما بين هذا الانسحاق ومظاهر الذوبان.. بدت شروخ وتصدعات فى عقولنا نحن الصغار.. حيث البداوة فى السلوك الظاهرى.. ورفض لها بالباطن المتمرد، وكان تعليم أبناء الأثرياء فى جامعات أوروبا.. أحد مظاهر الصراع بين العلم والتخلف فى مجتمع من الجهلاء..!

* * *

١٢ آب/ أغسطس ١٩٥٨:

كنت قد نسيته فى غمرة انشغالاتى فى فيينا.. حتى أننى تخلصت من طيفه الذى كان يقتحمنى اقتحاماً.. لكن الآن لا أعرف كيف تمكن منى طيفه ثانية.. وبات يسيطر على فكرى قسرياً طوال الأيام التى أمضيتها بعمان..؟!

إنه «بسام» حبى الأول الذى أهاننى شر إهانة.. ذلك الحب المجنون الذى

ظننت أن البعد سيقهره.. لكن بئس ما ظننت.. منذ اكتشفت هنا مدى ضعفى حياله.. وبت أشتاق إلى رؤياه ولو من بعيد.

كثيراً ما فكرت فى قصة حبى الفاشلة.. وأكاد أجزم أحياناً بصدق ما قاله «بسام» عنى واتهمنى به.. وفى وحدتى المملة هنا والقاسية.. توافر لى الوقت لأفكر بعمق وبعقلانية.. وفى أحيان كثيرة كانت أطلال الحب بأعماقى تنقلب إلى إعصار عات.. فعجزت عن المقاومة وأسلمت نفسى للذكرى والخيال.. أعذب بهما فؤادى المكلوم.

لقد أدركنى الندم لأننى مزقت صورته وخطاباته.. فمزقت معهما أهم أيام عمرى.. واتصلت بزميلاتى القديمات استدرجهن فأكدن لى بأنه اختفى وذاب وسط ضباب الحياة.

وبرغم خجلى لانشغال «خلود» بمشاكلها.. إلا أننى سألتها عنه باستحياء.. وكانت نصيحتها لى بأن أحب من جديد إجابة كافية عن تساؤلاتى.. فراودتنى الأفكار، وتخيلت وجهها عندما أخبرها بأننى بالفعل أحب «جولى».. وأقص عليها تفاصيل أسرارى معها.. لكننى خشيت أن تخافنى وتحتقرنى وتهرب منى إلى الأبد.

وفى أوقات أخرى تسلطت علىّ فكرة إغوائها بمشاركتى المتعة التى تفتقدها.. وأعترف بأننى حاولت معها.. وخطوت فى ذلك خطوات أولية لم تلق استجابة ولم تحدث شكوكاً أيضاً.. فتوقفت عن المضى معترفة بأستاذية «جولى».

آه من معاناتى ومأساتى.. إن جوعى يتعمق كل يوم.. وينقر متوحشاً خلايا الجسد.. شوقاً إلى تلك الرعشات السحرية.. والسباحة على أجنحة غريزة مصطخبة.. يعقبها صفو فجوع من جديد.

* * *

١٨ آب/ أغسطس ١٩٥٨:

مرضت أمى.. وجاءت إحدى قريباتى من «إربد»[1] ومعها طفلتها ذات الخمس سنوات.. وبمجيئهما تمنيت أن تظل الوالدة بالفراش لفترة طويلة.

وبقدر ما كانت أمنيتى هذه تحز فى نفسى وتشعرنى بحقارتى.. إلا أننى كنت أرغب فى ذلك بشدة.. فمرضها كان يمثل لى شيئاً ثميناً أسعى إليه بكل جوارحى.

لماذا..؟

تلك هى الحقيقة التى لا يعرفها أحد سواى.

لقد دأبت الطفلة على اللهو بحديقة الفيلا طوال النهار بلا كلل.. وعند المساء أخذتها معى إلى حجرتى لنلهو معاً.. فنامت مرهقة فى فراشى.. وألحت أمها على حملها معها لتنام بالأسفل.. لكننى رفضت بشدة وتمسكت بالطفلة لتنام إلى جوارى.

وتلك كانت أمنيتى التى أبغيها.

ليلتئذ رقدت بجانب الطفلة الغارقة فى نومها.. وكان سباتها العميق مدعاة لأن أتشجع.. فقلبتها يميناً ويساراً لكنها كانت فى وادٍ آخر.. عند ذلك مارست معها ما تعلمته من «جولى» وإن كان الوضع أحادى الطرف.. ولأول مرة منذ افترقت و «جولى» أجد نفسى على طرفى نقيض.. فقد استرحت بالفعل لكن حقارتى تؤرق ضميرى..!!

* * *

(١) تقع فى شمال المملكة الأردنية قريبة من الحدود السورية، وهى عروس الشمال للمدن الأردنية، حيث تقع على السفح الشمالى لجبال عجلون.. وهى مشهورة بالتجارة والسياحة والصناعات الغذائية.

٢١ آب/ أغسطس ١٩٥٨:

رتبت نفسى للعودة إلى النمسا فى الرابع من أيلول.. ومع بكائيات أمى لقرب فراقى.. فوجئت بوالدى يقترح إبقائى بعمان للدراسة.. فصعقت.. وقلت له: إن هذا الفرع من الدراسة غير متوفر إلا فى أوروبا.. ومن المهم بمكان أن أحصل على إجازتى فى هذا الفرع.

وبرغم أن الفكرة راقت لأمى فى بداية الأمر.. إلا أنها وافقتنى على ضرورة إكمال تعليمى فى جامعة فيينا.. وسكت والدى على مضض.. كأنه كان يستقرئ الغيب ويعرف ماذا سيحدث لى مستقبلاً. (!)

وكان لوالدتى الدور الخفى وراء إقناعه.. لتتباهى بى بين العشيرة والأهل والأصدقاء. ذلك أنه لم تكن هناك، بعائلتى أو بعشيرتى، فتيات سبقتنى فى تلك الخطوة وحظين بتعليماً عالياً فى أوروبا.. وهذا ما دعا البعض لانتقاد أبى الذى كان يرد عليهم بقوله:

- إن تعليم البنات نعمة كبرى.. فنحن لا نريدهن إماءً.

كما كان يصرح بأنه لثقته بى أتاح لى فرصة التعليم التى لم تحظ بها فتاة أخرى من العائلة.

أمى أيضاً تعرضت للكثير والكثير من نساء العائلة.. وكانوا يحسدنها على قدرتها على تحمل فراقى وإقامتى فى بلاد بعيدة.. وكانت تجيبهن بأننى «تربيت تربية حسنة ولدى القدرة على التفوق والتميز».

فكن - ربما غيرة - يحثنها على منعى من السفر بالضغط على مفاتيح أمومتها، وتخويفها من مغبة هذا التصرف.

بيد أن أمى التى كانت تريد لى مستقبلاً أزهى لم تكن تهتم بما يقلن.. فقد وضعت ثقتها بى كأبى إيماناً منها بأن هناك نساء قدن مجتمعاتهن وتفوقن على المستحيل.. وكانت دائماً تحفظ قصة «هيلين كيلر» عن ظهر قلب وترددها فى مناسبات مختلفة.

كنت فى صغرى أسمع منها قصة تلك الفتاة العمياء الخرساء الصماء التى تفوقت على أعتى المبصرين فى العالم.. فيغزونى اندفاع حماسى يدفعنى بقوة لأن أتفوق.. ولازمنى ذلك الحماس حتى وأنا فى «فيينا» وتذكرت قصة «طه حسين» وما جرى معه فى «باريس».. وكيف واجه محنته بصبر وعزيمة وإيمان.

لقد أحب الفتاة الفرنسية التى كانت تقرأ له وأحبته.. وفى إحدى محاضراته أمر بإحضار خريطة كبيرة لبلاد «الإغريق».. وأمام تلامذته المذهولين أخذ يشير إلى المدن والأماكن على الخريطة وهو الأعمى.. ثم قال لهم:

ـ لا تتعجبوا.. فزوجتى كانت بصرى الذى فقدته.

هكذا تفعل الإرادة بمن يمتلكونها.

وفى النمسا قرأت عن امرأة أصيبت بالعمى فى الحرب.. وفقدت يديها ونصف ساقها اليمنى.. إلا أنها بإرادة من حديد قادت أولادها الخمسة إلى النجاح حتى أنهوا دراستهم فى الطب.. وقالت ابنتها الوحيدة أنها تعلمت على الفلوت لكى تعزف مقطوعات كانت أمها تلحنها بفمها.

مثل هذه القصص كان تحضنى على النجاح والتفوق.. لكن سرعان ما أنشغل بأمور أخرى.. ويثور بداخلى دائماً سؤالاً لا أجد له إجابة:

ـ لماذا أنا شرقية ينظر إلىّ فى أوروبا كهمجية متخلفة؟

* * *

الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨:

جاءتنى صديقتى «خلود» وكانت شاحبة كئيبة.. وفى حجرتى بكت بحرقة لأننى أوشكت على مفارقتها.. وقالت فى ألم:

ـ لمن أشكو معاناتى ومشاكلى بعدما ترحلين؟

كانت المسكينة ترتجف من الحزن وهى تحكى لى قصة اغتصابها ليلة أمس.. إذ دفعها زوجها دفعاً إلى الفراش ولما قاومت شذوذه ضربها بعنف.. ثم

واصل اغتصابها وقد شل حركة يديها.

هذه التجربة المريرة التى تعيشها صديقتى.. إضافة إلى نصائح «جولى» أصابتنى بحالة كراهية للرجال.. وترسبت بفكرى مخاوف الإختلاط بهم أو الإنقياد إليهم.. فحتماً سأصاب بضرر بليغ لو أن إرادتى ضعفت يوماً وارتبطت بعلاقة ما برجل.

عند ذلك تذكرت حبيبى الأول.. ذلك الفلسطينى المتعجرف الذى أذلنى.. لكنه على كل حال كان شاعرى النزعة مهذب وديع.. ولا يعقل أن يكون أحد أولئك الأشرار من الرجال.

كنت متأرجحة ما بين ما أسمعه وما أعتقده.. وخلصت إلى أننى لكى أكون فتاة طبيعية يتوجب على معرفة رجل.

نعم.. رجل.

لكن أى رجل ذلك الذى سأهبه مشاعرى وعواطفى..؟!

ما هى صفاته..؟!

وثقافته..؟!

ولونه..؟!

وما طبيعة العلاقة التى ستكون بيننا؟!

ملأنى الخوف وحاصرتنى الريب، فصديقتى «جولى» صورت لى الرجال على أنهم وحوش آدمية يجب تجنبهم والابتعاد عنهم.

فهل كانت تفعل ذلك لمجرد أن تحتفظ بى.. وتستثمر هذا الخوف لدى بغية امتلاكى وتدريبى على التساحق معها..؟

ربما يكون ذلك صحيحاً..

وربما أنا مخطئة فى ظنونى.

ورأت قناعتى أن أنسى هذا الأمر.. فأمامى دراسة شاقة ورسالة أؤديها.. وهدف..!

* * *

٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨:

عند الظهيرة هاتفتنى صديقة لى تدعى «ريم» جاءت من أجازة صيفية قضتها عند أختها المتزوجة فى بيروت.. وبتلقائية شديدة جاءتنى بمفاجأة لم أتصورها.. فقد أخبرتنى أنها التقت هناك بـ «بسام» الذى يدرس بجامعة بيروت العربية بعدما انتقل مع أسرته للعيش فى لبنان.

دون أن تدرى.. أيقظت «ريم» براكين أشواقى القديمة من رقادها.. وأينعت من جديد براكين ذكرياتى وأورقت لهفة.

هكذا اكتملت خيوط الحب الأول التى ظننتها تهتكت.. وإنسابت أغنيات الغزل تروى ظمأ الأوردة المتيبسة. من جديد عشش الحب بالشغاف وطغى.. وعلت خفقات القلب وانتشر ضجيجها.. تمنيت يومها أرى «بساماً» فأحتضنه.. أضمه فى حنان إلى صدرى فيلفحنى زفيره. تمنيت أن أراه فأركع فى ذل لكى يسامحنى.. وتمسح أنامله دمعاتى.. فألثمها.. ويلثمنى.

ألهذا الحد عاد «بسام» ليغزونى من جديد؟

كذبت مشاعرى إذن وأنا ألعنه فى الصفحات السابقة.. فالحبيب كان يقبع فى عمق أعماقى. يتشبث بجدران الخلايا. ويسبح حبه فى شرايينى.. يرقب جنونى وانفعالاتى.. ويصطلى بنيران شكوكى الآثمة..!!

فهل أقوم بمغامرة جزافية وأزور بيروت بحثاً عنه..؟

٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨:

غادرت عمان يرافقنى والدى إلى فيينا.. كان لا يكف طوال ساعات الطيران عن توجيه النصح.. ولفت انتباهى إلى أننى مهما تأثرت بالحياة فى أوروبا فمرجعى فى النهاية إلى الأردن.. حيث سيكون عملى وزواجى وبيتى.. ويجب ألا

أنسى ذلك فى كل لحظة.

كنت أستشف من نبرات صوته ونظراته القلوقة أن ثمة مخاوف تراوده.. وجاهد كثيراً ليبدو طبيعياً.. لكننى كنت أعرف والدى.. ولا تخطئ مشاعرى فى ترجمة انفعالاته ودواخله.

كان والدى أمامنا يبدو دائماً بشخصيته الفذة جافاً قوياً.. هكذا اعتدناه منذ طفولتنا المبكرة حتى كبرنا بين أحضانه.. إلا أننى الآن اكتشف فيه جوانب أخرى كانت خافية.. أو ربما لم تدركها عقولنا.. وأراه اليوم أباً يفيض بالحنان والحب.. فيه وداعة تقطر عطفاً وأبوة.

وتذكرت الآن ما حدث لى عندما كنت فى الثامنة من عمرى.. فقد وقعت أثناء لعبى من فوق إحدى أشجار الحديقة.. وجريت إلى داخل البيت يسبقنى صراخى.. أمد ذراعى هلعاً والدم يسيل منها.

قفزت أمى تجاهى فتعثرت ثم نهضت ملتاعة لحالى.. وارتفع صياحها المذعور تستغيث بأبى.. وعندما جاء مهرولاً من حجرته وأدرك ما حدث لى.. كان تصرفه مغايراً ومحيراً.. إذ لطمنى على وجهى وهو يصيح.. واتهمنى بأننى فتاة مدللة أستحق ما حدث وأكثر.

يومها.. ومازلت أذكرا إلى هذه اللحظة.. كانت صفعته أقسى من آلام الجرح النازف بذراعى.. وتصورت بخيال الطفلة أن أبى رجل قاس.. متحجر القلب والمشاعر.. وأغلقت علىّ حجرتى ونمت بعد شوط بكاء طويل.. لكننى استيقظت على خطوات وقد جاءنى متسللاً فى المساء.. فتصنعت الإستغراق فى النوم.

وفوجئت به يلثم يدى ووجنتى برفق.. ويتمدد إلى جوارى.. وعندما ضمنى إلى صدره غمرنى دفء أحضانه فنمت حقيقة.. وما استيقظت إلا وهو يقبلنى وينسحب ببطء من فراشى عند الصباح.

وسألت نفسى وقتها:

- لماذا وهو بكل هذا الحنان يبدو لنا وللآخرين جهوماً.. متعنتاً.. صعب المراس..؟

وإلى الآن لست أعرف ما السبب.. ولماذا يظهر عكس ما يبطن؟

والإجابة على كل حال لن تفيدنى بشىء.. فوالدى الآن فى أفضل صورة.. وطبيعية.. بلا تكلف..!!

* * *

القسم الرابع
فى النمسا (٢)

«على مفترق الطرق..

هناك شب عراك

بين اثنين..

أحدهما يصرخ

من ثقب أحمر فى بطنه

والصارخ والجرح.. أنا»

١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨

بعد عدة أيام قضاها والدى معى فى فيينا.. رجع إلى عمان بعدما اطمأن على إقامتى ببيت الطالبات.

حاولت «شارلوت» معى لأقيم معها فى الغرفة.. لكننى اعتذرت بحجة اختلاف دراستنا.. واختارت لى المشرفة فتاة سويسرية اسمها «جينفيف ووترود» جاءت حديثاً إلى فيينا.

كانت «جينفيف» ريفية شقراء ممتلئة قليلاً تعيش فى إحدى قرى «لوجانو» Lugano جنوب سويسرا بالقرب من الحدود الإيطالية.

وأعترف بينى وبين نفسى أن هذه الفتاة موفورة الصحة والجمال جذبت انتباهى لأول وهلة.. وفكرت فيها كحبيبة تعوضنى فقد «جولى».. خاصة وقد أخبرتنى أنها تميل إلى الإنطواء وليست لها علاقة بصديق مَّا.. كما أخبرتنى أيضاً أن شغفها بدراسة علم النفس الطبى يفوق كل وصف.

كانت هذه الفتاة صيداً سهلاً بالنسبة لى.. وأخذت أفكر فى شتى الوسال التى أستطيع أن أستميلها بها لتشاركنى حياتى الخاصة.. ونظراً لأننا سنخرط فى صف دراسى واحد.. فكان معنى ذلك أننا سنتلازم فى الكلية وفى المسكن فى مواعيد واحدة.. وكان علىّ لكى أفوز بها.. استخدام ذات الطرق التى استخدمتها «جولى» معى من قبل.

* * *

١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٥:

لليوم الثالث أكتب خطابات إلى «بسام» وأعود لأمزقها.. لقد استعصت علىَّ الكلمات حتى بدت السطور ركيكة الوصف لما يعتمل بوجدانى ويثور فى نفسى.

عجزت تماماً عن وصف مشاعرى بالشكل الذى يحرك عواطفه تجاهى.

عواطف توارت قليلاً وتستلزم الكثير لإعلانها وإشعالها فى صدره.. حتى

أننى فكرت فى بعض الأوقات بزيارة بيروت للقائه.. فالرسائل لن ترجعه إلىّ.. ثم عدت واستبعدت الفكرة لأن عواقبها ستكون وخيمة. فذات يوم سينكشف الأمر لا محالة.. وسيقيم والدى الدنيا حتى يعرف السبب.. ولأننى لن أقدر على مصارحته فسوف يسحبنى خلفه كالبقرة العمياء إلى عمان.. وعند ذلك سأفقد أى أمل فى مغادرتها بعد ذلك.

بقيت إذن فرصتى الآمنة الوحيدة.. وهى أن أكتب إليه.

نعم.. لابد أن أبعث إليه برسالة رقيقة.. لعل وعسى..!!

* * *

٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨:

فقدت السيطرة على نفسى وأنا أشاهدها عارية تبدل ملابسها بعد الاستحمام وترتدى غلالة أكثر إثارة.. داعبتها بأسلوب عفوى فلم تفهم.. إنها فتاة ريفية بسيطة تجهل الكثير من أمور الدنيا.. حتى إنها لم تكن تعى شيئاً بالمرة.

استخدمت معها ذات الأسلوب الذى فعلته معى «جولى».. فلانت الفتاة.. واستجابت على استحياء فى البداية.. ثم تجاوبت بعدما استشعرت رجفات جديدة أرعشت فيها الشباب الغض وهدهدته.

كنت أنا التى أقود المهمة لأجل تدريبها.. فبدت مطيعة.. وتعمدت إشباعها أولاً حتى آخذ منها ما أريد.. ومرت التجربة الأولى معها بسلام.

* * *

٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٨:

ردت إلى الرسالة الأولى التى كنت قد بعثت بها إلى «بسام» وعليها إشارة تقول: «لم يستدل على المرسل إليه».. ففقدت الأمل فى التوصل إلى عنوانه الصحيح.

٢٤ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٨:

كانت الدراسة بالكلية صعبة للغاية.. وبرغم إجادتى التامة للغة الألمانية إلا أننى كنت أشعر فى أحيان كثيرة بمدى غبائى فى استيعاب العلوم المقررة.

وفوجئت بالأمس بطلب استدعاء من أستاذى البروفيسور «جوستاف راشت».. وفى مكتبه أطلعنى على درجاتى المتدنية وطلب منى إطلاعه على المشكلات التى تواجهنى فى دراستى أو فى حياتى الشخصية حتى يساعدنى على حلها.. وإلا فسوف أخضع لدورة مكثفة طويلة فى اللغة الألمانية.

عندئذ رجوته أن يعطينى فرصة ثانية لإثبات جدارتى فى فهم الألمانية.. وإلا فالويل لى من والدى الذى لن يتفهم الأمر على حقيقته.. وفى هذه الحالة سيجد المبرر الكافى لكى يعود بى إلى عمان.

قلت هذا للبروفيسور «راشت» وأنا أبكى.. فما كان منه إلا أن صرفنى وقال لى أنه يمنحنى فرصة أخيرة يقرر بعدها ماذا سيفعل معى.

ولما أخبرت «شارلوت» بما لدى من مشكلات فى اللغة.. نصحتنى أن أبحث عن طالبة نمساوية من طالبات الدار وأقنعها بالسكن معى لتحسين لغتى.. وإلا.. فهناك الحل الأخير.

قلت لها فى رجاء:

- الحل الأخير..؟ أخبرينى به من فضلك يا «شارلوت».

قالت:

- أن تتركى دار المغتربات وتبحثى فى إعلانات الصحف عن أسرة نمساوية تطلب فتاة مغتربة للإقامة معها.

وأضافت:

- هناك أيضاً فى مكتب الخدمات الطلابية.. يمكنك العثور بسهولة على إحدى الأسر التى تقدمت للجامعة عارضة استضافة طالبة مغتربة.. على أن

تتوافر فيها شروطاً معينة، أى تكون أفريقية مثلاً أو رومانية، والعمر، والديانة، وغيرها، وفى هذه الحالة تطلب الأسرة مبلغاً معيناً تضمنه الجامعة طالما الطالبة مسجلة بها.

قلت لها:

- لكن لماذا كل ذلك؟ هل لى أن أعرض شروطى أيضاً؟

أجابت شارلوت:

- نعم.. يمكنك الإعلان عن شروطك.. كعدد أفراد الأسرة التى تريدين العيش بينها وأعمارهم، وتجهيزات الغرفة المعروضة للسكن، وأنواع الأطعمة والمشروبات وما إلى ذلك.

كان هذا كله لأجل اكتساب اللغة الألمانية بشكل أفضل.. ولم أجد أمامى أى بارقة سوى الإلتجاء لمشرفة الدار.. فتوجهت إليها من فورى وأطلعتها على مشكلتى فاتبسمت وقالت:

- لا عليك.. سأجد حلاً لمشكلتك فى أقرب وقت.

* * *

٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨:

كنت قد انتهيت لتوى من مباراة حامية أنا ورفيقتى «جينفيف» عندما استدعتنى مشرفة الدار السيدة «باول».

ولما ذهبت إليها قالت لى:

- اسمعى يا ابنتى.. منذ أيام وصلتنى توصية من البروفيسور «راشت» يطلب منى هو أيضاً محاولة إيجاد حل سريع لمشكلتك.. حيث أنك تكتبين الكلمات الألمانية بشكل خطأ نتيجة لتهجئة غير صحيحة بنسبة كبيرة.. واليوم.. اليوم فقط وجدت لك حلاً.

تعلقت عيناى بشفتيها انتظر ما ستقوله.. وأضافت:

- أعرف أنك استرحت لرفقة «جينفيف».. ونظراً للظروف التى تمرين بها الآن.. رأيت أنه من الأصوب انتقالك للإقامة مع فتاة نمساوية من «جراتز» Graz تدرس الهندسة.

وافقت فى الحال على اقتراحها الذى سيحرمنى من رفيقتى السويسرية.. لكن لم يكن هناك بيد من هذا الحل.. فتواجدى فى مسكن واحد مع فتاة نمساوية سيحسن كثيراً من لغتى فى الوقت الحاضر.

هكذا تركت حجرتى مشفقة على «جينفيف» التى كانت تبكى وذهبت إلى حجرة «كاتى» التى كنت أعرفها شكلاً من خلال تواجدنا فى دار المغتربات.

استقبلتنى رفيقتى الجديدة بشىء من الفتور وأشارت إلى حاجياتها المنسقة باهتمام وقالت:

- أنا يا صديقتى أحب النظام وأعشقه.. وحبذا لو كنت أنت كذلك.. فهذا سيريح أعصابى جداً ويجعلنى فى حالة استرخاء نفسى.

سكتت لبرهة ثم أردفت:

- لقد وافقت على إقامتك معى تحت ضغوط من السيدة «باول» فأنا لم أكن على استعداد لأن أقيم مع فتاة شرقية فى حجرة واحدة.. فالشرقيون كما أعلم لا يهتمون بالنظام أو حتى تعودوا عليه.

تماسكت وأنا أحاول الابتسام بهدوء.. وأخذت أوضح لها طبيعة بلاد العرب وحضارتهم وثقافاتهم.. ففاجأتنى بقولها:

- إننا لا نعرف أى شىء عن العرب سوى أنهم قوم يعيشون فى الخيام المغزولة من الصوف.. ويركبون الخيول.. ويرتحلون على الجمال ويشربون لبنها.

وبرغم دفاعى المستميت إلا أنها قالت فى محاولة لإنهاء النقاش:

- هذا ليس رأيى الخاص يا عزيزتى.. فالإعلام هو الذى يوضح لنا هذه

الأمور.. ثم إن «أدولف هتلر» نفسه كان يضع العرب فى المرتبة الرابعة عشرة، بعد اليهود، فى سلسلة مراتب جودة الأعراف على سطح الأرض.

وأضافت:

- إنى أحسدك كثيراً يا عزيزتى على حياة الشرق هذه.. وكم أتمنى زيارة بلادكم والاستمتاع بركوب الجمل وبالجو المشمس.

شعرت بشرخ كبير فى كبريائى.. وسكت رغماً عنى أمام هذه المهانة التى أدمت نفسى.. فقد كان علىّ تحمل وضعى الجديد لأجل تحقيق غايتى.. وإلا فسيعنى ذلك تأخرى فى الدراسة لمدة عام آخر حتى أجيد اللغة الألمانية الفصحى.

هكذا صبرت وتحملت إهانات «كاتى».. تلك المغرورة التى تفتقد الكثير من الجمال.. وربما كان هذا ما يتلف أعصابها نظراً لكونى أجمل منها بكثير.

أما «جينفيف» فقد تباعدت الشقة بيننا.. بالرغم من انتهازنا للفرص القليلة المتاحة للقاء فى غرفتها.. وبعد مرور مدة من الزمن لاحظت أنها تتهرب منى.. وعند ذلك أدركت أنها أقامت علاقة حميمة مع رفيقتها الجديدة فى الغرفة.

* * *

٢ شباط/ فبراير ١٩٥٩:

لم تعد أعصابى تتحمل أكثر من ذلك.. فقد تمادت «كاتى» فى التحقير من شأنى والسخرية من أى تصرف أقوم به.. لذلك ذهبت إلى السيدة «باول» وشكوت لها معاناتى فى الإقامة مع هذه الفتاة المغرورة.. فوعدتنى بالتصرف.

كان والدى قد جاء لزيارتى والاطمئنان علىّ.. ولاحظ أننى مهومة على غير ما كان يتوقع.. فسألنى عن أحوالى الدراسية بيد أننى لم أتحمل السكوت فانفجرت فى بكاء مرير وقت له عما أمر به من ظروف.

وفى اليوم التالى فوجئت به فى الجامعة ومعه شخص لا أعرفه.. وفهمت بعد ذلك أنه يعمل فى السفارة الأردنية بفيينا وجاء به والدى ليقوم بالترجمة

بينه وبين مسئول الجامعة.. حيث اطلع على موقفى الدراسى.. والتمس من المسئول نقلى إلى غرفة أخرى بعيداً عن هذه الفتاة النمساوية المستفزة.

أحالت الجامعة التماس والدى إلى السيدة «باول» التى ردت قائلة إنها تدرس حالتى وبعمق.. وتبحث فى الوقت نفسه عن فتاة نمساوية، وربما بافاريه، تكون رفيقة لى فى السكن.. وأنها ستعمل على أن يكون بينهما وفاق نفسى يؤدى الغرض المطلوب ويرفع بمستوى إجادتى للألمانية.

من جانبه تبسط مسئول الجامعة.. ووعد والدى بأننى سأدرس علومى الجامعية إلى جانب الدراسة اللغوية حتى يمكننى التقدم لامتحانات آخر العام فى تخصصى.

هكذا كانت زيارة والدى لى فاتحة خير كما يقولون.. ونقلتنى السيدة «باول» قبل عودته بأيام إلى غرفة أخرى للإقامة مع فتاة نمساوية اسمها «سارة بيراد» تعيش أسرتها فى منطقة «وستدورف».

كانت «سارة» رقيقة الملامح هاشة ضحوكة استرحت إليها على الفور.. حتى أنها ساعدتنى على ترتيب أغراضى الخاصة وأثنت على أسلوب اختيار ملابسى واهتمامى بتناغم الألوان وانسجامها مع بشرتى.

وعلى ذلك عاد والدى أدراجه بعدما اطمأن على أحوالى مؤكداً على أنه سيعود ثانية فى أقرب وقت ومعه والدتى التى ينهشها القلق هناك فى عمان.

وعندما علمت سارة بأن سبب انتقالى للإقامة معها.. حرصت على مساعدتى والوقوف إلى جانبى بإخلاص شديد.

* * *

٢٧ شباط/ فبراير ١٩٥٩:

تآلفت و «سارة» لدرجة مدهشة.. ويبدو أنها كانت تعرف «جولى باتريك».. حيث لمحت ابتسامة ذات مغزى ارتسمت على وجهها وهى تقول:

- كانت «جولى» محبوبة جداً من جميع زميلاتها.. خاصة الوافدات الجديدات.. (!!).

قلت لها وأنا أحاول أن أكون طبيعية وكأننى ما فهمت مقصدها:

- نعم.. كانت محبوبة جداً.. من الجميع.

قالت مصححة:

- من جميع الوافدات الجديدات يا عزيزتى.. حيث كانت تستقبلهن وتنتقى من تصلح منهن للإقامة معها.

قالت هذا وهى تضحك ففهمت أنها كانت تعرف أشياء كثيرة عنها.. وعن نزواتها الخاصة.

فهتفت بها:

- مالك يا «سارة».. أليست هذه حرية شخصية..؟!

أجابتنى على الفور:

- نعم يا عزيزتى.. وأنا لا أنكر عليها ذلك.. وأعتقد أنك توافقيننى الرأى خاصة وأن تعرفينها جيداً.. حيث أقمت معها فى حجرة واحدة طوال العام الدراسى الماضى.

كانت تلميحات «سارة» واضحة ومفهومة.. وقد استخدمت كلمات مهذبة فى إيصال رسالتها.. لذلك لم أغضب منها.. بل كنت هادئة البال لا أشعر بأى انفعالات غضب.

* * *

١٩ آذار/ مارس ١٩٥٩:

تطورت علاقتى الخاصة بـ «سارة» خلال وقت محدود.. وتحولت زمالتنا إلى صداقة حميمة غلفتها خبرة كل منا فى إسعاد الأخرى.. واكتشفت مدى تميز

رفيقتى حتى خلت أنها تفوق «جولى» مرات ومرات.. وكان التجاوب المشترك بيننا مذهلاً.

بذلك تحققت لى أشياء كثيرة كنت بحاجة إليها.. أهمها التقدم فى دراسة الألمانية.. وتصريف تلك الرغبة المؤرقة التى فشلت مراراً فى كبحها حتى صرت أسيرة لها.

هكذا مرت على أيام الدراسة وأنا فى أحسن حالاتى.. فمع تقدمى الملموس فى الاختبارات الدورية.. أصبحت لى صديقة تشاركنى (...) بحرية.. ونظراً لهذا التفاهم القائم بيننا.. فقد اتفقنا على الإقامة معاً طوال سنوات دراستنا فى غرفة واحدة.

وعندما كتبت رسالة إلى «جولى» التى عملت فى إحدى مستشفيات جوهانسبرج وأخبرتها بأحوالى فى فيينا.. كتبت لى تقول:

- أهنئك على هذا التطور الجديد فى حياتك.. إننى أذكر «سارة» جيداً ولنا معاً ذكريات جميلة.. فأبلغيها تحياتى وأشواقى لعلكما تستمتعان جيداً بصحبة وائتلاف وتفاهم.

* * *

٢١ نيسان/ أبريل ١٩٥٩:

هذا اليوم - الثلاثاء - اكتشفت بطريق الصدفة أن «سارة» على علاقة بالجزائرى «بن قاسم».. حيث رأيتهما معاً قرب الظهيرة يغادران بنسيوناً بالقرب من الجامعة.. فتجاهلتهما ومشيت فى طريقى.. وفى حجرتنا بالدار سألتها عن «بن قاسم» فقالت لى إنه صديق عزيز دأبت على الالتقاء به فى البنسيون فى أوقات متباعدة.

أخبرتنى أيضاً أنهما رأيانى أمر أمام البنسيون.. ونظراً لارتباطها بموعد محاضرة هامة لكانت لحقت بى وجلسنا ثلاثتنا فى مقهى مجاور.. حيث أخبرها

«بن قاسم» أنه يعرفنى وأعرفه.

وعلى استحياء سألتها عن طبيعة علاقتهما.. فضحكت ضحكة رنانة مكتومة وهى تقول إنهما ناضجان بما فيه الكفاية.. ووجودهما معاً فى مكان كهذا يجيب عن أى تساؤلات.

دهشت صراحة.. وتصورت أنها لا تحبذ أية علاقة لها بالجنس الآخر مكتفية فقط بعلاقتنا المثلية Homosexuality.. لكنها فاجأتنى عندما قالت إنها تستمتع فى كلتا الحالتين.. حتى إنها لا تستطيع الاستغناء عن وجود صديق أو صديقة فى حياتها.

كان تقبل هذه الحقيقة صعباً للغاية.. ولم أستسغ هذا الرد أو أصدقه برمته.. إلا أننى عجزت عن التوصل إلى تبرير يقنعنى بأن «سارة» تمارس حياتها الشخصية بطريقة صحيحة.

وفى النهاية وجدتنى ألتزم الصمت إزاء ما يحدث.. فالفتاة فى أوروبا لديها الحرية المطلقة فى إقامة أية علاقات خاصة دون أن يلومها أحد أو ينظر إليها نظرة سيئة.

لكن.. ما لم أتصوره على الإطلاق.. هو ما قرأته فى إحدى المجلات الفرنسية المهتمة بعلم النفس.

لقد قرأت حواراً مع سيدة تحدثت فيه عن الحرية الشخصية وحقوق الولد والبنت فى سن المراهقة.. واستفزنى رأيها عندما قالت بمنتهى البساطة:

ـ عند بلوغ الفتاة سن الثامنة عشرة يجب أن تعيش حياتها بالشكل الذى تختاره.. ولكى تكون أماً ناضجة فى المستقبل.. فإننى أطالب الأمهات باصطحاب بناتهن عند بلوغهن هذه السن إلى الطبيب النفسى فى حالة كونهن بلا أصدقاء.. فقد تكون الفتاة مصابة مثلاً بعقدة نفسية تمنعها من ممارسة الجنس.. لذلك يلزم العلاج النفسى فى مثل هذه الحالة.

هذه هى أوروبا إذن.. الحرية بكل صورها.. والعلم وسباق التكنولوجيا.. والفنون.. والأزياء.

وبهذه العقلية المتفتحة تعيش «سارة» حياتها بلا عقد نفسية كما يحلو لها.

* * *

١٩ أيار/ مايو ١٩٥٩:

وصل والدىّ بالأمس ليكونا إلى جوارى مدة الامتحانات ثم نسافر معاً إلى الأردن.

نزلا بفندق «كلا جنفورت» القريب من الجامعة وتناولنا الغداء ثلاثتنا بمطعم «تيرول».. ثم عدت أدراجى إلى الجامعة وتركتهما يتجولان فى ميادين المدينة ليشاهدا النافورات البديعة والمبانى العتيقة التى ترجع لعهد امبراطوريات سابقة.

* * *

٢١ آيار/ مايو ١٩٥٩:

أخبرنى والدى اليوم بأنه ينوى السفر غداً وبرفقته والدتى إلى مدينة «لنتس» Limz التى عاش فيها هتلر والتحق بإحدى مدارسها «ريا لشولة» Real Schule عام ١٩٠٠.

كان والدى معجباً بهتلر إلى درجة الهوس ويجاهر بذلك للجميع.. وسبب إعجابه هو صعود هذا الرجل إلى قمة السلطة فى ألمانيا بالرغم من عدم حصوله على أية شهادات علمية أو تعليماً عسكرياً أكاديمياً.. وبالرغم من ذلك فقد كان يضع خطط المعارك بنفسه ويصر عليها رغم اعتراض قادته.. وكانت خططه تنجح بدرجة مدهشة.. لكن الخطأ الجسيم الذى وقع فيه هو مهاجمة روسيا واتساع رقعة الجبهات.

أذكر أن والدى كان يجد متعة كبيرة فى الأمسيات التى تجمعنا فى الصيف.. عندما يقص لنا حكايات مشوقة عن هتلر.. والمعارك التى خاضتها

جيوشه فى شمال أفريقيا والبلقان وروسيا.. وفى أحيان كثيرة كان يمثل هذه المعارك بقطع خشبية ملونة لزيادة الإيضاح..!

وعندما سألته متى سيعود من «لنتس»؟ أجاب بأن السفر يستغرق نحواً من خمس ساعات بطريق البر.. وأقل من ساعة واحدة بالطائرة.. لكنه يفضل السفر البرى حتى يستمتع بمشاهدة ريف النمسا والمناظر الطبيعية.. وكان معنى ذلك أنه سيقضى أكثر من يوم فى «لنتس» التى تقع تقريباً فى منتصف المسافة بين فيينا ومدينة ميونيخ الألمانية.. وعلى خط مستقيم.

أما زيارته الثانية فستكون لمدينة «شتاير» Steyr جنوبى «لنتس».. التى ألتحق هتلر بإحدى مدارسها عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره.. وكان ذلك بعد عدة أشهر من وفاة والده.

لقد كان أداء هتلر المدرسى فى «شتاير» ضعيفاً للغاية.. والمادتان الوحيدتان التى تفوق فيهما كانت الرسم الحر وحصل فيها على تقدير «يستحق الثناء».. والجمباز التى حصل فيها على «ممتاز».. وفى الفصل الدراسى الأول كان تقديره فى اللغة الألمانية «غير مقبول».. وفى التاريخ «كافٍ».

وبالطبع قدم هتلر تبريرات كثيرة لهذا الأداء الدراسى السىء.. وحسب روايته فقد كان على خلاف مع أبيه فيما يتعلق بمهنة الرسام التى يريد أن يتمهنها فى المستقبل.. وأنه تعمد الفشل فى دراسته لكى يحقق ما يريد رغماً عن رغبة أبيه.. على الأقل فعل ذلك فى المواد التى كان يشعر أنها لن تفيده عندما يعمل رساماً.. بالإضافة إلى اهتماماته بالتاريخ الذى قال إنه كان يبهره دائماً.

بلا شك.. كان هذا التبرير الذى قاله هتلر لا يستند إلى الحقيقة.. (!) ونظرة واحدة لشهادته المدرسية كافية لتكشف كذب هذا الإدعاء.

وفى الغالب.. فهناك شهادات مدرسية كهذه بين سجلات المرضى النفسيين الذين يتمتعون بذكاء شديد ولكنهم لا يريدون أن يجتهدوا.. فهؤلاء المرضى من الذكاء بما يمكنهم من استيعاب بعض المفاهيم الأساسية دون بذل أى مجهود.

كنت قبل التحاقى بجامعة فيينا شديدة الإنصات إلى آراء أبى فيما يخص شخصية هتلر.. لكننى الآن بعدما قرأت عنه الكثير أصبحت أناقشه وأعارضه أحياناً كثيرة مستندة إلى ما كتبه الألمان أنفسهم.. لكن والدى كان شديد التعصب بحيث يصعب إقناعه..!!

* * *

١١ حزيران/ يونيو ١٩٥٩:

ما يزال والدىَّ يقيمان بفندق «كلا جنفورت» بعد زيارات عديدة فى النمسا.. وبالأمس ذهبت إليهما ومعى «سارة» التى صاحت قائلة عندما رأت أمى:

- إنها تشبه والدتى تمام الشبه.

وعندما ترجمت ما قالته.. احضتنتها أمى وهى تردد فى حنان:

- أمينة تعتبرك أختها هنا.. إذن فأنا أمك أيضاً.

ولما أخبرت والدى أن «سارة» لا تحب هتلر وتحمل له كراهية شديدة سأل بدهشة:

- لماذا..؟

وقمت بدور المترجمة حيث قالت «سارة» الكثير والكثير واتهمت هتلر بأنه وحشى آمن بالوحشية وطبقها.. فى حين دافع عنه والدى باستماتة.. وأصابتنى المناقشة بالزهق.

والمثير.. أن والدى تضايق كثيراً من صديقتى وطلب منى ألا أقيم معها فى حجرة واحدة بعد ذلك.. بينما والدتى كانت تحاول فض الاشتباك.. وقالت لى إن «سارة» فتاة ذكية وعلىّ أن أتمسك بها ولا أخسرها.

* * *

١٧ حزيران/ يونيو ١٩٥٩:

أنهيت امتحاناتى بالأمس وحجز والدى على طائرة الغد إلى «عمان» مروراً

بـ «صوفيا» و «أنقرة» و «حلب».. دون انتظار لنتيجة آخر العام.. حيث سيتكفل أحد الأشخاص هناك بإبلاغه بالنتيجة فور إعلانها.

لست أدرى لماذا انقبضت نفسى عندما ذكّرنى والدى بموعد الطائرة.. برغم أننى أعلم أنه أتم إجراءات الحجز منذ عدة أيام.. ويبدو أننى كنت مشغولة تماماً فى الإمتحانات ولم يكن لدى الوقت لأفكر فى هذا الأمر.

أما الآن فلا شىء يشغلنى.. لذلك فقد ألم بى الاكتئاب واعتصر عقلى لمجرد أننى سأعود ثانية إلى «الأردن».

كانت «سارة» قد ودعتنى وطارت رأساً إلى «إنسبروك» Innsbruck غربى النمسا.. حيث انتقلت أسرتها إلى هناك والتحق شقيقها الأكبر - وهو طيار حربى - بقاعدة عسكرية قريبة من المدينة المطلة على نهر «إن» Inn.

حاولت أن أنام.. لكن وحدتى ساعدت على تعاظم حزنى.. وقمت ملسوعة من فراشى وفتحت كتاباً فى الشعر والشعراء.. وقرأت للشاعر «باول فينس»[1] Paul Wiens قصيدة أحببتها كثيراً.. حيث يقول فيها:

أفـتـح صـفـحـات كـتـاب..

أدخـل بـيـتـاً..

فـيـه يـولـد إنـسـان..

والإنـسـان: أنـا.

****

لـكـنـى الآن..

عـلـى مـفـتـرق الطـرق..

(١) باول فينس: ولد سنة ١٩٢٢ بمدينة «كونجز برج» الألمانية.. وهى المدينة نفسها التى ولد ومات فيها الفيلسوف «كانت»، هرب من الطغيان النازى إلى سويسرا ثم استقر به المقام فى فيينا حتى انتهت النازية فانتقل إلى العيش فى برلين الشرقية.

(د. عبد الغفار مكاوى: قصيدة وصورة. عالم المعرفة، عدد نوفمبر ١٩٨٧)

هناك شب عراك

بين اثنين..

أحدهما يصرخ

من ثقب أحمر فى بطنه..

والصارخ والجرح: أنا

شخص يضغط فوق الزر..

يئن..

والشخص الضاغط فوق الزر:

أنا

* * *

أنصرف لحالى

يقف قطار.

أركبه.. نتدحرج عبر ليالٍ وليال..

نلعب دور الشطرنج معاً..

وأنا اللاعب مع نفسى

فى الخارج شرر متقد

رجل يتوهج فيه:

والرجل أنا..!!

* * *

القسم الخامس
فى الأردن (٣)

«لكن واحسرتاه.. ماتت «خلود» صديقتى الوحيدة فى عمان.. ماتت صغيرة ولم تهنأ بحياتها.. حيث لفها الانكسار وأدمت فؤادها المهانة..

لقد كانت إحدى ضحايا الأمية والجهل والخجل»

٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٩

إلى محبسى عدت ثانية.. عدت إلى الزنزانة والجو الخانق والقيود والحراس.

عدت إلى «عمان»..!

فمن عاش مثلى فى «فيينا» وعرف حياة النور والحرية.. لن يقول غير ما قلت.. فلا وجه للمقارنة بين الحياة هنا والحياة هناك.. لا مقارنة أصلاً.. وقد ظلم وأخطأ من يقوم بعمل مقارنة بين الليل والنهار.. النور والظلام.. فالنور نور والظلام ظلام.

وأنا هنا.. أقيم فى بؤرة الظلام.

* * *

٦ تموز/ يوليو ١٩٥٩:

للمرة الثانية تزورنى صديقتى «خلود»..

فى المرة الأولى بعد وصولى بأربعة أيام كانت حاملاً فى شهرها السابع.. تعانى آلاماً مبرحة نفسياً وجسدياً.. وبرغم محاولاتها.. كل محاولاتها.. فشلت فى إقناع زوجها بأن ما يفعله معها لا يقره دين ولا شرع.

لقد كان ضابطاً عسكرياً ذا عقلية رجعية متخلفة.. يصر على معاملتها معاملة «الأَمَة» التى لا تملك من أمر نفسها شيئاً.. وبرغم الحمل الأول وما يصاحبه من آلام.. إلا أنه لم يتوقف عن إهانتها.. حيث كان يغتصبها فى الوقت الذى يريده.. وكان يتمادى فى حيوانيته عندما يأمرها بالانكفاء وإلا..

أن يمارس الرجل حياته الزوجية بشكل شرعى، ولو بالقوة، فالقانون لا يصنف ذلك اغتصاباً.

وإن يواقع زوجته فى محل غير شرعى، وبالقوة، فالقانون يعطى الحق للزوجة فى طلب الانفصال.

لكن.. أى زوجة فى مجتمع قبلى تجرؤ على اتهام زوجها باغتصابها من الخلف..؟

إن الجميع - بما فيهم أهل الزوجة - سينظرون إلى هذه المرأة نظرتهم للمرأة الساقطة أو المومس.. بل لن يحترمها إنسان وربما تظل هكذا - مطلقة - طوال حياتها.

وهل هناك امرأة واحدة فى مجتمعنا واتتها الشجاعة ووقفت أمام القاضى الشرعى تصف له كيف اغتصبها زوجها عنوة فى محل غير شرعى؟

لا أظن ذلك..

وعلى فرض.. فإن المرأة التى قد ترتكب هذا «الجرم» دفاعاً عن آدميتها.. فمصيرها لا يعلمه إلا الله.

وهو المصير الذى كانت «خلود» تتوقعه إن هى اشتكت لوالدها أو لكبير قومها.. وليس أمام القاضى.

هكذا تخفى الأبواب المغلقة مآس ليس يعلمها أحد.. ولا يمكن تصور حجمها وشراستها.. وتلك كارثة ساعدُ المجتمع القبلى على شيوعها.. فليس بالضرورة أن تكون خلف الأبواب دائماً حياة أسرية سوية ووئام بين الزوجين.

وهذه المرة، قالت «خلود» إنها ستصبر على هذا الوحش حتى تضع مولودها.. فربما تتغير قذارته وتنقلب إلى العكس عندما يصل الوافد الجديد!!

* * *

١٢ تموز/ يوليو ١٩٥٩:

كان الفراغ قاتلاً مزعجاً.. قرأت كثيراً من كتب الفلسفة وعلم النفس التى حملتها معى.. بيد أن الملل كان يحطم أعصابى ويصل بى إلى حافة الجنون.. فالخروج للتنزه كان بمعجزة.. والذهاب إلى الصديقات كان من المستحيل.. أما عمل المشتروات فكان يأتى بعد إلحاحات ومذلة.. بالرغم من أننى لن أكون بمفردى.

لم يكن والدى متعنتاً فى كل ذلك.. إنما كان يقول دائماً إننى شبعت تنزهاً فى «فيينا» ويجب التزام البيت فى «عمان» حتى لا يتهمه أحد بأنه ترك بناته «يتبخترن» على راحتهن فى الشوارع والحدائق.

ربما كنت أقتنع بوجهة نظره.. فى بعض الأحيان..

لكن إلى متى سنظل هكذا، إماء، بلا رأى..؟

أين نحن من صفية زغلول التى خلعت «البرقع» وقادت المظاهرات فى القاهرة منذ أربعة عقود..؟

بالطبع لا يمكن مقارنة عمان بالقاهرة.. ففى مصر حجم الحرية أكبر من أن يقارن.. وهنا ماتزال المرأة تقاد وتتحرك وتقوم وتنام وتتزوج بالأمر!

* * *

٢٤ تموز/ يوليو ١٩٥٩:

أخيراً عثرت على «ريم» التى كانت تصطاف مع أسرتها فى «عجلون»[1].. لقد ظننت أنها سافرت إلى بيروت وأحسست بالسعادة لأنها ربما ستلتقى و«بسام».. لكن خاب ظنى.

وبالرغم من ذلك فقد جاءت لزيارتى وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث.. فقصصت عليها الكثير عن حياتى ودراستى فى «فيينا» ثم سألتها فجأة عن زميلتنا الفلسطينية «جيداء».. تلك الفتاة الجميلة التى تركنى «بسام» وارتبط بها.

وكم كانت دهشتى عندما أخبرتنى نبأ زواج «جيداء» من ابن عمها فى مدينة «الكرك» جنوبى عمان.. عند ذلك تجرأت وقلت لها إن «بساماً» كان يحبها.. فماذا جرى؟

(١) مدينة جبلية تقع على السفوح الغربية لجبال عجلون وإلى الشرق من نهر الأردن (حوالى ٢٠كم) وهى مدينة سياحية، يعمل ساكنها بالسياحة والتجارة والصناعات التقليدية والخفيفة.. ومن أهم معالمها الأثرية «قلعة الربض» التى بنيت زمن صلاح الدين الأيوبى لحماية بيت المقدس، كذلك غابات «أشتفينا» الطبيعية.

فضحكت وهى تقول أن ما كان بينهما ليس حبّاً..

ولم أرد الاسترسال لمعرفة المزيد.. فقد كان مهماً ألا تشعر «ريم» بأننى أبحث عن أخبار «بسام».. حيث سبق لها أن سألتنى عما إذا كانت هناك ثمة علاقة مّا بيننا أم لا؟ فأنكرت وجود أى شىء يربطنى «ببسام».. واضطررت أن أقول ذلك لأن «ريم» لم تكن صديقة مقربة أستطيع أن أطلعها على أسرارى وتقلبات حياتى.

وحتى هذه اللحظة لست أدرى على وجه الدقة:

- هل لازلت أسيرة الحب الأول؟

- هل تخلصت إلى حد ما من شبح «بسام» الذى ظل يحاصرنى حتى فى «فيينا»..؟!

- وإذا كنت قد تعافيت من هذا الداء.. فلماذا هذا الإهتمام الشديد بأخبار «بسام» والبحث عنه؟

- لماذا أبعثر كرامتى بالبحث عن إنسان ذاب بين بالبشر ولم يعد حتى يذكرنى..؟!

قرأت كثيراً عن الحب الأول.. حب المراهقة وانفجار العواطف.. وقيل إن هذا الحب ضرب من الرومانسية والمثالية.. وغالباً ما يفشل بعد مدة.. إلا أن هذه الآراء كانت لا تنطبق على حالتى.. فأنا أسيرة لهذه التجربة أحياناً.. وأحياناً أنساها أو أتناساها.. ربما يكون السبب فى تعلقى ببسام تجاهله لى وتفضيله فتاة فلسطينية عنى.. واتهامى بالغرور والتعالى.

ربما..

لكن ماذا أفعل لأنساه..؟

إن هذه التجربة دفعتنى للتراجع عن إقامة أية علاقات عاطفية.. بل ساعدت على كراهيتى للجنس الآخر بوجه عام.. وقد يكون ذلك أحد أهم أسباب علاقتى الخاصة جداً بصديقتى «جولى باتريك».. ثم «سارة بيراد» من بعدها.

١٩ آب/ أغسطس ١٩٥٩:

احتفالاً بنجاحى.. جاءنى والدى بهدية ثمينة كما قال.. وكانت هذه الهدية عبارة عن.. عريس..!

إنه ابن عمى الذى يعمل أيضاً فى تجارة المجوهرات.. والمثير أنه كان يريد أن نتزوج فى أسرع وقت.. أى أترك الدراسة فى النمسا وأتفرغ لحياتى الجديدة فى عمان.

لا أدرى بالضبط ماذا حدث.. فعندما أفقت من إغماءتى كان الطبيب جالساً إلى جوارى على الفراش فى حجرتى.. بينما وقف والدى يقفز الذعر من ملامحه.

أجهشت بالبكاء دون أن أستطيع كبح جماح نفسى.. وحاول الطبيب تهدأتى قدر استطاعه.. واقترب منى والدى فقبل جبهتى ثم جاءت أمى ونهرها أبى فخرجت.

بقيت ثلاثة أيام لا أغادر غرفتى.. يجىء والدىّ وأخوتى لكن أبى البكاء أن يغادرنى.. وفى النهاية التزمت الصمت ورفضت تناول الطعام.. وجلس والدى بجوارى ذات مساء وقال:

- لم كل هذا يا ابنتى.. أنا لن أزوجك غصباً عنك.. وعندما تقدم ابن عمك طالباً يدك لم أعطه وعداً.. بل عرضت عليك الأمر لأن هذا حقك.. وحقى..!

ولما اطمأننت إلى حديثه.. ورغبتنا المتوافقة فى ضرورة إنهاء دراستى أولاً.. قبلت يده.. ففاجأنى بقوله أن ابن عمى لا يريد زواجاً الآن.. لكن يطلب إعلان الخطبة فقط على أن يكون الزواج بعد حصولى على شهادتى الجامعية.

انقبضت نفسى عندما تذكرت ما يحدث مع صديقتى «خلود».. وبكل طرق الإقناع استطعت أن أضم والدى إلى رأيى بضرورة عدم الارتباط رسمياً الآن.. بحجة أننى سأتأخر دراسياً لأن ابن عمى هذا كثير الأسفار.. وسيلاحقنى فى فيينا وعندها سوف تحدث مشكلات ستشغل بالى وتؤرق حياتى..!

هكذا وافق والدى - ربما على مضض - على تأجيل أمر خطوبتى.. وعرفت

فيما بعد أنه تعرض لضغوط شديدة من شقيقه لإعلان الخطبة.. حتى إنه أخذ وعداً بعدم سفر ابن أخيه إلى النمسا للسياحة أو للتجارة حتى لا تفسر سفرياته هذه فى غير صالحه.

إلا أن والدى تمسك برأيه.. وأعلنها صراحة.. فقوبل رأيه بسخرية لكنه لم يتزحزح قيد أنملة.

* * *

٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩:

ماتت «خلود»..

ماتت وهى تضع وليدها البرىء فى بيت الزوجية..

تحرج زوجها الضابط من أن يقوم بتوليدها طبيب.. واستدعى لها «قابلة» بدوية لتقوم بالمهمة.. فماتت المسكينة بين يديها وهى تصرخ فى الرجل أن ينقل زوجته حالاً إلى المستشفى.

لكنه رفض..

رفض الإنصات إليها كما كان يرفض الاستجابة لدموع «خلود» ويصر على اغتصابها ولو اضطر لتقييدها فى السرير..

هذا هو زوجها المتعلم الذى بدأ أجهل من ناقة.

قتل صديقتى مئات المرات وهى حية.. ولم يرحمها.

قتل فيها الأمل والأمان وأترعها كؤوس الحزن والأسى ألواناً وألواناً.

قتل فيها هدأة السكينة عندما تعامل معها كجارية من حقه عليها الطاعة بلا مناقشة.. أو شكوى!

ولمن كانت ستشكو «خلود» وقد لطمتها أمها لأنها تكلمت عن أسرارها الزوجية.

تضافر الجميع واتفقوا على قتلها.. فقتلوها.

ولم أستطع وداعها الوداع الأخير.. ذلك لأننى عرفت بنبأ موتها فى اليوم التالى.. فذهبت ووالدتى للعزاء.. وقد كنت أولى بهذا العزاء لأننى مت مثلها.. صديقتى الوحيدة..!!

* * *

١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩:

غداً سأطير إلى النمسا وحدى.. فقد أجرى والدى جراحة فى قدمه منعته من مرافقتى.. وكان من المحتم أن أسافر لأنتظم فى الدراسة فى موعدها.. على أن يلحق بى، والدى عندما تتحسن ظروفه الصحية..!

وبالأمس.. بالأمس فقط.. التقيت بعدد من زميلات الدراسة الثانوية فى منزل أسرة «خلود»... وعرفت أن «جيداء» التى أحبها «بسام» ترملت هى الأخرى.

لكن الذى صعقنى هو ما تردد أن «بساماً» كان لا يزال يحبها وسوف يعلنان خطبتهما فى أقرب وقت.. وما حيرنى حقّاً هو ما أخبرتنى به «ريم» عن انتقال «بسام» وأسرته إلى لبنان.. فى حين أنه يعيش ويعمل فى «العقبة»[1] وقد هجر الدراسة ليعول أسرته.

فلماذا كذبت ريم..؟

وما غرضها من ذلك؟

هذه الحقيرة خدعتنى إذن لغرض ما فى نفسها.

«ما كان بينهما ليس حبّاً..».

هذا ما قالته لى «ريم» يوم ٢٤ تموز الماضى.. فهل كانت تبعدنى عن «بسام» بتوصية منه.. أم بتصرف منفرد منها.

---

(١) العقبة: آخر مدن الأردن الجنوبية والميناء الأردنى الوحيد على خليج العقبة.. وتعتبر المدينة مركزاً تجارياً هاماً، وكانت المدينة تدعى «أيلة» وسميت «العقبة» من قبل دولة المماليك نسبة إلى جبل العقبة الوعر الذى يقع على طريق المسافرين من مصر إلى الحجاز.. وهو الطريق الذى ألغى بعد أن احتل اليهود فلسطين.

لكن.. ولحظها الحسن.. سافرت إلى أقاربها فى «الزرقاء» وأظنها لن تعود إلى عمان إلا بعد أيام.. حيث سأكون قد غادرت الأردن دون أن أواجهها بكذبها.. وعلى الأقل أعرف منها لماذا كذبت.. ولأجل من؟!

لكنى يجب أن أعترف أنه بقدر أسفى وخداع «ريم».. فقد استرحت أخيراً حيث اتضحت الحقائق.. ولم يعد من اللائق بى أن أفكر بهذا الإنسان.. إذ يجب علىّ أن أنساه وأطرده شر طردة من خيالى وقلبى.. وقد قيل: إذا تعارض الحب مع الكرامة.. فليمت الحب ولتبقى الكرامة.

هذا القرار لن أتراجع فيه مهما كانت الظروف.. ولن أسمح منذ اليوم بأن أضعف أمام أى إغراءات وأتناسى قراراً يمس حياتى أمر مستقبلى.. لن أسمح أبداً.

كنت قد أعددت حقيبة سفرى استعداداً للسفر غداً.. لكن العديد من الأفكار حاصرتنى وأذهبت النوم من جفونى.. ومما شغلنى أكثر وأكثر وفاة صديقتى الوحيدة فى عمان.. تلك الإنسانة الرقيقة طيبة القلب التى صبرت على زوجها وتحملت الكثير لعله يعود إلى رشده بعدما يرى طفله الأول.

لكن واحسرتاه.. ماتت صغيرة ولم تهنأ بحياتها.. ماتت وقد لفها الانكسار وأدمت فؤادها المهانة.

هكذا كانت «خلود» إحدى ضحايا الأمية والجهل والخجل.

ترى بماذا يشعر زوجها الآن..؟

هل زاره الندم وعذّب فؤاده؟

لا أظن..

رجل على شاكلته يفتقر لأية مشاعر.. بل لا يكاد يعرف شيئاً اسمه الضمير والندم والشفقة والحنان.. ذلك لأن مجتمع البداوة خلق منه إنساناً غليظ القلب متحجر الوعى..!!

القسم السادس
فى النمسا (٣)

«يا صديقتى العزيزة.. لقد فوجئت.. فما بيننا أقوى من كل شىء.. وإذا كنت يهودية غير متدينة.. فأنا الأخرى مسلمة أكاد لا أعرف إلا أقل القليل عن ديانتى.. فلنشرب معاً أقداح التصافى لنمحو آية آثار للكدر..!!»

١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩

كانت تراودنى الرغبة منذ مدة طويلة فى زيارة مدينة «فينيسيا» Venice.. ورؤية «جسر التنهدات» Bridge of sighs الذى سمعت عنه كثيراً.. وانتهزت فرصة عدم مجىء والدى معى وعرضت الفكرة على «سارة» التى وافقت دون تردد على مصاحبتى.

ذهبنا معاً إلى إحدى الشركات السياحية الكبرى.. وحصلنا على أفضل عروض السفر وأرخصها.. وقررنا السفر بعد الغد.

* * *

١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩:

كم كانت ساحرة فى الليل.. فينيسيا.. مدينة الجزر والنور والجنادل.. تلك المعجزة المعمارية التى تضج بالروعة والفن والشاعرية.. ففى القرن الخامس الميلادى عندما أراد «أتيلا» Attila الجرمانى أن يصل إلى روما لخطبة هونوريا أخت الإمبراطور.. سبقته شهرته كدموى ينشر الموت والدمار أينما حل.. ففر سكانها فزعاً إلى منطقة مستنقعات رخوة على شاطئ الأدرياتيكى.

ونظراً للاضطرابات السياسية فى ذلك الوقت.. أمام السكان فى تلك المنطقة وبنوا بيوتهم فوق الأجزاء اليابسة داخل المياه.. وظهرت عند ذلك النواة الأولى لمدينة «فينيسيا» الفريدة.

ذهبنا إلى «مجلس العشرة».. وهؤلاء العشرة هم أعضاء الحكومة الإدارية فى «فينيسيا».. هؤلاء الذين كانوا يصدرون أحكاماً قاسية بالتعذيب أو السجن.. والإعدام.. مقابل اتهامات أو جرائم تعد تافهة جداً.. وكانت الغرف السفلية تستخدم كزنزانات للتعذيب وتتصل بالقصر بواسطة «جسر التنهدات».

وسمى الجسر بهذا الاسم بسبب التنهدات والأنّات الحزينة للسجناء الذين كانوا يعذبون حتى الموت.. ويمرون من فوق الجسر عند ذهابهم إلى المحكمة

وعودتهم لتنفيذ الأحكام الصادرة بحقهم.. وكان «كازانوفا» قد سجن فى ذلك المكان الموحش عام ١٧٧٥.. لكنه بعدما تعرض لتعذيب شديد نجح فى الهرب بمعجزة.

كذلك زرنا «برج الأجراس» وحملنا المصعد إلى القمة لمشاهدة المدينة من أعلى.. وجلسنا على مقهى «فلوريان» FLorian واستمتعنا بالفرقة الموسيقية التابعة للمدينة وبمقطوعاتها المرحة.

ولمزيد من الاستمتاع ركبنا أحد الجنادل فى «جراند كانال» وهو الشارع الرئيسى الأهم فى المدينة.. حيث تصطف على جانبيه القصور البديعة.. وبه عدد لا يحصى من الكبارى.. ومررنا «بقصر الذهب» الذى تم طلاؤه ذات يوم بالذهب الخالص.

كنا قد نزلنا «بو نيفيشياتى» الواقع على حافة القناة.. وتطل الشرفة الخارجية التى يتم فيها تناول العشاء على كوبرى مقوس تمر من تحته الجنادل المارة بالجراند كانال.

كنت أشعر أننى فى الجنة.. فلا جمال يبارى جمال هذه المدينة الأسطورية الإبداع والروعة.. المدينة العائمة التى تحولت إلى حلم يراود كل أصحاب الخيالات الخصبة فى كل بلاد الدنيا.. أما أصحاب الخيالات المريضة فهم يفكرون فى جندول «فينيسيا» ولكن بطريقة أخرى مختلفة.. أو بالأحرى.. مميتة(!) إذ يفضلون التخلص من حياتهم بين مياه المدينة حتى يحملهم «شارون» الأسطورى إلى الجحيم عبر النهر.

لقد تحير علماء النفس فى كل البقاع ووقفوا عاجزين عن تفسير ظاهرة مرض «أشيبناس».. المقصود بها ظاهرة الانتحار المتزايدة فى المدينة.. و «أشيبناس» هذا بطل قصة «توماس مان» التى عنوانها «الموت فى البندقية» والتى تحولت لفيلم سينمائى.

ففى كل عام ينتحر فى المدينة خمسون من الأجانب.. ومعظمهم من الألمان الذين سافروا إلى مدينة الموت بتذكرة ذهاب بلا عودة.

فما السر وراء حالات الاكتئاب التى تصيب الأشخاص المؤهلين للانتحار.. وتجعلهم يختارون القناة الكبرى فى المدينة ليغرقوا فيها أحزانهم وينهوا حياتهم؟

الدكتور «فايديزو راماسيونى» أخصائى الطب النفسى حلل هذه الظاهرة قائلاً: أن «البندقية» أو «فينيسيا».. تعد مثالاً للمدينة الأسطورية الخرافية الغامضة.. ولأن الانتحار نهاية بائسة تحدث لشد انتباه الآخرين.. فلا يوجد مكان أفضل من «البندقية» تجرى فيه أحداث هذه النهاية التى يختارها هؤلاء التعساء لأنفسهم.

وكان للطابع الخاص لهذه المدينة العائمة فى استفحال ظاهرة الانتحار.. فالجندول الذى يحمل اللون الأسود.. وهو اللون السائد منذ القرن السادس عشر.. يبدو كقارب «شارون» المتهادى وهو يسبح فى أنهار المدينة.

و«شارون» هذا شخصية أسطورية فى الميثولوجيا اليونانية - الرومانية القديمة - وكانت مهمته استقبال أرواح الموتى.. وعبور النهر بهم إلى «الجحيم».

والسائحون يتخيلون تلك القنوات المائية الرصاصية بلون الليل.. كقنوات للموت تفوح منها رائحة الجثث المتعفنة وانحلال الأجساد.. فيما تعزف الأناشيد الجنائزية على ضفاف القنوات.

وهؤلاء الذين جاءوا للانتحار.. ينزلون عادة فى أفخم الفنادق التاريخية بالمدينة حيث المبانى العتيقة.. وهم يطلبون وجبات رائعة قبل رحلتهم الأخيرة إلى العالم الآخر.. ويتركون لورثتهم دفع فاتورة الحساب.

فالموت فى «فينيسيا» يعد حلماً لراغبى الانتحار وجزء من الأسطورة.. وهو ما يعطيهم إحساساً بالرقى والجمال والرومانسية أثناء الانتحار.. وهذا الشعور يقلل إحساسهم بالخوف.

لكن.. ماذا عنى أنا وصديقتى «سارة»..؟

استأجرنا غرفة مزدوجة بالفندق.. وبرغم ازدحام برنامج الزيارة إلا أننا لم ننس أنفسنا.. وبعد كل سهرة خاصة كانت الغرفة تبدو كساحة معركة شرسة.. إنها

مبارزة من أجل الحصول على أكبر قدر من المتعة... مبارزة نتبادل فيها الأدوار ونسيج فى عوالم من الحبور يصعب تخيلها أو وصفها.

لقد صرنا من عُبَّاد هذا «الأمر».. نبحث عن كل جديد يصل بنا إلى قمة السعادة اللانهائية.

* * *

٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩:

هذا الوقح طاردنى اليوم بين أروقة الجامعة.. يبثنى عواطفه الكاذبة التى لا تحمل إلا رغبته فى امتلاكى.. والتباهى أمام الطلاب العرب بأنه تمكن منى وضمنى إلى قائمة عشيقاته.

إنه الجزائرى المغرور «بن قاسم» الذى هددته فى حزم بأننى سأبلغ إدارة الجامعة بمطارداته لى فى كل مكان أذهب إليه.

عند ذلك فقط تغير أسلوب كلامه.. وحاول أن يبدو مهذباً على غير عادته وطبعه.. قائلاً: أنه لا يقصد إيذاء مشاعرى بقدر حرصه على مكاشفتى بمكنون قلبه وحبه الصادق.

بالطبع لم أصدق أن هذا المخلوق البشع الطباع يمكن أن يعرف الحب.. وربما يكون الحب عنده هو الصداقة التى تقود إلى الفراش.. وعلى كل.. لقد ضمنت بأسلوبى العنيف معه ابتعاده عن طريقى والبحث عن ضحية أخرى يخدعها بكلامه المنمق.

* * *

١٣ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٩:

بالأمس فقط.. عرفت أن صديقتى «سارة بيراد» يهودية الديانة.. يهودية نمساوية..!

صعقت لهذا الأمر.. وتصورت أنها إسرائيلية.. لكنها أفهمتنى أنها يهودية غير متعصبة.. لا تذهب إلى المعبد تقريباً.. ولا تحب الخوض فى السياسة.

كان ذلك عندما أخبرتنى أثناء حديث عفوى بيننا.. أن أقرباء لها هاجروا إلى إسرائيل واستقروا هناك منذ سنوات حيث أقاموا فى فيلا رائعة بإحدى المستوطنات.. وحاولوا كثيراً إقناع أسرتها باللحاق بهم بلا فائدة.

وسألتها:

- هل زرت إسرائيل من قبل..؟

قالت:

- والداى قد زارها عام ١٩٥٥.. وبرغم الحفاوة التى قوبلا بها هناك إلا أنهما لم يستريحا.. وغادراها على وعد بعدم تكرار هذه الزيارة مرة أخرى.. (!)

قلت:

- هل لأنهما لم يستريحا هناك كما قلت..!؟

أجابتنى:

- إن والدى كموظف فى إدارة الوثائق.. درس وعرف الكثير عن تاريخ اليهود وأطماعهم فى فلسطين.. فهو على ثقة بأنهم يغالطون ويزيفون التاريخ ويخدعون العالم بما يروجون له من أن لهم حقوقاً تاريخية فى فلسطين.. لذلك إزداد قناعة فى زيارته تلك أنهم كاذبون.. فالمستوطنات هناك عبارة عن ثكنات عسكرية محصنة. وتم تأهيل الجميع - رجالاً ونساءً - على الإنخراط فى جيش الدفاع وحمل السلاح إلى جانب العمل.

هناك أيضاً الإغراءات التى ينشرون عنها لحث يهود العالم على الهجرة لإسرائيل.. تلك الدولة التى أقامتها الأمم المتحدة وزرعتها فى أرض عربية.. عملاً بمقولة مشهورة روج لها «هرتزل» وهى أن فلسطين أرض بلا شعب.

يا عزيزتى ليس كل اليهود متوحشون كما تتصورين.. فالصهيونية العالمية كان لها ألف ذراع وذراع.. تنشر الفوضى والأكاذيب وتصور للعالم بأن العرب هم الأشرار والقتلة.

لقد أقنعنا والدى أن الصهيونية ذات مبادئ هدامة.. حتى أن أغلب يهود

العالم ينكرون على إسرائيل هذه البقعة التى احتلتها لتقيم دولة اليهود عليها.

قالت لى «سارة» الكثير والكثير.. ومن ضمن الذى قالته:

- لقد خشيت أن تهجرينى لو عرفت بأننى يهودية نمساوية.. لذلك لم أحادثك فى هذا الأمر البتة.. والآن.. ها أنذا.. بكل ما بى من محاسن أو عيوب.. والخيار لك يا صديقتى وليس لى.. فإما أن أحمل حقيبتى وأذهب للإقامة فى غرفة أخرى.. أو أن أظل كما أنا.. معك.. لا مكان للتعصب الدينى بيننا..!!

قالت لى ذلك وخرجت من الحجرة.

وبعد دقائق حاولت أثناءها امتصاص صدمة المفاجأة.. خرجت للبحث عن سارة.. فوجدتها فى كشك الصحف الخاص بالدار.. ولما التفتت إلىّ قرأت ما بداخلى.. ومشينا معاً حتى حجرتنا وهناك قلت لها:

- يا صديقتى الوحيدة هنا.. لقد فوجئت.. لكننى الآن لم أعد أعر الأمر التفاتاً.. فما بيننا من صداقة أقوى من كل شىء.. فإذا كنت يهودية لا تهتمين بدينك.. فأنا الأخرى مسلمة أكاد لا عرف إلا أقل القليل عن ديانتى.. إننا إذن غير متعصبتين.. أو عدوتين.. فالأمور هذه كلها كانت خارجة عن إرادتنا ولا دخل لنا بها.

والآن.. وقد انقشع هذا الضباب الذى خيم علينا للحظات.. فأنا أدعوك للعشاء فى الخارج أولاً.

ولما سكت ولم أواصل كلامى قالت متسائلة:

- وثانياً..؟!

قلت لها فى بساطة:

- وثانياً.. نشرب أقداح التصافى عندما نقيم ليلة عرس ملتهبة تمحو أية آثار للكدر.. وتكون امتداداً لرحلة جديدة من التفاهم والصدق والمحبة..!!

٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٩:

بعدما استرد صحته جاء والدى من عمان كما وعدنى قبل سفرى.. وقضى أربعة أيام فى فيينا اطمأن خلالها على أحوالى.. ثم عاد أدراجه إلى الأردن مرة ثانية.

كان قد حمل إلىّ عدة خطابات من والدتى وأسرتى.. ومن ابن عمى الذى سيتزوجنى بعد رجوعى إلى عمان بشهادتى الجامعية.. كذلك حمل إلى كوفية من الصوف من عمل والدتى تعيننى على تحمل البرد القارس فى أوروبا أثناء الشتاء!!

* * *

٤ كانون الثانى/ يناير ١٩٦٠:

بالأمس - الأحد - جاء والد سارة لزيارتها.. وذهبت معها إلى المحطة المركزية لاستقباله.. ووجدته بشوش الوجه.. باسم الثغر.. يرتاح المرء إليه منذ اللحظة الأولى.

جلسنا على مقهى «ريلكه»[1] Rilke وعلى مدار ساعتين أخذ يشرح لى أشياء كثيرة عن اليهودية والصهيونية لم أكن أعرفها.. لكننى ازددت قناعة فى النهاية بأن أسرة «سارة» ليس لها صلة بإسرائيل.. بل وأنها تنتقد السياسة الصهيونية فى فلسطين ولا توافق عليها.. وأن ذلك كان سبباً من أسباب رفض الهجرة إلى الدولة اليهودية..(!)

* * *

(١) ربما يكون الاسم لشاعر ألمانيا الأشهر «رينيه ماريا ريلكه» (١٨٧٥ - ١٩٢٦)، الذى قام بجوالات فى بلاد عديدة من بينها «مصر» التى تأثر بها كثيراً وأثمرت زيارته هذه عن عدد من قصائده الرائعة التى تعكس انبهاره بأسرار النحت المصرى. (!) وأثناء زيارته لروسيا أحب المثالة «كلارا فيستهون» وتزوجها.. وعمل سكرتيراً للفنان الفرنسى والمثال الشهير «رودان» الذى ألف عنه كتاباً.. وأتاحت له إقامته فى باريس أن يتردد على متحف «اللوفر» وأن ينطبع وجدانه بروائعه فضلاً عن روائع «سيزان» و «كوكو شكا».. وكتب مرثياته الثمانى المشهورة إلى «دونو» عن لوحات «بيكاسو».. كما بهره الرسام «ليونيد باسترناك» بعبقرية ريشته واختياره للألوان..!!

القسم السابع
في الأردن (٤)

«غـادرت عمـان إلى فيينا أخيـراً .. وودعني والدي في المطار بفتـور لم أعهده.. وكان الجميـع ينظرون إليّ باستياء وغضب.. (!) فهم رأوا بأعينهم كيف تمردت على السلطة الأبوية.. وعلى كل التقاليد المرعية في مجتمعنا لأجل تحقيق رغبتي..!!»

«وبداية من كانون الثانى/ يناير ١٩٦٠ توقفت أمينة المفتى عن كتابة مذكراتها لأنه لم يعثر عليها ضمن أوراقها.. وربما فقدت يومياتها تلك خلال الأحداث اللاحقة.. وإن كنت لا أتصور توقفها عن الكتابة شارحة كل أمور حياتها بكل صراحة.

وما يجعلنى على قناعة بأنها لم تتوقف عن تدوين يومياتها.. أن الجزء المفقود من أوراقها يتصل بقيام دولة إسرائيل ورأيها فى اليهود.. فهذه الآراء واليوميات كانت مفيدة للغاية أثناء التحقيق معها لاستبيان فكرها وللإمساك بالخيوط التى تقود إلى دراسة شخصيتها وكيفية التعامل معها.

وبعد انقطاع هذا الجزء الهام أو الحصول عليه من قبل جهاز الأمن الفلسطينى لمواجهتها به.. تعود أمينة إلى الكتابة من جديد.. وكان ذلك بعد انتهائها من دراستها الجامعية».

* * *

٦ آب/ أغسطس ١٩٦٢

· تقول أمينة:

- لم أعد أشعر برغبة فى العودة إلى «عمان».. لقد اعتدت الحياة هنا حتى أن مجرد ذكر بلاد الشرق يصيبنى بالاكتئاب.. لكن بعدما حصلت على بكالوريوس «علم النفس الطبى» Medical Psychology بتقدير متوسط لم يعد أمامى إلا العودة مكرهة إلى «الأردن».

لقد تحادثت كثيراً مع «سارة» فى هذا الأمر.. وكان من رأيها أن أرجع إلى أهلى ووطنى.. ولما سألتها عما ستفعله هى أجابت بأنها لن تستطيع مغادرة «فيينا» إلى أية مدينة أخرى.. وعلى ذلك فهى قد حددت هدفها فى الحياة والعمل.. وطلبت منى أيضاً أن أحدد هدفى ولا ألعن ظروف نشأتى.. فالإنسان لا يختار مكان مولده أو موته.. ومن المهم أن أقنع بحياتى بين أهلى فى وطنى.. فالضائع هو من لا وطن ولا أهل له.

ربما أكون قد استرحت إلى رأيها.. بيد أن الحقيقة كانت عكس ذلك.. فما إن عدت إلى «عمان» حتى تحولت حياتى إلى كآبة وجحيم من الغضب نقمة على كل شىء.. ولما فاتحنى والدى فى أمر زواجى أصبت بانهيار حاد فقد تذكرت «خلود» وما فعله زوجها معها.. وقلت لوالدى: إن فكرة الزواج الآن ترهق أعصابى وتدفعنى إلى حافة الجنون.

والدتى أيضاً كانت تريد أن ترانى زوجة وأما.. وبكت كثيراً أمامى ومن ورائى عندما كانت ترانى زاهدة فى الزواج.

حتى ابن عمى الذى كان يريدنى زوجة.. انتظر كل تلك السنوات ليفوز بى.

لماذا..؟

ليست لدى إجابة واضحة عن سبب هذا الانتظار الطويل سوى أنه يبحث عن صفقة ثمينة لا أكثر.. فوالدى تاجر معروف وثرى من أثرياء الأردن..

وصفقة الزواج ستعود بمكاسب كبيرة على ابن عمى الذى يريد الارتقاء والوصول إلى الثروة والشهرة خلال فترة محددة.. ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا من خلال والدى الذى سيرفعه بلا شك.. وربما أشركه معه فى تجارته ومحلاته ليديرهما معه.

زواجى إذن صفقة تجارية رابحة لابن عمى..!

ومع التدقيق قليلاً.. يمكن تبين بوضوح أن زواجى من ابن عمى صفقة أيضاً لوالدى.. فهو كان يعانى من أمراض الربو والضغط والسكرى.. ومعنى زواجى من ابن العم الذى يمارس المهنة نفسها - وهى تجارة الذهب والمجوهرات - أن تجارته ستظل فى حالة انتعاش سواء نزل إلى محلاته بنفسه أو لم ينزل.

فعريس المستقبل سيقوم بتحمل الكثير من الأعباء.. أو بمعنى أشمل سيدير حركته التجارية.. وربما يكتفى والدى عندئذٍ بالإطلاع على الأوراق فقط.. كنوع من الإطمئنان على أحوال تجارته وأرصدته فى البنوك.

لذلك كان من الواضح وضوح الشمس أن زواجاً مثل هذا هو نوع من تزاوج المصالح.. بغض النظر عنى كإنسانة.. وبذا تصبح حياتى ملكاً لرجل لا ينظر إلىّ كزوجة مثقفة أو أنثى لها حقوقاً عليه.. وقد يعاملها كزوج «خلود» فتصير أمة لا حق لإعتراضها على تصرفاته.. وعند ذلك سيكون الأب فى صفه حفاظاً على علاقتهما التجارية.. وحفظاً لتقاليد البدو التى لا تحبذ الطلاق فتضطر الزوجة لأن تعيش مكرهة.. أو تنتحر يأساً.

* * *

٦ آب/ أغسطس ١٩٦٢:

منذ أن فاتحنى والدى فى أمر زواجى من ابن عمى وأنا أرفض بحجة إكمال دراستى العليا.. وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى استندت إليه مبررة رفضى.

أحس والدى بأننى أتهرب وأناور.. رافضة الإنصات لكافة الحلول ولسلطة الأب.. فهددنى بأنه سيمنعنى من السفر.. ولكى لا تستفحل المشكلة أقنعنى بأن أكمل دراساتى العليا فى عمان أو دمشق.. وذهبت معه إلى الجامعة حيث كان قد حدد موعداً مع مسئول هام أرسلنا إلى عميد كلية الطب.

بعد الاطلاع على أوراقى وشهاداتى الموثقة والمترجمة إلى العربية فى النمسا.. نظر العميد إلىّ فى دهشة وقال:

ـ هذا التخصص الجديد ليس عندنا... ولا يمكن لكِ عمل دراسات عليا فى عمان.

حاول والدى أن يعرف المزيد من المعلومات والإيضاحات.. ويبدو أن الرجل ضاق ذرعاً فقال موجهاً حديثه إلىّ:

ـ لماذا وقع اختيارك على هذا التخصص الذى لا يوجد عندنا..؟

فلحقه والدى بسؤال جديد:

ـ أليس لهذا التخصص نظيراً فى دمشق أو..

قاطعه العميد مؤكداً:

ـ لا دمشق ولا القاهرة أو جامعة عربية لديها فى كلية الطب مثل هذا التخصص.

نظر إلىّ والدى فى لوم مكبوت.. وانصرفنا.

وفى بيتنا تضاعفت المحاولات لإقناعى بالاكتفاء بدرجة البكالوريوس.. لكننى إزددت إصراراً على السفر إلى فيينا لإكمال تعليمى العالى كأول فتاة عربية تتخصص فى هذا المجال الحديث.. على وعد بالزواج من ابن عمى بعد ذلك.

ولما فشلت محاولات الأسرة معى وهددت بالانتحار.. اضطر والدى إلى الموافقة مرغماً وهو يردد عبارات الإستياء.. معلناً أن مصروفى الشهرى لن يزيد «شلناً» نمساوياً واحداً.. فى محاولة للضغط علىّ اقتصادياً ربما أتراجع عن قرارى.

لكن هيهات.

فكيف لى أن أتراجع عن العيش فى أوروبا عدة سنوات أخرى..؟

ولأى إغراءات أتراجع عن تنشق هواء الحرية..؟

ألأجل السجن القسرى الذى سأعيش به كأمة تنتظر سيدها ومولاها..؟ أم لأعيش - وأنا التى تلقيت تعليماً راقياً فى أوروبا - كغيرى من نساء البدو لا فرق بينى وبينهن..؟

* * *

١ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢:

قبيل ظهر اليوم غادرت عمان إلى فيينا بمفردى..

كان والدى فى قمة غضبه حتى إنه ودعنى فى المطار بفتور لم أعهده من قبل.. وفى البيت كانت أمى تبكى فى مرارة.. لاعنة اليوم الذى فكروا فى إرسالى إلى الخارج لإكمال دراستى.

الجميع كانوا ينظرون إلى باستياء.. مستنكرين ما حدث.. فهم رأوا بأعينهم كيف تمردت على السلطة الأبوية.. وعلى كل التقاليد المرعية فى مجتمعنا.. لأجل تحقيق رغبتى.

حتى ابن عمى الذى كان يأمل فى إتمام زواجنا.. كانت قسمات وجهه تفضح الغضب الذى بداخله.

لكن ماذا كان بيده لكى يتصرف..؟

ومن الذى سيعطيه هذا الحق خاصة ووالدى كان ما يزال على قيد الحياة؟

ربما كانت الأمور ستتغير كثيراً فى حالة عدم وجود والدى.. لكنه كان حياً ولديه القدرة والقوة والمقدرة على اتخاذ القرار المناسب دون أن يجرؤ أحد على مخالفته.. سواى..!

نعم.. لا أحد كان بإمكانه معارضة رأى والدى.. مهما كان هذا الرأى.. ولولا تهديدى بالانتحار.. وما سيؤدى إليه ذلك من فضيحة مدوية.. لما وافق على سفرى لعمل دراسات عليا.

أعلم أننى آذيته نفسيّاً ومعنويّاً.. وضربت بسلطته عُرض الحائط.. لكن الأيام كفيلة بأن تعود المياه إلى مجراها مرة أخرى.

فمتى يتحقق ذلك..؟

لا أدرى..!!!

* * *

القسم الثامن
فى النمسا (٤)

«أرجوك يا عمى.. لا تدعهم يذبحونى.. فمن المستحيل وأنا أدرس للدكتوراه يزوجوننى من ابن عمى المتزوج والذى لا يحمل إلا الابتدائية.. إن هذا لن يكون.. نعم.. لن يكون حتى وإن أنهيت حياتى بيدى.. فكن معى فى محنتى.. أنا فى حاجة ماسة إليك..!!»

٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢

عدت من جديد إلى «فيينا» فنزلت بفندق «فيسنبرج»[1] Wessenberg المتواضع.. وفى اليوم التالى ذهبت إلى شارع «شتراوس» للبحث عن مسكن مستقل.. وكانت مفاجأة مدهشة أن وجدت مسكنى القديم خالياً من السكان.. فاستأجرته ونقلت أغراضى إليه.

كانت شقتى الصغيرة عبارة عن حجرة نوم واحدة وحمام ومطبخ صغير.. لكنها عندى كانت أجمل بكثير من بيتنا الفخم الضخم فى عمان.

وبعد أن استقر بى المقام فى الشقة الحلوة عكفت على البحث عن صديقتى «سارة بيراد» حتى وجدتها، فذهلت لمرآى حيث اعتقدت أنها لن ترانى ثانية فى «النمسا».. وكان عناقاً حارّاً يضج بالشوق والحب.

قصصت عليها ما حدث لى فى «عمان» فأشفقت على حالى ومنحتنى الأمل فى حياة هانئة.. سعيدة.. بعيداً عن تعنت الأهل وقيود التقاليد الشرقية التى أبغى التخلص منها.. ولكى أحس بالاستقلال الذاتى والإعتماد على نفسى فى تحمل تكاليف الحياة هنا.. يجب أن أسلك سلوك الفتاة الأوروبية التى خرجت إلى الحياة من عباءة الأسرة.

هكذا شجعتنى «سارة» على الاهتداء إلى عمل.. أى عمل لأستطيع الوقوف على قدمىّ إذا ما تقلصت نقودى لأى سبب أو نقصت.. وفى الوقت نفسه الاعتماد على نفسى فى الحياة من حيث الدراسة والعمل لما فى ذلك من إحساس كبير بالذات.

---

(١) لاشتهار النمسا بحب الفن والأدب.. ربما يكون هذا الاسم للشاعر الألمانى الشهير «إجناس هيزيش فرايهير فون فيسنبرج» الذى ولد سنة ١٧٧٤ فى مدينة «درسدن» لأسرة عريقة النبالة.. ومات سنة ١٨٦٠ فى مدينة «كونستانس» بالجنوب الألمانى.. وتأثر بأفكار عصر التنوير وانتخب عضواً حرّاً فى أول برلمان لولاية «بادن».. بيد أنه لم يلبث أن انسحب من مسرح الحياة السياسية وتفرغ لأعماله الأدبية ورحلاته.

(د. عبد الغفار مكاوى قصيدة وصورة، سلسلة عالم المعرفة، عدد نوفمبر ١٩٨٧).

جرعة من ثقة وأمن كان لها مفعول السحر فى حياتى..

لذلك.. بدأت بالبحث عن عمل بمجرد أن وافقت الجامعة على قبول أوراقى لاستكمال الدراسات العليا.. وكنت أبحث بالذات عن عمل يتوافق مع مواعيد الدراسة الصباحية أو المسائية.. حتى وجدت ضالتى فى ورشة صغيرة للعب الأطفال وافق صاحبها على إلحاقى بالعمل حسب ظروفى الجامعية.

فى ذلك الوقت لم أكن أعانى نقصاً فى المال.. فوالدى كان قد أعطانى مصاريف الجامعة كاملة.. بخلاف ما يكفى لإقامتى فى فيينا لمدة ثلاثة أشهر فى مسكن خارجى.. فالجامعة لم تكن تستضيف طلبة الدراسات العليا من خريجيها فى «بيت الطلبة» حتى ولو كانوا من المغتربين.

ابتهجت سارة عندما أخبرتها بنبأ عثورى على عمل.. وطلبت منى ألا أتكاسل فى دراستى حتى أؤكد لأهلى مدى التزامى وحرصى على التفوق وعدم إغضابهم.

ارتبطت أكثر وأكثر بصديقتى اليهودية التى شجعتنى على شق طريقى مهما كان شائكاً.. وفى الوقت نفسه قادتنى إلى طريق التحرر الجديد.. ألا وهو تيار «الهيبيز» الذى انتشرت أولى جماعاته فى أوروبا فى تلك الفترة.. واستحوذ على عقول ملايين الشباب من الجنسين.. حيث الحياة البوهيمية والسلبية فى مواجهة واقع الحياة ومشكلاتها.. وممارسة الجنس والشذوذ بحرية وتعاطى المخدرات.

هكذا ظهرت سارة بوجه آخر لم أكن أعرفه.. فهى التى كانت تشجعنى على التفوق فى دراستى.. وتأخذنى فى الوقت نفسه إلى حياة جماعات «الهيبيز» لأرى وأتحرر وأطلع وأجرب حياة جديدة لم أعشها.. لكننى على كل حال رأيت وتحررت واطلعت ورفضت تعاطى المخدرات.. أو ممارسة الجنس بشكل فج كما كانوا يفعلون.

ذلك لأن صديقتى «سارة» كانت تجىء إلى مسكنى من حين إلى حين.. فنتحرر من كل شىء ونجرع «الحرية» بكل أشكالها وأوضاعها.

وذات يوم أطلعتنى «سارة» على بعض الصور لأسرتها وصديقاتها.. واسترعت انتباهى صورة عائلية ظهر فيها شقيقها «موشيه» الذى طالما حدثتنى عنه.. إلا أننى لم ألتق به برغم مجيئه إلى «فيينا» مرات عديدة طوال إقامتى بها فترة الدراسة.. وكثيراً ما عرضت علىَّ صديقتى أن أذهب معها للالتقاء به إلا أننى كنت دائماً أرفض هذه الفكرة.

كانت صورته بالملابس المدنية أجمل كثيراً مما كنت أتخيل.. وبدأت أسأل «سارة» عنه على استحياء.. وأحاول دائماً أن استفسر عن طبيعة عمله كطيار برتبة ملازم أول.. حتى إنها صرخت محتدة ذات مرة قائلة:

ـ أنا لم أقد طائرة من قبل لكى أجيب عن أسئلتك!!

* * *

٨ كانون الثانى/ يناير ١٩٦٣:

جاء والدى إلى «فيينا» بشكل فجائى يوم الأحد.. فوضع أغراضه فى الفندق الذى اعتاد النزول به.. ثم ذهب إلى الجامعة للسؤال عنى.. وارتسمت على وجهه علامات الرضا عندما وجدنى داخل الحرم.

جاء معى ليقضى فترة زيارته بمسكنى.. وفى سرعة البرق أخفيت مذكراتى هذه خوفاً من أن يعثر عليها فتصير كارثة.. وبالأمس عندما عدت من الجامعة لاحظت أن والدى عبث بأغراضى.. بل وقلَّب فى أوراقى الدراسية لعله يعثر على ما يبحث عنه.. لكنه ما وجد غير أوراق وكتب متخصصة باللغة الألمانية.

ترى.. هل سيواصل تفتيشه ربما يعثر على ما يكشف له بعضاً من أسرارى؟

اطمأننت على مذكراتى وتأكد لى أنه لم يتوصل إليها.. وبالرغم من ذلك تملكنى الخوف.. وصباح اليوم أخذتها معى وسلمتها لصديقتى «سارة».

١٩ شباط/ فبراير ١٩٦٣:

منذ أيام رجع والدى إلى «عمان» بعدما ترك لى مصاريف الشهور القادمة.. وحمدت الله أنه اطمأن على أحوالى فلم يعرف أننى أعمل عدة ساعات يومياً فى الورشة.. ولم يتوصل إلى أية أسرار خاصة بى.. وبمجرد أن غادر «فيينا» حتى جاءت «سارة» للمبيت معى.. فى فراشى.. وفكرنا بالسفر إلى «باريس» لقضاء عدة أيام.. على أن يكون ذلك فى آذار/ مارس عندما يتحسن الطقس هناك بعض الشىء.

* * *

٧ آذار/ مارس ١٩٦٣:

تم ترتيب كل شىء يتعلق بسفرنا إلى «باريس» التى سنصلها نهار السبت ٢٣ آذار.. واتصلت «سارة» بإحدى صديقاتها هناك وتدعى «سيمون» لتنظيم برنامج زيارة لنا لمدة ستة أيام.

لقد كنت فى حالة شوق لزيارة «باريس» عاصمة الجمال والموضة «الأزياء».. ويطلق عليها أهل الفن عاصمة النور والجمال والحرية.. وها هى رغبتى على وشك أن تتحقق أخيراً.

* * *

٢٣ آذار/ مارس ١٩٦٣:

كانت باريس تعنى الفتنة كلها.. فهى لوحة رائعة خلابة وليست مدينة.. بل هى الحب والحرية والزهور والحدائق والمحلات والتاريخ.. وأجمل النساء أيضاً.. إلى جانب ذلك هناك العلم والصناعة والعمل والتكنولوجيا.. فاستحقت أن يطلق عليها «مدينة النور».

فمنذ أكثر من ألفى عام أقامت إحدى قبائل «الغال» قرية على أكبر

جزيرتين تعترضان مجرى نهر «السين».. وقبلهم رأى الرومان إقامة مدينة محصنة طبيعياً بالماء.. ولاتزال هذه الجزيرة تسمى إلى الآن «جزيرة المدينة».. التى كانت بمثابة البيضة التى فقست «باريس»(١).

بيد أن المدينة الساحرة حتى عام ١٧٨٩ لم تكن تروق لأعين ملوك فرنسا.. فالملك «لويس الرابع عشر» لم يكن يحب هذه المدينة.. لذلك نقل مقر ملكه إلى «فرساى» التى كانت مستنقعات للصيد.. وتحولت إلى قصر فخم من أروع ما رأى العالم من تصور.

وعندما قامت الثورة الفرنسية ذحفت الجماهير إلى «فرساى» فذبحت الحرس ونقلت مقر الحكم إلى «باريس».. ولازال ميدان «الكونكورد» باقياً.. وهو الميدان الذى نصبت به المقصلة التى أطاحت برؤوس الحكام الأرستقراطيين.. وكان الإمبراطور نابليون الثالث أول من وضع لمسات الجمال على باريس.. وأطلق عليه الشاعر «فيكتور هوجو» لقب «الإمبراطور الصغير» مما أدى إلى نفيه عن فرنسا عدة سنوات.

كانت «سيمون» قد استقبلتنا بعدما قطعنا رحلة طويلة مرهقة.. وحسب رغبتنا أخذتنا إلى فندق صغير أنيق، يدعى فندق «ليند برج» Lind bergh الواقع فى شارع Chomel حيث أخذنا حجرة مزدوجة مؤثثة بفخامة.. فنسينا تعب السفر وتجولنا أول ما تجولنا بشوارع باريس الشهيرة.. منها شارع «هوسمان» Haussmann، وهو البارون الذى كان عمدة لباريس أيام نابليون بونابرت واشتركا معاً فى تخطيطها.. وشوارع «فولتير» و «سيباستوبول».. و «ماجينتا».. وشارع الأوبرا الذى أنشأه «البارون هوسمان» وكذلك الاثنى عشر شارعاً الذين على شكل نجم يخرج إشعاعه من «قوس النصر».. وسمى الميدان «ميدان النجم» إلى أن توفى الجنرال «شارك دى جول» رئيس فرنسا الأسبق فأطلق اسمه على الميدان رغم المعارضة الشعبية لذلك.

تناولنا الطعام الباريسى فى مطعم «لاتور دارجان» La Tour d'argent

(١) مرشد السائحين.. دار ميوزيك، لبنان - ١٩٨٣.

بشارع «الباستيل» وفى المساء ذهبنا إلى شارع «الشانزليزيه» أشهر شوارع العالم وأغلاها سعراً.. ورأيت قوس النصر يتلألأ فى أضوائه.. ونافورة «تروكاديرو» الشهيرة بجوار «برج إيفل».. ثم اتجهنا لنهر «السين» وهناك ذهلت لمرأى الكبارى الحجرية القديمة التى تعبر النهر.

هكذا رأيت بعضاً من «باريس» فى الليل.. إنها مدينة تستطيع أن تسير فيها وأن تتمشى أنى شئت وكيف شئت دون أن تشعر بحرج.. وما يزيد المدينة جمالاً: المرأة.. فالفتاة الباريسية تختلف كثيراً عن الفتيات الأخريات فى أى مكان من العالم.. فهى الرشاقة والجمال والأنوثة والقوام والثقافة والذكاء واللباقة والثقة.

* * *

١٢ آذار/ مارس ١٩٦٣:

يشطر نهر «السين» عاصمة النور إلى جزأين: الضفة اليمنى والضفة اليسرى.. تصل بينهما حوالى ٣٠ جسراً.

ولكى نرى بوضوح أكثر تفاصيل «باريس» صعدنا برج «إيفل» أعلى برج معدنى على سطح الأرض.. لكن الضباب كان كثيفاً مما جعل نطاق الرؤية محدوداً.. فاتجهنا إلى «قوس النصر» بعد ثلاث ساعات من سطوع الشمس.. ومن أعلى رأينا تحتنا مباشرة اثنى عشر شارعاً كبيراً تتفرع منها شوارع صغيرة.. ورأينا شارع «الشانزليزيه» الذى يصل حتى ميدان «الكونكورد».

أخذنا أيضاً جولة رائعة فى نهر «السين».. واستمعنا إلى شروح تفصيلية لكل ما نراه حولنا.. وعبرنا أسفل جسر «الإسكندر الثالث» ورأينا الخيول الأسطورية المذهبة الرابضة على قوائم وأعمدة الجسر.

ذهبنا كذلك إلى «الحى اللاتينى» حيث جامعة باريس ومقر «السوربون».. وفى هذا الحى دارت عمليات قتال عنيفة بين المقاومة الفرنسية وقوات هتلر.

أما متحف «اللوفر» فكان لابد من زيارته.. حيث كنت أود مشاهدة تمثال

«فينوس» إلاهة الحب والجمال عند الإغريق.. كذلك لوحة «الموناليزا» التى رسمها ليوناردو دافنشى ولازالت ابتسامتها تمثل لغزاً حتى الآن.. وقد تحققت أمنيتى أخيراً.. حتى أننى زرت جناح الآثار المصرية وبهرتنى المعروضات إلى حد الهوس!

وقبلما نغادر باريس.. زرنا «كرازى هورس صالون» أى «قاعة الحصان المتهور».. وهو مكان يقدم عروضاً عارية يقدمها ممثلون عراة تماماً يفعلون أى شىء.. وكل شىء.. على المسرح الساطع الأضواء أمام الجمهور..! بعد ذلك ذهبنا للعشاء بمطعم «ليدوين» Ledoyen الذى يقدم وجبات رائعة من كبد البط.. أو سمك «لارموريكاين».. أو بط بالخوخ.

وفى حجرتنا أخذنا دشاً وتناولنا وجبة خاصة تبعث الدفء بجسدينا.. وطبعنا بصمات بذكرى تضاف إلى ذكريات عديدة سابقة.. من الصعب نسيانها.

فى الصباح كان موعدنا مع رحلة العودة إلى «فيينا»..!!

* * *

٢ نيسان/ أبريل ١٩٦٣:

إلى حد ما انخرطت فى الدراسة مع شعور بعدم الحماس.. فقد كنت أبحث عن ذاتى الجديدة فى أوروبا وكيفية التعايش هنا إذا ما فوجئت بانقطاع مصروف الأسرة عنى.

لقد تواصلت مع عملى فى ورشة لعب الأطفال.. حتى أن العمل كان يأخذنى كثيراً من دراستى.. ويوم الأحد أول أمس انتهزت فرصة أجازتى الأسبوعية لقضاء ساعات لذيذة.. لكن «سارة» أخبرتنى أن لديها ظروفاً تحول دون لقاءنا.. وبالصدفة تقابلت وفتاة صغيرة من جماعات «الهيبيز».. فدعوتها إلى مطعم قريب ثم أخذتها معى إلى حجرتى.

كانت الفتاة من Leoben الواقعة على مسافة ٢٥٠ كيلو متراً تقريباً جنوبى

«فيينا».. تتعاطى الماريجوانا بإدمان مذهل.. طلبت منى نقوداً فوعدتها.. وبعد سهرة مدهشة أعطيتها بعض النقود فأخذتها بفرح.. وانصرفت.

هكذا بدت حياتى والحرية التى اخترتها.. وتخيلت أحياناً أننى فتاة أوروبية انفصلت عن أسرتها كما هى العادة.. واستقلت مادياً عنهم لتعيش حياتها بالأسلوب الذى ترضاه.. فالعمل كان هدفاً من أهدافى.. والدراسة العليا كانت بمثابة التصريح لى بالإقامة فى أوروبا ليس إلا.

* * *

٢٥ آيار/ مايو ١٩٦٣:

تسلمت خطاباً من والدى يخبرنى فيه برغبته فى إتمام خطبتى لابن عمى فى أجازة هذا الصيف.. على أن يتم الزواج العام القادم بعد حصولى على الماجستير.. حيث يرى أن شهادة الماجستير كافية جداً فى الوقت الراهن.. حتى لا يتقدم بى السن أكثر من ذلك.

وفى خطابه هذا كان يطلب منى رداً صريحاً وواضحاً يفيد بموافقتى على الخطبة كخطوة أولى.

لقد أصابنى كلام والدى بالتوتر والأضطراب.. وفشلت فى تهدئة نفسى وتمالك أعصابى لبعض الوقت.. فهو يتصرف بى كما تنص الأعراف القبلية فى الأردن.. من حيث تزويج الفتاة من أحد أقربائها دون استئذانها.. وهذا الأمر بالذات كما انتقدته وسخرت منه.. لكن يبدو أننى سأكون إحدى ضحاياه.

لقد استأذننى والدى فى أمر خطبتى أولاً.. هذه حقيقة.. لكن الظروف اختلفت حالياً اختلافاً كبيراً.. فابن عمى يكبرنى بسنوات وسنوات.. حتى إنه يقارب والدى عمراً.. هذه واحدة.

كان ابن عمى هذا متزوجاً من إحدى قريباتنا.. لكن لم يحدث إنجاب ولا أحد يعرف من فيهما السبب، هذه ثانية.. أما الأهم.. فهو كان حاصلاً على

شهادة إتمام التعليم الأساسى (الابتدائية) فقط.. فى حين حصلت أنا على البكالوريوس وأتطلع إلى الدكتوراه.

لم يكن هناك تكافؤ بيننا لكل ما سبق.. لكن كان هناك تكافؤ مع والدى من حيث العمر والتجارة والثروة.. وهذا مالا يتفق معى أو مع طموحاتى وأمالى.

فماذا أفعل..؟

وكيف أتصرف فى هذه المحنة..؟

هل أعود إلى عمان كالبقرة المغماة التى يعلقونها فى الناعورة «الساقية» فتمشى فى دائرة محددة لا تدرى من أمرها شيئاً..؟

* * *

١ حزيران، يونيو ١٩٦٣:

كتبت رسالة إلى عمى.. كان قد تقلد منصب «لواء» فى القصر الملكى منذ فترة وجيزة.. يحدونى أمل بأن يقف إلى جوارى ولا يتركنى بمفردى أواجه هذا المصير المجهول الذى أختير لى.

قلت له:

- أعلم أنك غير راضٍ بتصرفات والدى.

الآن أنا فى طريقى لنيل درجة الدكتوراه... فكيف بالله عليك أتزوج من ابن عمى الذى لا يحمل شهادة؟

كيف يتم الزواج بين فتاة متعلمة وقريبها الذى من المستحيل أن يفهمها.. أو تفهمه..؟

ابن عمى (...) هذا أنا أحبه كابن عم.. كقريب لنا كان يحملنى على كتفه عندما كنت طفلة.. ويجىء لى باللعب.. وبالحلوى التى كنت أحبها.

ابن عمى (...) هذا المتزوج منذ ٢٠ عاماً من (...) التى أحبها وأقدرها

وأحترمها.. ولن يطلقها إذا فرض ووافقت على الزواج منه.. وهذا لن يكون يا عماه.. نعم.. لن يكون حتى وإن أنهيت حياتى بيدى..!

أرجوك يا عمى.. فأنت تعرف جيداً كم أحبك.. وعلى ثقة بأننى أقدر فيك رجاحة عقلك.. أرجوك لا تدعهم يذبحوننى.

كن معى فى محنتى.. وسوف لن أعود إلى عمان قبلما يصلنى خطاب منك.

إننى أغرق.. فلا تدعنى أغوص فى الأعماق.. بل سارع إلىّ وأنقذنى.. فأنا فى حاجة ماسة إليك..!

أمينة

* * *

٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٣:

كنت أنتظر خطاب عمى بفارغ الصبر.. لكن لم يجئنى الرد.. وجاءنى والدى بدلاً من خطاب عمى.

عنفنى بشدة وكان قاسياً أشد ما تكون القسوة:

- هل ربيتك وعلمتك وأرسلتك إلى هنا لتخرجى عن طوعى أيتها الحقيرة.. الغبية..؟

تهددنينى بالانتحار إذا صممت على زواجك من ابن عمك..؟ إذن فلتموتى.. فموتك أفضل كثيراً من حياتك.. ولن أضعف مطلقاً أمام تهديدك السخيف هذا.. لن أتراجع عن قرارى.. ستتزوجين (...) غصباً عنك..!

أتتصورين أنك تعرفين مستقبلك.. وصالحك..؟

أنت أجهل من دابة حتى وإن حذت على الدكتوراه طالما الغباء يعشش فى رأسك.

التزمت الصمت أمام ثورته.. لكننى لم أستطع التغلب على دموعى التى انسابت حادة تلهب خدَّىَّ.

قلت لسارة أننى سأهرب من المسكن إلى مكان آخر.. ولن أذهب إلى الجامعة طالما والدى لن يغادر النمسا إلا وأنا معه.. لكنها ونعم الصديقة.. نصحتنى ألا ألجأ لأسلوب التهديد بالانتحار.. بل ألجأ إلى الإقناع كوسيلة للتفاهم.. وأظهر الطاعة لوالدى ممزوجة بجرعات حنان تقربه منى وتزرع ثقته فىّ من جديد.

عملت بنصيحتها وكم كانت محقة فيما قالته.. حتى إن والدى غمرنى بحبه الفياض وأغدق على بالهدايا الثمينة.. وبقى معى فى مسكنى يعد لى الطعام أحياناً.. ويجيئنى بالشاى وهو يدعو لى بالنجاح ويسهر إلى جانبى أحياناً كثيرة عندما أستذكر دروسى استعداداً للامتحان.

* * *

٢٣ تموز/ يوليو ١٩٦٢:

اليوم.. الثلاثاء.. انتهيت من امتحاناتى.. وقام والدى بإنهاء حجز أماكن لنا على طائرة بعد الغد.

ولأننى سأتغيب لفترة فى «عمان» ذهبت و «سارة» إلى أحد الفنادق الرخيصة.. وداخل حجرة سيئة أمضينا وقتاً قصيراً رائعاً.. حيث حصلت على جرعة من الحب تريح أعصابى.. وبعدها ذهبت إلى مسكنى حيث كان والدى نائماً.

لاحظت أنه قد تهيأ للسفر.. فقد اشترى بعض الهدايا للأسرة كما اشترى حقيبة سفر جديدة.

* * *

القسم التاسع
فى الأردن (٥)

«هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها يا ابنتى.. وهذه الزيجة لصالحك على كل حال.. وعندما يجىء الوقت المناسب ستعرفين كل شىء.. وعندها سيتأكد لديك أننا كنا نعمل لإسعادك..!!»

٧ آب/ أغسطس ١٩٦٣

عندما اقتدت إلى «عمان» كنت كمن أساق إلى نهايتى.. تلك النهاية البشعة التى كنت أتوقعها.. ولما جاء عمى إلى منزلنا يهنئنى بسلامة الوصول.. نظرت فى عينيه نظرة لوم.. فرمقنى بعدة نظرات سريعة كمن يتهرب من مواجهتى.. ولولا وجود أبى لسألته:

- لماذا لم تحترم رسالتى إليك وسلمتها إلى والدى..؟!

لماذا لم تهتم بمأساتى وأهملت استغاثتى إليك..؟!

لماذا تصمت هكذا ولا تعير مشاعرى التفاتاً..؟!

لقد وضعت آمالى بين يديك لثقتى فى أنك ستفعل الكثير والكثير لأجلى.

فلماذا تذبحنى أنت الآخر..؟!

لماذا..؟!

غصت فى معاناتى ووأدت آخر أمل لى فى أن أعثر على مصدر أمان يقينى الشر القادم.. لكن يبدو أن هناك ما لا أعرفه وتم الاتفاق عليه قبلاً.

حاولت الالتجاء بقوة إلى والدتى.. إنها فى حالة سيئة كما يبدو من ملامحها.. ومن خلال دموعها الصامتة وركونها إلى السكوت أمام ما يجرى أمامها..!

وفشلت..

فشلت فشلاً ذريعاً فى استنطاقها.

نعم.. فشلت فى أن أعرف منها ماذا دبروا لى وخططوا وأنا بعيد..؟!

ثلاثة أيام بالتمام والكمال منذ وصلت إلى عمان.. وتقرر إعلان خطبتى رسمياً من ابن عمى.

قبلها بيوم واحد جلست معه بمفردنا فى حديقة البيت.. سألته سؤالاً مباشراً:

- هل أنت سعيد بخطبتنا يا ابن عمى..؟!

أجابنى:

- اسمعى يا أمنية.. أ عرف أنك فتاة ذكية.. وكان من الأصوب أن تفكرى جيداً فى مستقبلك.. فلو حدث وتزوجت من شاب يقاربك عمراً.. فهو لن يوفر لك الحياة الرغدة التى تليق بك.. لكننى يا ابنة العم لدى القدرة والإمكانيات المادية لإسعادك وتحقيق طموحاتك.. ولسوف أقيم لك عيادة كبيرة أو مستشفى فى أرقى أحياء عمان لتزاولين عملك بحرية كما تريدين.

وأضاف:

- أعرف أن هناك فروقاً كبيرة بيننا فى مستوى التعليم.. والسن.. لذلك سأسعى قدر المستطاع لإسعادك لتذويب أية فروق.

قلت له:

- وهل تتصور أننى محرومة مادياً لكى تغرينى بعرضك هذا..؟ أنت تعرف أن والدى ثرى جداً.. وتجارته رابحة.. فنحن نقيم فى فيللا راقية.. ولدينا سيارة حديثة.. وتعلمنا تعليماً عالياً.

ثم لا تنسى أننى أعرف أنه لولا والدى ما كنت ثرياً.. فقد وقف بجانبك وآزرك بالمال والخبرة.. والعلاقات وأسرار المهنة.

فأى جديد ستقدمه لى يا ابن العم..؟

وما هو الذى أفتقده وأطمح فى الوصول إليه..؟!

فهل سأعيش فى فيللا كهذه مثلاً..؟

هل سيكون لدى ثلاث خادمات..؟

أم ستحشرنى فى شقة ضيقة الجدران تخنقنى؟..

وربما ستأخذنى لأعيش مع زوجتك.

هه.. ماذا لديك يا ابن العم..؟

تفصد منه العرق مدراراً.. وكاد أن ينصرف وهو يرفل فى خجله.. وقال بتلعثم:

- سأقدم لك ما لن تتصوريه يا أمينة.. فلماذا أنت عجولة لا تصبرين؟

قلت له:

- مهما قدمت لى فلن يكون بأكثر مما لدى.. وحتى لو لم يكن لديك ما يحقق رغباتى، المادية، فأنا سأطيع رغبة والدين ولن أرفض له طلباً.

هذه حقيقة يجب أن تعرفها.. لكن عندى رجاء أرجوك أن تناقشنى فيه الآن وتعدنى بأن تحققه لى!

نظرت إلى عينيه فى رجاء فأجابنى فى الحال:

- إنى أوافقك على كل ما تريدين.

قلت:

- يا ابن عمى.. أنت تعرف أمينة.. ابنك عمك.. إنها لم تتغير أو تتبدل.. تحبك وتقدرك وتحترمك..!

وما أرجوه منك ألا تعجل أمر زواجنا حتى أحصل على الدكتوراه وأستقر فى عمان وافتتح المستشفى الذى وعدتنى به.. فأنت تعرف أن الزواج سيعطل دراستى.. وقد يكون هناك حمل وإنجاب فيموت أملى بذلك إلى الأبد.

هذا رجاء أريد منك الآن وعداً صادقاً بتلبيته.. وأنا منذ صغرى أعرف مدى طيبتك وسعيك فى كل وقت لإدخال السعادة إلى نفسى.

كلمات انتقيتها بعناية انتهت بخضوعه.. وأعطانى الوعد الذى أريد.

هكذا خرجت منتصرة إلى حد ما من لقاء الحديقة المنفرد.. وبعد عشاء ذلك اليوم جاء العريس المنتظر يحمل حقيبة ملأى بالمجوهرات.. فتحها أمامى وتركها لى قائلاً:

- انتق ما يروقك يا أمينة..!

فانتقيت منها ما لائم مزاجى وسط استحسان الأهل ونظرة الرضا من والدتى.. والظفر من والدى..!!

* * *

١٦ آب/ أغسطس ١٩٦٣:

بالأمس كان حفل خطبتى.. أقيم حفل عائلى فى حديقة البيت.. وانهالت علىّ الهدايا من الأهل والأقارب.. وبدوت فى فستان الخطبة جميلة جدّاً وفائقة الأنوثة حتى اننى خفت أن أحسد نفسى.

سبق هذا الحفل مشكلة كبيرة كادت أن تقلب حياتى رأساً على عقب.. إذ أن والدى كان قد صمم على عقد قرائى.. وحاولت مراراً أن أثنيه عن قراره لكنه أبى. ولم أجد غير ابن عمى الذى أقنعته بوجهة نظرى.. فبدأ متفهماً.. وربما تحرج من إلحاحى.. فتراجع وضغط بقوة على والدى لإلغاء مسألة عقد القرآن فى الوقت الراهن.

أما عمى.. سيادة اللواء الذى خذلنى.. فيبدو أنه كان من مؤيدى هذا الزواج.. لذلك كنت أرى ابتسامته العريضة دليل اشتراكه فى المؤامرة.

لكن من سينتصر فى النهاية..؟

لست أعرف بالضبط..

وكل ما أعرفه أننى قررت ألا أقف فى وجه العاصفة.. ففى هذه الحالة سأخسر الكثير.. وامتثلت ـ افتعالاً ـ للمصير الذى اختاروه لى لكن بداخلى يتوحش الرفض ويتعملق..

وأعود ثانية إلى السؤال الأخير:

ـ من سينتصر فى النهاية..؟!

٢٧ آب/ أغسطس ١٩٦٣:

تواصلت زيارات ابن عمى «خطيبى» لبيتنا.. يجىء كل مرة بهدايا ثمينة لإشباع غرورى بالطبع.

وذات يوم لم يجئ بمفرده كالعادة.. بل جاء ومعه زوجته التى قابلتها بترحاب وعناق.. إلا أننى كنت ـ كأنثى ـ ألمح فى عينيها نظرات حزن عميق تحاول إخفاءه.. لكن مهما حاولت فلن تقدر على أن تخف ذلك عنى.. وفى الوقت نفسه لن أقدر على فعل أى شىء حيالها.

وأعتقد أن الأيام القادمة سيتحدد خلالها مصير هذه الزوجة التعسة التى تعانى القهر الاجتماعى فى أبرز صوره.. وأوشكت أن أنفرد بها لأخبرها أننى لن أكون ذات يوم دخيلة على بيتها وحياتها.. ثم عدت ونفضت الفكرة.. فقد كنت على وشك السفر إلى النمسا ولا أريد أن أخلف ورائى أية منغصات أو مشاكل.

وكل ما فعلته هو أننى تمنيت لها فى بالى سعادة موفورة.. وخير صحبة فى كنف زوجها.. خطيبى..!!

* * *

٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣:

سؤال كان يحيرنى ويشغل بالى طول الوقت:

ـ لماذا أمى سلبية..؟!

أين دورها فى حياة أولادها ومستقبلهم..؟!

ولماذا تبدو دائماً مغيبة.. لا صلة لها بقرارات الأسرة المستقبلية.. ولا دخل لها فيما يجرى حولها.

ولم أترك الأسئلة الملحة تلج فكرى دون إجابة.. بل سألتها مباشرة:

ـ أمى.. لماذا لا تتدخلين فيما يجرى وتدلين برأيك فى خطوات حياتهم

وترتيبات مستقبلهم..؟

أجابت:

- ومن قال لك أننى غائبة عن كل ذلك..؟! إننى أفعل ما لا تتصورنه لإسعادكم، وأنت مثلاً.. لا تظنى أن قرار سفرك إلى أوروبا لإكمال تعليمك الجامعى اتخذ بعيداً عنى.. أو أننى كنت آخر من يعلم.. لا يا ابنتى.. إننى دائماً أعمل كل ما يتصل بمستقبلكم لكن فى الظل.

نعم.. أفعل كل شىء فى الظل لأننى أحب أن يكون والدكم فى المقدم.. الواجهة.. بؤرة الضوء التى يراه الجميع فيها.. وأكون أنا بعيدة.. لكن مؤثرة.

فسألتها:

- إذن لقد كنت وراء أمر خطبتى لابن عمى المتزوج والذى لا يحمل إلا شهادة الإبتدائية..؟

قالت:

- هناك أشياء لا تعرفينا يا أمينة.. وهذه الزيجة لصالحك على كل حال.. وعندما يجىء الوقت المناسب سوف تعرفين كل شىء.. وعندها سيتأكد لديك أننا كنا نعمل لإسعادك.

حاولت أن أعرف منها طبيعة تلك الأشياء الخفية التى لا أعرفها لكنها رفضت الكلام قائلة:

- إن الزمن كفيل بأن يريك كل ذلك فى حينه.

كانت أمى تتكلم وكأنها تخفى سرّاً رهيباً.. وأحسست بأنها تؤهلنى لاستقبال ذلك السر فى يوم من الأيام.. وبدت أمى التى كم سخرت من سلبيتها قوية وصامدة.. حتى أنها تحمل عنا معاناة أبت إلا أن تعانى منها وحدها..!

لكن لماذا أنا بالذات التى أُخترت زوجة لابن عمى هذا؟!

ولماذا وافقت الأسرة على خطبة شقيقتى الوحيدة من رجل أعمال قريب لنا يعيش فى روما..؟

أسئلة كثيرة كانت بلا إجابة.. وإلى أن تظهر لها إجابة ستكون هناك أمور كثيرة قد وقعت.. أو تبدلت..!!

* * *

٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣:

سأطير غداً إلى النمسا.. إلى حيث النور والتحرر بعيداً عن حياة الجهل والظلام هنا.. وسيجىء والدى و «خطيبى» ليقضيا عدة أيام معى ثم يعودان أدراجهما.

كنت خلال الأيام الفائتة قد فكرت بحياتى.. وخلصت إلى أن هناك تضحية يجب على تقديمها لأسباب لا أعرفها.. فوالدى كان حريصاً على الظهور أمامى بمظهر الأب السعيد الذى يفخر بابنته المطيعة.. فى حين كانت أمى تبالغ كثيراً فى إعلان سعادتها.. وهذا ما كان يؤرقنى.

أما «خطيبى» فقد بدأ متفاهماً ودوداً.. يسعى قدر الإمكان لإرضائى.. حتى قلت إنه طفل فى المدرسة يتعامل مع مُعلّمته بكل طاعة وتهذيب.

هناك إذن ما لا أعرف من أمور خافية اتفق عليها الثلاثة: والدىَّ وابن عمى.

ولما ضقت وأرهقنى التفكير.. نبذت كل ذلك جانباً وقلت فى نفسى: لأترك كل شىء لحينه.

وجهزت حقيبتى لرحلة الغد المنتظرة..!!

* * *

القسم العاشر
فى النمسا (٥)

«ترنحت سكرى أمـــام أول تجـــربة حب.. وسقطت شرقيتى وعذريتى وتقاليدى لتستقر فى الحـــضـــيض.. فـحـــاولت أن أهـرب من «موشيه» لكن رجفات الرغبة كانت كالسياط تلسعنى.. وتضرب بأعماقى..!!»

٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣

عاد والدى وخطيبى إلى «عمان» منذ ثلاثة أيام.. وخلال مدة بقائهما هنا فى «فيينا» أقاما فى أحد الفنادق.. وكنا نلتقى يومياً لتناول الطعام أو للتنزه.

وخلال تلك الزيارة لم ينفرد بى «خطيبى» أو يبد رغبة فى أن نخرج معاً.. وحدنا.. بل كان والدى يتأبط ذراعى أحياناً أو يسحب ذراعى لأتأبط ذراعه.. وانتهزت فرصة وجود ابن عمى واشتريت عدداً ضخماً من الملبوسات المثينة التى لم يبد اعتراضه على ثمنها مثل والدى.

وبعد سفرهما جاءت معى حبيبتى «سارة» إلى المسكن.. حيث تهيأنا لسهرة «حب» طال انتظارها.. واشتد شوقنا إليها.. وامتدت حتى لقرب الصباح فى احتفالية أضفت على أجازة آخر الأسبوع بهجة ورونقاً.

كانت سارة على وشك السفر لأسرتها خلال أيام.. حيث كانت أمها تعانى من آلام حادة فى المفاصل.. ولما دعتنى لمرافقتها وافقت دون تردد.. رغبة فى زيارة غرب النمسا حيث تعيش أسرتها بمدينة «إنسبروك» Innsbruck، وهناك سنقضى عدة أيام فى التنزة وزيارة الغابات والجبال!

* * *

١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٣:

فى اليوم الأول من هذا الشهر وصلنا إلى «إنسبروك» ورحبت بنا والدة «سارة» كثيراً.. أما والدها فقد صاح بسعادة مرحباً وهو لا يصدق أننى ذهبت لزيارتهم وقطعت كل تلك المسافة من أجل الاطمئنان على زوجته.

كان البيت يبدو كلوحة فنية ثمينة.. بنى من طابقين من الخشب.. وكانت الحجرة التى خصصت لى بالطابق الثانى منسقة رائعة.. على الجدار رأيت صورته بالزى الرسمى.. بدأ وسيماً مليح القسمات ذو ابتسامة وضاءة ونظرات متفائلة.

إنه «موشيه بيراد» شقيق «سارة» الوحيد الذى يعمل طياراً ويحمل رتبة «ملازم أول» First Lieutenant فاجأتنى «سارة» وأنا أحملق فى صورته الرسمية وقالت ضاحكة:

ـ إنه يبحث عن عروس.. أتتزوجينه يا أمينة؟.

ضحكت أنا الأخرى وقلت لها:

ـ نحن فى أوروبا يا عزيزتى ولسنا فى بلاد الشرق حتى يبحث الشاب بواسطة أسرته عن فتاة ليتزوجها.

أسرعت تقول وكأنها استدركت شيئاً:

ـ أرجو ألا أكون قد ضايقتك فأنا ما قصدت تذكيرك بمشكلتك التى وضعت فيها.

قلت:

ـ لا عليك يا «سارة».. أعلم أنك لا تسخرين من ظروفى وتقاليدنا الشرقية.. لكن. لماذا خصصتم لى غرفة «موشيه» لأنام على فراشه.. ألا يضايقه هذا عندما يجىء من عمله..؟

ردت قائلة:

ـ لأننى أولاً سأنام مع والدتى بينما سينام والدى بمفرده فى حجرتى الصغيرة.. ثم إن أخى «موشيه» لا يجىء إلى هنا فى مواعيد ثابتة نظراً لظروف عمله كطيار.

سهرت لوقت طويل أتصفح كتاباً وجدته على مكتب «موشيه» عن الشاعر الألمانى الشهير «باول هايزه» Paul Heyse الذى درس اللغات والآداب القديمة وكتب القصة والمسرحية والقصيدة وحصل على جائزة نوبل فى الآداب سنة ١٩١٠.

وفى الواحدة ظهراً تقريباً كنت أقطف عدة وردات من الحديقة لأنسق بها غرفة موشيه التى ذبلت بها الورود القديمة.. وفوجئت به أمامى.. بشحمه ولحمه.

ابتسم ابتسامة عريضة وأخذ باقة الورود من يدى فقربها من أنفه.. ثم أعطاها لى من جديد بينما كنت أقف مبهورة وقد أشلت نظراته السحرية عقلى وجسدى حتى أننى عجزت عن النطق بحرف واحد عندما سألنى عمن أكون.

أنقذتنى «سارة» من الموقف الرهيب الذى كنت فيه.. حتى بعدما قدمتنى لشقيقها ظلت حالة الشلل مسيطرة علىّ لا أجد منفذاً للهرب منها.

كان «موشيه» يرفل فى شباب وأناقة ووسامة أكبر بكثير مما بدا فى صورته الكبيرة المعلقة بحجرته.. ووجدتنى أعشق نظراته السحرية ونبرات صوته الحنون الدافق بالدفء.. وتلك الابتسامة العذبة التى لم أر مثيلاً لها.

لم يسألنى «موشيه» عن الشرق.. لكنه حدثنى عن الشعر والموسيقى والأدب.. وصارحنى بأنه ولوع بالشعر الأسود وبنجلاوات الشرق التى يرى صورهن أحياناً فى المجلات.

حاولت كثيراً أن أسيطر على عواطفى وألا أنجرف إليه.. لكننى كمن كانت تتشبث بالهواء.

وفى نزهة خلوية صحبنى فيها بسيارته إلى إحدى الغابات.. ارتجف بدنى بقوة.. واستسلمت لأصابعه التى تخللت شعرى.. ولما ضمنى إليه ولفحتنى أنفاسه الحارقة.. خارت قواى إلى غير رجعة.. وعندها ضغط ضغطاً ملهوفاً على مغاليق إرادتى.. فانهرت.. وارتجت قواى فى عنف مع مذاق أول قبل من رجل.

لقد كان الأحاسيس مختلفة.. والمذاقات أروع وأروع.. وقلت فى نفسى عندئذٍ:

ـ يا للغباء.. نحن ما خلقنا إلا للرجال.

على المقعد الخلفى للسيارة ذابت أنوثتى بين أحضانه اللاهبة.. تأملت جسده العارى المشعر كالمنومة.. وتركته يعتصرنى دون وعى منى أو مقاومة حتى وهو يجوب جسدى ويتسلل إلى أغواره.

وفى لحظات أفقدنى عذريتى.

شهقت فى فزع..

عندما رأى بعض الدماء ونظر إلى وجهى أصيب بالارتباك وجحظت عيناه وهو يقول:

ـ لم أكن أعرف أنك عذراء..

صدقينى يا أمينة.. لم أكن أتخيل ولو للحظة أن هناك فتاة فى مثل عمرك.. وجمالك.. تبقى بعذريتها كل هذا الوقت.

أشفقت عليه جزعه واضطرابه.. وجذبته إلىّ من جديد لا أبالى بما حدث. فالحب كان قد غلف فؤادى وسيطر عليه.. ورجولته أسكرتنى بدفقاتها الممتعة المتلاحقة.. فهذه هى المرة الأولى التى يلمسنى فيها رجل.

وأى رجل..!!

هكذا غرقت فى اللذائذ بنهم وجوع واشتياق.. وتحول حبى للتساحق إلى كراهية شديدة.. فالأحاسيس الجديدة مع «موشيه» كانت دفق من السحر وشلالات من حبور.

أفرغت مشاعرى كلها بين أحضانه.. بصدق.. وضعف.. واعترفت له بحبى منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها.

لم أهتم بكونه يهودياً وأنا المسلمة.. ولم يسألنى هو أيضاً عن ديانتى.. ووطنى.. وأهلى.. إذ أصبح نهر اللذاذات دينى الجديد.. وصار «موشيه» هو وطنى وأهلى.

* * *

٢٣ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦٢:

كان عيد ميلادى الرابع والعشرين فى ٢٧ تشرين الأول.. (١)، اتصل بى «موشيه» تليفونياً مهنئاً بعيد ميلادى.. وطلب منى أن أذهب إلى مطعم

«ماكسيم»[1] حيث سأجد مائدة حجزت باسمى فى الطابق الأول.

وعندما دلفت من باب المطعم.. وجدته جالساً ومعه «سارة».. وكانت مفاجأة رائعة ما توقعتها.. وعند منتصف الليل عزفت الفرقة الموسيقية أغنية عيد الميلاد.. وقدم لى هدية ذهبية عبارة عن سلسلة وقلب بداخله حرفى "M. A".

استأذنت سارة بعد ذلك لرغبتها الشديدة فى النوم.. بينما واصلنا السهرة معاً نتناول العشاء ونرقص فى سعادة واشتياق.

وقرب الواحدة ونصف صباحاً.. ركبنا سيارة تاكسى إلى مسكنى.. وعندما ضمتنا الحجرة عانقنى فى لهفة مجنونة وهو يجوب شعرى وجسدى بأصابعه.. وسألنى بغتة:

- هل سببت لك مشكلة كبيرة بما حدث فى «إنسبروك»..؟!

قلت له على الفور:

- لا تشغل بالك بهذا الأمر يا «موشيه».. فهو لا يمثل لى أية مشكلة!!

احتوانى مرة ثانية وهو يقول:

- يجب أن أعترف لك يا «أمينة» أننى أحبك.. نعم أحبك بكل ما لدى من عاطفة ومشاعر.. لقد كان فؤادى خاوياً حتى رأيتك فملأته.. وقبعت بداخلى واستسغت الشغاف والأوردة والخلايا لك سكناً.

ووجدتنى أقول له بحرارة:

- إن حبك يا «موشيه» هو الضوء الذى أنار لى الطريق.. بل هو عقيدتى وملاذى ومرآة نفسى.

---

(١) لم يكن هذا المطعم أحد فروع مطعم «ماكسيم» الباريسى الشهير.. بل أقتبس الاسم فقط..!! لقد كان مطعم ماكسيم فى باريس أسطورة بحق.. فقد كان من بين زواره الملك «إدوارد السابع».. وهو يتمتع بشهرة عالمية جذبت إليه المشاهير من كل أنحاء العالم.. وقد أضفت عليه ديكوراته وأثاثاته والبار الإمبراطورى بالطابق العلوى شهرة تفوق الوصف.. وهو فضلاً عن ذلك مطعم فاخر اشتهر بوجباته الشهية.. وبالحفاوة البالغة.. وبأسعاره الباهظة..!

وعندما استيقظنا فى الصباح.. كنا لا نصدق أننا معاً فى مسكن واحد.. وحجرة واحدة.. وفراش واحد.. نتمرغ فى واحة من المتعة اللانهائية.

بعدها.. أفقت قليلاً وأدركت ما جرى لى.. ومدى المصيبة التى وقعت فيها.. حتى أننى بكيت كثيراً واعتزلت الدراسة والخروج.. وابتعدت عن «سارة» نفسها.

لقد ترنحت سكرى أمام أول تجربة حب.. وسقطت شرقيتى وعذريتى وتقاليدى لتستقر فى الحضيض.. وحاولت أن أهرب من «موشيه».. لكن غباء العاطفة ورجفة الرغبة ولسعات الحب كانت كالسياط تلسعنى وتضرب بأعماقى.

هذا الجسد المدنس هتك عفافه وانتهكت أسراره.. فماذا بعد ذلك..؟!

أفقت إلى حد ما.. إفاقة خفيفة كتلك التى تحدث للمرضى فى غرف العلميات ثم يغيبون بعدها ثانية.

لكن لماذا لم أفق إلى الحد الذى أستطيع تبين نفسى.. واستخراج طاقتى الرافضة من الداخل..؟ ذلك لأن مطاردات «موشيه» الهاتفية.. وفى الجامعة.. والمسكن.. كانت مدعاة لأن أضعف واضعف فلا أجد مقاومة حياله.. بل وأخور استسلاماً ووهناً أمام جيوش العاطفة التى أغلقت شتى المنافذ التى تحول دون فرارى.. حتى حاصرتنى.. وأسرتنى.

* * *

١١ كانون الثانى/ يناير ١٩٦٤:

تعددت لقاءاتنا الحميمة بشكل مستمر حتى صرت عبدة للذة.. والحب.. ولم أعد أدخر وسعاً لإسعاد أول رجل أشعرنى بأنوثتى الطبيعية.. بل وتراجع إحساسى بالندم وتأنيب الضمير.. ولم أعد أفكر فى كنه هذه اللقاءات وهل هى محرمة أو غير محرمة.

ولم أعد أجد تبريراً لكيفية تغلبى على ضميرى ووأد انفعالاته ورفضه.. إذ استطعت «تسكينه» أو بالأصح «تبنيجه» ففقد وظائفه ولم يعد يؤنبنى.

وكيف يؤنبنى بعدما شحنته شحناً بأننى يجب أن أعيش.. وأن أجرب طعم الحياة والحرية.. وأمارس «الحب» بلا أدنى رجفة ندم.. فقد كنت فى أوروبا.. فى بلاد لا تعترف بعذرية الفتاة عندما تبلغ الثامنة عشرة.. وإلا تعد مريضة نفسياً من الواجب أن تذهب للطبيب النفسى..!!

* * *

١٧ نيسان/ أبريل ١٩٦٤:

فاجأنى «موشيه» بأنه انتقل إلى إحدى القواعد العسكرية بالقرب من فيينا حتى يستطيع أن يرانى فى أى وقت..(!!) عند ذلك راودنى الخوف من أن يجىء والدى فجأة فيراه فى فراشى.. فعرضت مخاوفى على «موشيه» الذى طلب تأجيل هذا الأمر لبعد عودتى من «عمان» التى سأسافر إليها بعد عدة أسابيع قليلة.

اقتنعت بوجهة نظره وبقيت فى المسكنا كما أنا.. واتفقنا على ألا يجىء إلىّ فجأة كما اعتاد.. بل كان عليه أن يهاتفنى أولاً قبل مجيئه.. وكنا فى أحيان كثيرة نذهب إلى الفنادق لنمكث سويعات معاً ثم أعود إلى مسكنى بمفردى.

أما «سارة».. فبرغم أنها صديقتى الوحيدة المقربة.. لم أعد أبحث عنها عن جرعات «حب» كما كنت قبل الإلتقاء بـ «موشيه».. بل تحولت علاقتنا إلى صداقة نظيفة.. طبيعية.

لقد كانت تعرف أن «موشيه» يحبنى كما أحبه.. وأنه يجىء فى أحيان كثيرة للمبيت معى.. لكن الحوار معها لم يتطور ليصل إلى ما يدور بينى وبين شقيقها.. وما يحدث بيننا.. لكننى كنت واثقة من أنها تعرف كل شىء.

فماذا يحدث بين شاب وفتاة يحبان بعضهما البعض ويبيتان معاً فى فراش واحد..؟ هل تتصور مثلاً أنهما يتناقشان فى الفن أو أمور الدنيا..؟

ثم إننى قد زهدت فى علاقتى «الخاصة» معها.. ولم أعد تلك الفتاة المهووسة التى تشعر بالحرمان وتطلب الإشباع منها وتطاردها حتى تنفرد بها.

لكل ذلك كانت «سارة» تعرف أن «موشيه» سيطر على عقلى وحواسى وامتلكهما كما امتلك بدنى..! وكنت على ثقة من أن شقيقها لم يخبرها بأى شىء يمس علاقتنا.. فقد كان أكبر من أن يفعل ذلك.. أو يفكر مجرد التفكير فى إخبارها حتى وإن سألته وألحت فى السؤال.

ثم.. لماذا يتحتم علىّ ألا أعترف لسارة بالحقيقة منذ بدايتها وحتى الآن..؟!

وما الضير فيما لو أنها اطلعت على أدق تفاصيل علاقتى الخاصة بشقيقها..؟! إن هذا الأمر لا يشكل أية معضلة.. فعلاقة الشاب بالفتاة فى أوروبا حرية شخصية يقرها القانون وتسمح بها الجماعة للقضاء على العقد النفسية ومظاهر الكبت والعنف.

وأذكر أن صاحبة المنزل أخبرتنى ذات مرة أن صديقة لها لاحظت أن ابنتها ـ وكانت فى السادسة عشرة من عمرها ـ ليس لها صديق.. وأزعجها هذا الأمر بشدة حتى أنها ذهبت بها إلى الطبيب النفسى ليناقش الفتاة ويعرف سبب إحجامها عن إقامة علاقة خاصة سوية بصديق تأنس إليه.

إن الحرية المطلقة هنا فى أوروبا لأمر مفروغ منه.. حرية العمل والرأى والجنس والتعليم وأشياء كثيرة أخرى.. وبرغم ما قد يكون هناك من بعض التجاوزات والسلبيات.. تبقى الحرية الشخصية أحد أبرز صور الحرية التى بلا حدود..!!

* * *

١٤ أيار/ مايو ١٩٦٤:

تركت العمل فى ورشة لعب الأطفال وتفرغت للدراسة والاستذكار.. وكلما اقتربت أيام الامتحانات ازداد قلقى من زيارة مفاجئة لى يقوم بها والدى أو خطيبى.. لذلك فقط طلبت من «موشيه» ألا يزورنى نهائياً فى مسكنى تحسباً لهذا الأمر.. واكتفيا فى الوقت الحاضر باللقاء فى أحد الفنادق على فترات ليست منتظمة حتى أرجع من عمان فأغير السكن ونقيم معاً.

كلما مر يوم ازداد حبّاً وتعلقاً بى.. فقد بدَّل «موشيه» مذاقات حياتى وأترعنى أخرى أروع طعماً وجمالاً.. وكنت إذا هاجمنى هاجس وأتخيل حياتى بدونه.. أصرخ فى داخلى وأكاد أجن.. فالحياة معه وبين أحضانه متعة أخرى لا تعادلها متعة..(!) وبدونه تبدو حياتى قشيبة قفراء بلا نبض ولا حس.. كالموات.

وكثيراً ما كنت أهرع إليه يخنقنى الخوف.. فأسلمه نفسى طواعية بحثاً عن الحنان والحب والارتواء.. ولما أحدثه عما يجول بخاطرى يسخر من ظنونى.. ويردد فى حنان:

- أنت يا «آنى» حبى الكبير.. وسأظل أحبك ما حييت إلى أن أموت.. فالموت هو الشىء الوحيد الذى سيفرق بيننا ويباعد بين جسدينا.. لكن ثقى أن روحى ستظل حينئذٍ هائمة حولك.. تحرسك من كل شر..!

اختصر «موشيه» اسمى إلى «آنى» لسهولته.. وعندما كان ينادينى به كانت حروفه كتموجات موسيقية تعزف أعذب الألحان.. وأقربها إلى نفسى..!

* * *

٢٧ حزيران/ يوليو ١٩٦٤:

برغم توتر الامتحانات وضيق الوقت.. إلا أننى انتهزت فرصة اتصال «موشيه» وطلبت منه أن يحجز غرفة بأحد الفنادق لنقضى سويعات معاً كنت أستشعر مدى حاجتى إليها.

وبعد وقت ليس بالطويل اتصل بى لأوافيه فى فندق «كلا جنفورت».. وتذكرت فى الحال أن والدىَّ سبق لهما أن نزلا بذات الفندق من قبل.. لكن لا بأس.. فهو فندق نظيف وهادئ.. وذهبت إلى هناك يحدونى الأمل فى الاستمتاع بصحبة حبيب العمر الذى طال شوقى إليه.

كانت الحجرة ذات حمام مما يعنى أن «موشيه» دفع مبلغاً أكبر فعرضت عليه مشاركته المبلغ فأبى بشدة.. وغادرنا الفندق وأنا أشرح له ظروف

الامتحانات والمواد التى أخشى حصولى على تقديرات ضعيفة فيها.

وبينما كنا فى طريقنا إلى موقف الباصات.. هاجمنى مغص حاد.. فتألمت.. وجذبنى «موشيه» وسألنى وهو يحملق فى وجهى بقلق واضطراب:

- ماذا بك يا «آنى»..؟

قلت له:

- لا تنزعج يا حبيبى.. فقد جاءتنى «الملعونة».

وبهت.. فالإجابة كانت حاسمة.. وفى الحال نادى على تاكسى فركبت وأغلقت الباب دونه وأنا أقول للسائق:

- شتراوس من فضلك..!!

* * *

٢٧ تموز/ يوليو ١٩٦٤:

كنت قد أرسلت خطاباً لوالدى أخبرته فيه أننى سأنتهى من امتحاناتى السبت ٢١ تموز.. فبعث بخطاب أخبرنى فيه أنه سيجىء ليصطحبنى دون أن تحدد بالضبط متى سيجىء.. ولم أهتم كثيراً بيوم قدومه المجهول لأننى على كل حال لن أستقبل «موشيه» بمسكنى.

وبالأمس، الخميس، كنت على موعد مع «موشيه» بذات الفندق، كلاجنفورت، فخرجت من الامتحان رأساً إليه (!) وعند التاسعة مساء غادرنا الحجرة بعد ثلاث ساعات تقريباً قضيناها بداخلها.

نزلنا درجات السلم بهدوء وأنا متأبطة ذراعه.. وما إن اقترينا من صالة الاستقبال حتى ندت منى صرخة ذعر لا شعورية جاهدت لكتمها.. فيما ارتجف «موشيه» الذى لا يفهم شيئاً البتة.. وانسحب مثلى إلى الخلف وهو يقول فى همس:

- ما الذى أخافك يا «آنى»..؟!

قلت وأنا أكاد أموت هلعاً:

- خطيبى.. خطيبى يا «موشيه».. إنه ذلك الرجل الجالس بمفرده يطالع الجريدة.

وفى الحال تذكرت شيئاً آخر زادنى رعباً.. فقلت له بصوت محبوس مضطرب:

- «موشيه».. إن والدى بلا شك ينتظرنى بمسكنى الآن.. يا لها من مصيبة.

أمسكنى من يدى بقوة وهو يقول:

- تماسكى أرجوك.. لا ترتجفى هكذا وإلا ستسقطين أرضاً.. وسوف أجد حلاً يخرجنا من هنا دون أن يراك أحد.

وقفت مستترة خلف الحاجز الخشبى ذى الثقوب.. بينما ذهب «موشيه».. فتحدث مع موظف الاستقبال لدقيقتين ثم عاد إلىّ مسرعاً وهو يقول:

- سنخرج من هنا حالاً يا «آنى» فلا تنزعجى. ثم أنهما قدما إلى الفندق منذ ساعة واحدة تقريباً.

بالفعل رأيت ابن عمى ينهض من مكانه بعدما تحدث إليه الموظف بكلمات لا يفهمها.. فهو لا يعرف الألمانية.. واتجه فى الحال إلى حجرته بالطابق الثانى دون أن يرانا خلف الحاجز.. فانطلقت إلى خارج الفندق تاركة «موشيه» الذى أدركنى بعدما تحدث إلى الموظف للحظات.. وسألته:

- ماذا قلت للرجل؟

أجاب:

- أعطيته عشرة شلنات وطلبت منه أن يتصرف ويبعد الرجل الجالس بمفرده عن صالة الاستقبال.. حيث أنه مدين لصديقى بمبلغ كبير.. وصديقى هذا عصبى ومتهور ولأنه سيجىء الآن فقد يراه وتقع جريمة قتل فى الفندق.

ضحكت وأنا أشير إلى سيارة التاكسى.. وقذفت نفسى بداخلها وأنا أقول له:

- عد بسرعة إلى الفندق قبلما تقع جريمة القتل..!

وما إن دلفت إلى المسكن حتى وجدت والدى بانتظارى.. فارتميت عليه وأنا أقبل وجنتيه وأردد:

- منذ تسلمت خطابك وأنا بانتظارك.. فما الذى أخَّرك عنى طوال هذه المدة..؟

فلكزنى فى كتفى بحنان وقال:

- وأين كنت حتى الآن يا شقية..؟ هل تبدأ امتحاناتك فى هذا الوقت المتأخر؟

قلت:

- أنهيت امتحاناتى اليوم فى الساعة الرابعة.. وذهبت لإحدى زميلاتى لنراجع معاً بعض المسائل المتعلقة بالاختبار القادم بعد الغد.. لكن.. منذ متى وأنت هنا؟ وهل جئت وحدك..؟!

ضحك وقد لاحت أسنانه البيضاء اللامعة التى يهتم بها كثيراً وقال فى لهجة ذات مغزى:

- أيتها الشقية.. اتطمأنين على خطيبك وكأن وجودى هنا وحدى لا يكفيك.

هتفت فى الحال:

- والله أنا لا اقصد ذلك يا أبى.. ولم يخطر ببالى أن يصلك المعنى بهذا الشكل.

فقال وكانت ابتسامته ما زالت عريضة حانية:

- عموماً أنا لم أجئ بمفردى.. وخطيبك صمم على مرافقتى وهو الآن بالفندق ينتظر على أحر من الجمر.

قلت:

- والله يا أبت لو لم أكن منهكة لجئت معك إلى الفندق لأسلم عليه.. لكننى منذ الأمس لم أذق للنوم طعماً.. وأخشى إن لم أذهب معك أن يغضب ابن عمى ويصور له خياله أننى قد لا أريد رؤيته.. وفى الغد إن شاء الله سنلتقى

وسأعتذر له.

انصرف والدى بشوشاً وهو يشعر بسعادة غامرة.. فابنته بدت مهذبة هذه المرة أكثر وأكثر.. وعندما جاءت من الخارج كانت تحمل كتاباً وأوراقاً مما يدل على أنها كانت تستذكر علومها وتجتهد فى دراستها.

وفى الواقع لم أكن مجهدة لقلة ساعات النوم كما ادعيت.. بل لأننى هُلكت مع «موشيه» الذى اعتصر قواى وخَلّفنى مرهقة متهالكة.. مكسَّرة...!

* * *

٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٤:

خوفاً من أن يتذكرنى موظف الاستقبال.. اتصلت بالفندق صباح أول أمس وتحدثت مع والدى وابن عمى هاتفياً.. وطلبت منهما أن نلتقى بمطعم «ماكسيم» فى الثانية ظهراً لارتباطى بموعد فى الجامعة مع بعض زميلاتى.

أعطيتهما عنوان المطعم وعدت من جديد إلى النوم.. فقد كنت أشعر بإرهاق شديد وكان النوم بالنسبة لى فى ذلك الوقت رغبة ملحة.

وفى الموعد المحدد كنت بالمطعم.. فأبديت سعادة مصطنعة برؤية ابن عمى.. ولم يتركنى أكمل اعتذارى لعدم قدرتى على الذهاب إلى الفندق للترحيب به بالأمس.. حيث بدأ أكثر تفهماً لظروف امتحاناتى وإرهاقى.. وأخبرنى والدى أن السفر إلى عمان سيكون على طائرة الأربعاء ٨ تموز، قبيل منتصف ليل آخر أيام امتحاناتى.

أصبت بغصة ووخز بمؤخرة رأسى..

لكن.. ماذا كان من المفروض أن أفعله سوى الموافقة..؟

وعلى كل.. اعتذرت لهما عن عدم رؤيتهما كل يوم لانشغالى الشديد.. فلم يعترضا بل طلبا منى بذل مزيد من الجهد والتعب للحصول على الماجستير هذا العام.

وعندما اتصل بى «موشيه» بواسطة «سارة».. طلبت منه أن نلتقى فى أسرع وقت قبلما أغادر إلى الأردن.

* * *

٩ تموز/ يوليو ١٩٦٤:

التقيت بموشيه ثلاث مرات حتى أمس بمجرد أن أنهيت امتحاناتى مباشرة.. وعندما عدت إلى مسكنى كان والدى بانتظارى.. فطلبت منه الانتظار قليلاً حتى استحم.. لكنه صاح محتداً متحججاً بضيق الوقت.. وأعددت حقيبتى على عجل وكنت فى غاية الضيق.. فقد سافرت بنجاستى إلى «عمان»..!!

* * *

القسم الحادى عشر

فى الأردن (٦)

«وفى الدار.. لفنا الصمت كما طوانا طوال الطريق من المطار.. ثم دخل والدى حجرته وأغلق الباب.. وتنامى إلى سمعى صوت نحيبه المكتوم وهمهمات أمى.. فأسرعت إلى حجرتى يعضنى الأسى والكدر..!!»

١٥ آب/ أغسطس ١٩٦٤

فى عمان كانت بانتظارى مفاجأة مذهلة.. فابن عمى الذى خطبنى على شرط أن لا يتم الزواج إلا بعدما أفرغ من نيل شهادة الدكتوراه.. تنصل من وعده.. وصمم على عقد قراننا خلال أيام.

أسرت إلى إحدى قريباتى بأن رغبته هذه تأتى خوفاً من تراجعى عندما تظهر النتيجة وأحصل على الماجستير.. وأمسكت بهذا الخيط واستخدمت شتى الحيل لإقناعه بأننى له مهما كانت الظروف.. وأننى لن أعثر على رجل مثله يمتاز بالشهامة والكرم والسخاء ورجاحة العقل.

بهذا الأسلوب وحده استطعت أن أجعله يتراجع عن قراره.. ويوافقنى على ضرورة الانتظار حتى أعود نهائياً من النمسا خلال عامين اثنين.

وأعترف بأننى لم أستخدم أى سلاح أنثوى سوى سلاح العزف على رجولته ونخوته.. مع القليل من الرقة التى كانت مطلوبة لضبط إيقاع الحوار بيننا.

لقد كان خطيبى يعتبر أن عقد القرآن حق من حقوقه التى لا يمكن التفريط فيها.. لكننى بدلاً من إثناءه عن قراره فحسب.. أرغمته على مزيد من التنازلات.. إذ جعلته يجوب عمان بحثاً عن مكان يصلح لإقامة المستشفى المزمع افتتاحه.

وهكذا أخذنى ووالدى فى جولات بشوارع عمان الراقية.. وكنت أضحك ساخرة فى نفسى من مدى لهفته على تحقيق رغبتى هذه، لكن حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا هذا الإصرار من جانب والدى لإتمام زواجنا..؟

لماذا برغم إدراكه بمدى الفروق التى بيننا من حيث السن والتعليم وزواجه من امرأة أخرى لا تنجب؟

ولماذا هذا الصمت من جانب والدتى التى تدعى أنها على علم بكل شىء ووراء كل قرار عائلى..؟

فـمـا هذا الشـىء الذى لأجله اخـتـرت لأكـون زوجـة لابن عـمـى.. فى حـين ستتزوج شقيقتى الصغرى من شاب يقاربها عمراً ويعمل فى مركز مرموق فى روما..؟

ترى.. هل وقع الاختيار علىّ لأكون ضحية ظروف لا أدرى ما هى.. أم هى فاتورة علىّ أن أدفعها لسبب لا أعرفه؟

منذ أيام ظهرت نتائج الامتحانات.. وعلمت أننى نجحت وحصلت على درجة الماجستير.. وكان على الانتظام فى الدراسة والبحث لمدة عامين حتى أحصل على الدكتوراة فى علم النفس المرضى.. ودعوت الله ألا يخذلنى فلا أعود للإقامة هنا ثانية..!!

* * *

١٩ آب/ أغسطس ١٩٦٤:

بالأمس كان حفل زفاف شقيقتى الوحيدة «رقية» على الشاب الوسيم «عبدالله» الذى يعمل دبلوماسيّاً.. حيث يعمل منذ عام تقريباً فى «روما» وسترافقه «رقية» إلى هناك خلال بضعة أيام.

وحسب التقاليد المرعية كان زوج شقيقتى شركسى الأصل أيضاً.. فقد دأب الشراكسة على العمل فى الوظائف المرموقة.. إلى جانب التجارة والسمسرة والانخراط فى القوات المسلحة والسلك الدبلوماسى.. وهى وظائف وأعمال ترفع من شأنهم وتقربهم من السلطة.

ويبدو أن والدى رغبة منه فى التميز اجتماعياً هو الآخر.. وافق على عدم عقد قرانى هذا الصيف حتى لا يحرم الأسرة من شرف حصولى على الدكتوراه.. والافتخار بى وسط مجتمع شركسى يفتقد كثيراً حصول إحدى فتياته على الدكتوراه فى تخصص دقيق مثلى.

هذا ما اعتقدته.. وربما كان ذلك حقيقياً.. فشقيقة زوج «رقية» كانت تعد لدراسات عليا فى الاقتصاد.. وهى الحالة الأقرب التى ينظر والدى إليها ويقارن

بينى وبينها.. وكان يقول بفخر إن دراسة علم الاقتصاد أمر متاح.. بينما الحصول على الدكتوراه فى علم النفسى المرضى حالة غريبة ونادرة فى الشرق الأوسط.. بل ربما تكون غير موجودة أصلاً.

بذلك فقد راهن والدى على تفوقى.. وكان يتمنى أن تحصل «رقية» على أطروحة فى الماجستير فى علم التاريخ الذى درسته بالجامعة.. لكنها لم تحقق أمنيته واكتفت بالليسانس كنهاية لطريقها الدراسى ثم الزواج والبيت والأولاد.

وهاهى تحقق أمنيتها الخاصة التى كانت تسعى إليها..!!

* * *

٢٦ آب/ أغسطس ١٩٦٤:

كان الأمس يوماً مشحوناً بالدموع وألم الفراق.. فقد ودعنا «رقية» فى المطار هى وزوجها.. وللمرة الأولى رأيت والدى يبتسم فى سعادة والدموع تنساب من عينيه.. وبمجرد اختفاء «رقية» بين زحام المسافرين أجهشن بالبكاء فأبكانا جميعاً.. وشعرت لحظتها بأن هذا الرجل يحمل سرّاً كبيراً وخطيراً يخفيه بين ضلوعه.

وفى الدار.. لفنا الصمت كما لفنا طوال الطريق من المطار.. ثم دخل والدى حجرته وأغلق الباب.. وتنامى إلى سمعى صوت نحيبه المكتوم وهمهمات أمى.. فأسرعت إلى حجرتى يعضنى الأسى والكدر.. ولم أدرِ علام كنت أبكى.

أعلى فراق شقيقتى يا ترى..؟

أم على حالى وسقوطى وحياتى المدنسة..؟

وربما على مصير مظلم لست أعلم إلى أين سيأخذنى..؟

فشلت فى قراءة مكنون ذاتى..

لكنى بقيت أبكى وأبكى.. وأبكى..!!

القسم الثانى عشر
فى إيطاليا (١)

«برغم الجمال السحرى الذى بهرنى فى روما وأنا أشاهد آثارها.. لم أنس «موشيه» ولو للحظة واحدة.. ولم يغب طيفه عن خيالى.. إذ كان يلازمنى فى النهار حتى وأنا أقف مبهورة أمام كنوز «روما».. ويطاردنى فى نومى.. فهو جزء من نسيج نفسى يصعب انتزاعه..!!»

٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤

ـ ألغيت سفرك إلى «فيينا» يا «أمينة»..!

كان وقع الخبر الذى جاءنى به أبى كالقنبلة.. ويبدو أنه رأى الشحوب الذى اعترانى فجأة فقال ضاحكاً:

ـ نعم.. ألغيت تذكرة الطائرة إلى «فيينا» واستبدلتها بأخرى.. عمان/ روما ـ روما/ فيينا.

قفزت فرحاً وجريت إليه فعانقته وأنا أكاد أصرخ لفرط السعادة التى انهمرت علىّ فجأة.

كان موعد سفرى إلى «فيينا» قد تقرر يوم الجمعة ١٣ أيلول.. والآن بعد هذا التعديل سأطير أنا ووالدى إلى «روما» الإثنين ٩ أيلول.. فنقضى عدة أيام مع «رقية» قبل سفرى إلى «فيينا».. والجديد أن والدتى كانت سترافقنا إلى «روما» ولن تطير معى من هناك إلى «فيينا» لا هى.. ولا والدى. بل سيطيران وحدهما إلى «عمان»..!

* * *

٩ أيلول/ أغسطس ١٩٦٤:

ركبنا ثلاثتنا طائرة الخطوط الملكية إلى «إزمير» Izmir ثم إلى «روما» مروراً بـ «أثينا».

وفى المطار الذى يقع جنوب شرق المدينة كانت «رقية» وزوجها «عبدالله» بانتظارنا على أحر من الجمر..!

ولما اقتربنا من قلب روما كنا قد مررنا بسور المدينة الذى لا تزال بقاياه قائمة منذ أكثر من ١٧٠٠ عام.. كما رأينا أطلال الحمامات الإمبراطورية.. ومررنا بميدان «سينكو يسنتو»[1] الذى يعد أشهر ميادين «روما» الذى تقع به

(١) وهو ميدان «الخمسمائة».. وأطلق عليه هذا الاسم تخليداً لخمسمائة إيطالى قتلوا فى القرن التاسع عشر خلال إحدى المعارك بأفريقيا.

محطة السكك الحديدية الرئيسية.. ثم عبرنا نهر «التيبر» الذى يجرى بين ضفتين بنيتا بالحجارة.. وتطل على جانبيه العديد من آثار «روما» العريقة.

كانت شقة «رقية» رائعة وواسعة تطل على نهر «التيبر» الذى يخترق المدينة ملتوياً زجراجيّاً كرقم «٤» فى اللغة العربية.. وبرغم جمال العاصمة الإيطالية وعراقتها إلا أن زحام السيارات بشوارعها كان مروعاً وبشعاً لدرجة لا تطاق.. حتى إن المشى أحياناً يكون أسرع من حركة المواصلات خاصة أوقات الذروة الأربعة[١].

الشيء الغريب.. أن «يوليوس قيصر»[٢] نفسه قد حظر سير العربات أثناء النهار تلافياً للزحام عندما كانت روما محدودة المساحة وقتها.. ولكنها تضج بالعربات الخشبية التى تجرها الخيول.

وبالرغم من أننى قرأت كثيراً عن روما قبيل سفرنا إليها.. إلا أنها كانت أروع وأبهى.. وإن كانت شديدة الزحام خلال شهرى آب وأيلول عكس ما جاء بالنشرات السياحية.

وعن نشأة مدينة روما.. قرأت عدة روايات أسطورية.. فهناك أسطورة تقول أن «رومولوس» Romulus وضع مع توأمه «ريموس» Remus فى سلة وألقى بهما فى النهر بواسطة عم أمهما الذى أراد التخلص منهما.. واستقرت السلة على عند «تل بالاتين» أحد التلال السبعة المحيطة بمدينة «روما».

وتضيف الأسطورة أن «ذئبة» قامت بإرضاع التوأمين.. فى حين قدم لهما طائر نقار الخشب الطعام.. وأخيراً رعتهما زوجة أحد الرعاة.. ولما اشتد ساعداهما أنشأ بلدة فى الموقع الذى شبا فيه.. واتسعت القرية وكبرت وكانت نواة مدينة روما الحالية.

(١) وهى الذهاب إلى الأعمال.. ثم العودة لتناول الغداء بعد انتهاء فترة العمل الأولى.. فالعودة إلى العمل فترة ثانية ثم الرجوع إلى البيت مساءً.

(٢) لم يكن قد اتخذ لنفسه لقب ملك أو إمبراطور.. إلا أنه قد استولى على كل السلطات.. وقبلما يعلن قيام الملكية فى روما، اغتيل بضربات الخنجر سنة ٤٤ ق.م.

هناك أيضاً أسطورة أخرى تقول أن «أينياس» Aenias الطروادى الذى هرب من طروادة بعد هدمها.. اتخذ طريقه صوب إيطاليا.. وصادف خلال رحلته من الأهوال ما صادف حتى وصل إلى مبتغاه.. واختار موقعه حيث أقام مدينة «روما» من عدة قرى متقاربة.

وهذه الأسطورة جاءت تفاصيلها فى «إنيادة فرجيليوس».

ويبدو أن أسطورة «رومولوس» اعتبرها التاريخ الرومانى حقيقة واقعة.. إذ جاء أن أعمال الحفريات عثرت على كوخ «رومولوس» مؤسس «روما».. وهو كوخ مستدير مخروطى السقف بنى من الأغصان والطين.. وأحيط هذا الكوخ بتقديس خاص حتى عصر الإمبراطورية باعتباره نصباً تذكارياً قومياً.

المثير أن الرومانيين بعد محاولات حول تواريخ قديمة تحدد تاريخ تأسيس «روما».. استقر رأيهم على عام ٧٥٣ ق.م.. وهو التاريخ الوحيد الذى تم الاعتراف به رسمياً.. بل وصل بهم الأمر إلى تحديد يوم إنشاء المدينة والذى يقابل الحادى والعشرين من أبريل[1] حسبما جاء فى التقويم اللاتينى.

استمرت «روما» فى النمو والازدهار حتى أصبحت هى القوة الوحيدة فى البحر المتوسط.. وأثناء حكم الإمبراطور «تراجان» امتدت حدود الإمبراطورية الرومانية من اسكتلندا حتى السودان.. ومن شواطئ المحيط الأطلنطى حتى جبال القوقاز.

بيد أن هذا الصعود أخذ فى التراجع شيئاً فشيئاً.. وما أن جاء عام ٤٧٦ حتى كان الجزء الغربى من الإمبراطورية قد انهار تماماً.. وعلى أنقاضه قامت الممالك البربرية التى انبثقت منها أمم أوربا الحديثة.

* * *

(١) تروى الروايات أنه فى ٢١ أبريل ٧٥٣ق.م أضافت قبائل اللاتين قرية جديدة إلى القرى التى أقامتها فوق تل بالاتين.. وأطلق على هذه القرية اسم «روما».. ربما لأن نهر «التيبر» كان يطلق عليه حتى فترة قريبة اسم نهر «الرومون» Rumon.

١١ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤:

بالأمس قمنا بجولة رائعة فى «روما» حيث زرنا تل «بالاتين» Palatine الذى أحيط بجدار ضخم.. وسررت كثيراً وأنا أقف أمام قوانين «سولون» التى نقشت على اثنتا عشرة لوحة من البرونز.. ثم عرضت فى الساحة الرومانية التى تتوسط المدينة.

كذلك زرنا «قوس قنسطنطين» الذى جعل المسيحية دين الدولة وألغى عبارة الأوثان.. واختار «بيزنطة» عاصمة لملكة وسميت بعد ذلك بالقسطنطينية تيمناً باسمه.. وكان المسرح الرومانى «الكولوسيوم» أحد مزارات روما الهامة.

وكان هذا المسرح يستخدم لعروض المصارعين والوحوش.. والتى لازالت عرائنها وممراتها السفلية تحت الملعب حتى اليوم.

وبالرغم من أن أكثر من نصف المسرح قد أزيل فى العصور الوسطى لاستخدام حجارته فى المبانى.. إلا أنه مبنى بالغ الإثارة.

زرنا كذلك مسرح «مارسيللوس» الذى اغتيل يوليوس قيصر بين جدرانه.. وأكمل أوغسطس هذا المسرح وأطلق عليه اسم ابن أخيه «مارسيللوس» Marcellus.

قمنا أيضاً بزيارة تلال «الكابيتول» التى تعد من أقدس الأماكن فى روما حيث كانت معابد «جوبتر» والعديد من الآلهة الأخرى.. وفوق الكابيتول انتصب تمثال الإمبراطور «ماركوس أوريليوس» ممتطياً صهوة جواد صنع من البرونز.. مع آثار لطلاء قديم بالذهب.

وهناك أسطورة تقول بأن الطلاء الذهبى للتمثال سوف يعود للظهور عندما تحل نهاية العالم.

أما اليوم.. فقد زرت قبر «أوغسطس» الذى ضم أفراداً أساسيين فى الأسرة اليوليوسية والكلوديانية.. ووقفت أتأمل روعة الفن المعمارى عند قبر «هادريان» الذى يعرف اليوم باسم «قلعة القديس أنجلو».. وهذا الضريح العظيم

بناه الإمبراطور هادريان لنفسه ولخلفائه.

وعلى حافة نهر التيبر تماماً يقع «مذبح السلام» Ara Pacia الذى شُيد لإحياء ذكرى السلام الذى نشره الإمبراطور «أوغسطس» فى جميع أنحاء العالم الرومانى.. وعلى الحوائط يمكن رؤية صور العائلة الإمبراطورية، حيث أوغسطس» وزوجته «ليفيا» وولى العهد.. وكذلك «جوليا» الابنة التعسة لأوغسطس التى نفيت خارج روما بقرار منه بسبب إفراطها الجنسى.

وهناك أماكن أخرى قرأت عنها ولم يكن الوقت متاحاً لزيارتها أمس.. لذلك انتهزت فرصة الصباح المشمس المعتدل وذهبت لمشاهدة عمود «تراجان» الذى يربو ارتفاعه على الثلاثين متراً وأقيم سنة ١١٣م فى ساحة «تراجان» تخليداً لذكرى انتصارات ذلك الإمبراطور.. وقد زين العمود بالنقوش اللولبية البارزة.

وهو ذات الأسلوب الذى كان عليه عمود «ماركوس أوريليوس» الذى شيد سنة ١٨٠م لتخليد ذكرى انتصاراته عند حدود «الدانوب».

وبعد زيارة حمامات «كاراكالا» وقوس نصر «تيتوس»[١].. انتهت جولة المزارات الأثرية الخارجية.. واكتفيت بزيارة بعض المتاحف فى قلب «روما» إلى جانب بعض القصور والطرق القديمة التى أعاد «موسولينى» افتتاحها.. قررت متحف «ديللى تيرمى» فى ميدان «الجمهورية» حيث روائع الفن المتجسدة فى النسختين الرخاميتين لـ «رامى القرص» من القرن الخامس قبل الميلاد.. ورسومات تفوق الوصف لـ «فينوس» و «مولد فينوس».

ذهبت كذلك إلى طريق «آبيا أنتيكا» أشهر طرق أوروبا.. وهو يبدأ من أمام «الساحة الرومانية» ويمر خلال سيره خلف «حماماة كاركالا».. وتوجد على جانبى الطريق عدة آثار هامة منها كنائس بديعة النقوش.. ومقابر وأقواس.

وبعد جولة مسائية فى أسواق المدينة وشوارعها المضيئة التى يرتادها الزوار

---

(١) ابن الإمبراطور «فسباسيان».. وقد أقيم القوس فى القرن الأول الميلادى تخليداً لذكرى انتصاراتهما كما تشير الكتابة على لوحة بأعلى القوس.

من كل أنحاء العالم.. عدنا إلى المسكن وقد أنهكنا التعب والإرهاق.. واختليت بشقيقتى وسألتها مداعبة:

- هه يا «رقية».. ما أخبار الزواج.. وهل هناك فرقاً كبيراً قبل الزواج وبعده..؟!

فاكتسى وجهها بالاحمرار وقرصتنى وهى تقول:

- ستعرفين كل شىء بنفسك بعدما تتزوجين.

ذكرتنى إجابتها بتلك التضحية التى فرضت علىّ وسأتزوج ابن عمى لأجلها.. ورجعت بفكرى إلى «عمان» ثم سرعان ما ارتد إلى «فيينا» حيث ينتظرنى «موشيه» بشوق وشغف.. وكنت أيضاً أشعر بمدى اشتياقى البالغ إليه ورغبتى فى رؤيته اليوم قبل غد حيث سأطير بمفردى إلى النمسا..!

فرحلة إيطاليا برغم السحر الغالب الذى بهرنى.. لم ينسنى «موشيه» ولو للحظة واحدة.. حتى وأنا أقف مبهورة أمام آثار «روما» وروعتها.. لم يكن طيف حبيبى يغيب عن خيالى.. إذ كان يلازمنى فى غدوى ورواحى.. ويطاردنى فى نومى ويقظتى.. فهو جزء من نسيج نفسى يصعب انتزاعه..!!

* * *

القسم الثالث عشر
فى النمسا (٦)

«فى قرارة نفسى كنت أشعر بتضحيته الكبيرة.. فأردت مكافئته ومنحه كل ما يشتهيه.. إرضاء له وعرفاناً بالحب الذى كان يتعاظم ويتضاعف بفؤادينا يوماً بعد يوم..!!»

١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٤

وصلت إلى «فيينا» فى الثانية ظهراً.. ومن المطار اتصلت بصديقتى «سارة» لأسألها عن «موشيه» فلم أجدها.. وهرعت إلى شقتى الصغيرة فقذفت بحقيبتى وشرعت أبحث عن صديقتى فى جميع الأماكن التى يمكن أن تكون بها.. لكنها كمن اختفت من المدينة إلى مدينة أخرى.. ولم يكن أمامى إلا أن أتصل بها فى «إنسبروك».

جاءنى صوت والدتها ضعيفاً بعيداً وهى تهنئنى بسلامة وصولى.. لكنها لم تدلنى على أى مكان أعثر فيها على ابنتها.. وعند ذلك سألتها عن «موشيه» فأخبرتنى أنه فى عمله كما هو.. وكان يحادثها تليفونيّاً منذ أمس الأول.

عدت ثانية إلى مسكنى أجرجر آلامى ومعاناة الانتظار.. ونمت مكدرة مهمومة سقيمة النفس.. لا أدرى كم من الوقت استغرقت فى النوم عندما أفقت على نقرات خفيفة على بابى.

قفزت إلى الردهة وأنا أشم رائحة «موشيه» من نقر أصابعه.. ولما فتحت الباب كان واقفاً شامخاً منتصباً بزيه الرسمى.. فلم أتمالك نفسى أو انتظر ليدلف إلى الداخل.. بل عانقته عناقاً حارّاً يفيض لوعة واشتياقاً.. فحملنى بيدين قويتين وأغلق الباب وقد تعلقت شفاهنا فى نهم وامتزاج جائعين.

قلت له:

- أحبك يا «موشيه».. أحبك أكثر من نفسى وأهلى ودينى.. آه لو تعلم بمدى معاناتى وأنا بعيدة عنك.. كنت أتلوى حزناً.. وأتجرع مرار الكون فى حلقى.. لكن طيفك لم يفارقنى فى كل حين.. (!).

قبّل أناملى وراحتى وهو يقول:

- لكننى هنا كنت أموت غمّاً وهمّاً.. وأجىء إلى هنا فأطوف حول الدار أتنسم عبيرك.. وأتخيلك فى الشرفة تودعيننى.. لقد حطمنى الانتظار يا «آنى» وتمنيت لو سافرت إليك فى «عمان» فأختطفك.. وأهرب بك إلى آخر بلاد الدنيا.. (!).

سرى الخدر بأوصالى وهمست: حبك..!

فضمنى بقوة.. تلفح عنقى أنافسه فأذوب سكرى وتسرى بأوصالى رجفة سحرية تفكك إرادتى.. وتسلب البقية الباقية من وعى وإدراك.. وعند ذلك مزقت خجلى لا أبتغى إلا رعشة النشوة..!!

* * *

١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤:

منذ أيام انتقلت إلى شقة أخرى تطل على الضفة الجنوبية لنهر «الدانوب» Da-nube الذى يلتحم مع نهر «الراين» فى جنوب ألمانيا.. ويعد أحد أطول أنهار أوروبا.

كان المسكن الجديد يقارب المسكن القديم مساحة.. فهو عبارة عن حمام صغير وحجرة نوم واحدة وردهة يقع المطبخ فى نهايتها.. لكن الجديد هو إقامتى بصفة دائمة مع «موشيه».. وهذا ما كنت أتمناه فى كل حين.. حيث داوم على المبيت معى أربعة أيام فى الأسبوع.. وكانت هذه الأيام بمثابة الحلم بل هى الحلم نفسه.

* * *

٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٤:

بالأمس جاء «موشيه» مبكراً على غير عادته.. فأعددت وجبة خفيفة وبعدما انتهينا منها اقترح أن ننام ساعة أو ساعتين ثم نخرج لتمضية السهرة فى مكان صاخب.. ولما تجاورنا فى الفراش سألنى:

- هل أنت سعيدة معى حقاً يا «آنى»..؟

أجبته بقبلة طويلة بقصد إيصال الإجابة إليه.. ونمنا ملء جفوننا يلفنا الحبور.

وفى أحد كباريهات «فيينا» الشهيرة.. شربنا ورقصنا.. ثم توقفت الفرقة الموسيقية للحظات عند انتصاف الليل.. بعدها عزفت موسيقى عيد الميلاد.. ونظر الجميع فى وجوه بعضهم البعض ليروا من هو الشخص الذى يودع عامه القديم ويستقبل آخر جديداً.. وعند ذلك سحبنى «موشيه» من يدى وخاصرنى فهلل الحاضرون مهنئين.

لقد كان عيد ميلادى الخامس والعشرين الذى كنت قد نسيته.. لكن «موشيه» لم ينسه.. فأعد لى هذه المفاجأة.. وأهدانى خاتماً ذهبياً حفر عليه أول حروف اسمه..!

* * *

١٠ كانون الثانى/ يناير ١٩٦٥:

تواصلت حياتى هنيئة مع «موشيه» لا يخالجنى أى إحساس بالندم أو بالزهق.. فحبيبى كان شديد الحرص على إرضائى وعمل كل ما يبهجنى.

ومنذ شهر ونصف الشهر تمت ترقيته إلى رتبة «نقيب».. وسافرت معه إلى عائلته فى «إنسبروك» حيث احتفلنا هناك بهذه المناسبة.. لكن «موشيه» عندما حدثنى عن رغبته فى الاستقالة والعمل كطيار مدنى.. فرحت وحزنت فى الوقت نفسه.

فرحت لأنه سيترك قيادة الطائرات الحربية الأسرع من الصوت.. وحزنت لأنه سينتقل من بلد إلى آخر فى حالة عمله بإحدى شركات الطيران.. مما سيبعده عنى فأفتقده.. لذلك حاولت إقناعه بألا يترك فيينا لأجل أن أحيا فلا حياة بدونه.. إلا أنه بدأ مهموماً ساهماً شارد الذهن.. وأخيراً صارحنى بأن هناك وظيفة طيار مدنى بانتظاره وقد تضيع منه إذا طال التفكير فى اتخاذ قرار بشأنها.

هكذا انقلبت حياتى رأساً على عقب... وفشلت فى إيجاد تسوية تريح أعصابى المفككة المنهارة.. حتى أننى تكاسلت دراسياً ولم أعد أذهب إلى الجامعة أو إلى مكتبتها حيث أقرأ أو أستعير الكتب والمراجع.

وأخيراً اتخذ «موشيه» قراره بالبقاء كما هو.. فاجتاحت نفسى فرحة عامرة.. وتفرغت طوال الوقت لحبيبى الذى فضَّل أن يظل إلى جوارى رافضاً الوظيفة المدنية المغرية.. وجعلت الأيام الأربعة التى يقضيها معى أروع أيامنا على الإطلاق.. حيث كنا نقضيها فى التنزه وارتشاف جرعات الحب بلا توقف..!

كنت فى قرارة نفسى أشعر بتضحيته الكبيرة.. فأردت أن أكافئه وأمنحه كل ما يشتهيه.. إرضاء له وعرفاناً بالحب الذى كان يتعاظم ويتضاعف بفؤادينا يوماً بعد يوم.. تقودنى خطواتى شيئاً فشيئاً، بعيداً عن الهدف الذى لأجله جئت إلى «فيينا».

٦ أيار/ مايو ١٩٦٥:

وصلتنى على مسكنى القديم رسالة من والدى تسلمتها إحدى جاراتى هناك.. وجاء بها أنه يعرف مدى احتياجى لكل دقيقة للأبحاث والدراسات.. فذلك فهو لن يجىء إلى «فيينا» ليصطحبنى إلى «عمان» حتى لا يشغلنى طيلة الأيام التى كان سيقضيها معى.

فبعثت إليه بالرد قائلة: إننى فعلاً فى حالة انشغال دائم.. حتى إننى ربما لا أسافر إلى «عمان» هذا الصيف لارتباطى بأساتذتى الذين يرعون أبحاثى ويوجهوننى نحو الطريق السليم لنيل الدكتوراه.

أتبعت رسالتى هذه بمكالمة هاتفية أبدى فيها والدى انزعاجه الشديد.. حتى أنه قرر المجىء إلىّ بعد منتصف هذا الشهر وبرفقته والدتى.

أصابنى أنا الانزعاج الشديد لهذا القرار.. وتفهم «موشيه» الأمر واقترح ألا يجىء إلى المسكن بداية من اليوم العاشر من أيار.. فوافقت على طلبه فى الحال نظراً لحالة الاضطراب التى تملكتنى.. على أن يتصل بى هاتفياً عندما يصلا كأستاذ لى فى الجامعة..!

* * *

١٨ أيار/ مايو ١٩٦٥:

بالأمس وصل والدَّى من «عمان» وتساءلا عن سبب انتقالى إلى مسكن آخر.. فأخبرتهما أن المكان هنا أكثر روعة على النهر من شارع «شتراوس» وبنفس القيمة الإيجارية.. وأن علاقتى بجاراتى هناك مازالت قائمة لذلك استلمت إحداهن الرسالة الأخيرة من والدى وهاتفتنى فذهبت لاستلامها.

كنت قبل مجيئهما قد نظَّفت الشقة تماماً وأزلت أية آثار غريبة.. حتى أننى استعنت بعدسة مكبرة لالتقاط أية شعرة سقطت من رأس «موشيه» على الأرض.. وذلك لعلمى أن والدتى «شكاكة» تدقق كثيراً فى كل شىء..!!

ومرت الزيارة التى دامت أربعة أيام بسلام.. ثم طارا إلى «روما» لزيارة «رقية» التى كانت حاملاً..!

القسم الرابع عشر
الهروب إلى الخوف

«هكذا هربت.. فعاشت تتجرع التوتر فى كل لحظة.. وينهشها الخوف بلا رحمة.. وتحولت أيامها إلى كابوس مرعب يخنق فيها البسمة.. ويغرز بأظافره الحادة المستطيلة فى عنقها..!!»

عاشت «أمينة المفتى» فى انحلال كامل مع فتاها اليهودى وقد ضمهما منزل مشترك.. ولم تفق من حياة «العسل» هذه إلا بعد مضى وقت طويل من الطيش والنسيان.. والحرام.. ولما تقدمت برسالتها العلمية التى كتبتها على عجل رفضتها لجنة المناقشة لأسباب كثيرة..

فكيف تتصرف فى مواجهة الأمر..؟

عند ذلك فقط بدأت تفكر فى حياتها التى تعيشها.. وكيف تعيش حياة الزنا والخلاعة مع حبيبها اليهودى الذى لن يحتفظ بها كثيراً على كل حال.. وسيهجرها عند أول فرصة يرتبط فيها بفتاة أخرى.

تملكها الندم.. ولكن أى ندم بعد سنوات من الانحلال..؟ فكرت فى «موشيه» ليس كحبيب هذه المرة.. بل كعاشق مغامر غامرت معه فضاع الوقت بين أحضانه إلى أن يلفظها ويدوسها بقدميه.. ويهرب من كل ما يربطه بها.

أرجعت سبب الفشل الذى هى فيه إلى «موشيه» متناسية كيف كانت البداية فى أول لقاء بينهما فى «إنسبروك».. عندما خرجت معه إلى الغابة.. وعلى المقعد الخلفى لسيارته فقدت أثمن وأعز ما تملك فتاة.

صورت نفسها على أنها البرئية التى ضيعها فتاها وتسبب فى فشلها.. وتوهمت هذه الفكرة حتى استفحلت لديها وانقلب حبها «لموشيه» إلى كراهية شديدة أشعلها اللوم وأذكتها نار الحسرة.

عندئذ بدأت المواجهة بينهما.. اتهمته بأنه السبب فيما هى فيه من ضياع.. ذلك لأنها أحبته حباً مجنوناً رخصت فيه كل الأشياء الثمينة لديها.. وأمام ثورتها بدأ حنوناً عطوفاً.. معترفاً بحبه العارم لها.. مبدياً رغبته فى مساعدتها لتخطى هذه المحنة.

وبعد عدة أيام أخبرها بأن هناك شخصا ما سيقوم بعمل شهادة دكتوراه مزورة والتصديق عليها من الجهات المعنية.. وأنه لدقتها سيصعب كشفها فى عمان، وكان هذا الحل هو آخر ما توقعته.. إذ كانت تفكر فى التقدم بطلب

لتمديد الدراسة لعام آخر.. إلا أن عرض موشيه بدأ يغزو فكرها ويلقى استحساناً منها.

وعندما تسلمت الشهادة المزورة انتابها الذهول لدقتها الفائقة.. فهدأ بالها واستراحت فى أعماقها مما هيأها لأن تتودد لفتاها الذى أهانته وأرهقته.. لكنه كان يقدِّر موقفها لذلك عادت الأمور لطبيعتها.. وبدأت «أمينة» تعد نفسها للسفر إلى «عمان» وكأنما تعود إلى «سجن» طالما كرهته واحتقرته.

لكن ماذا سيحدث لها فى «عمان»..؟!

وكيف تصرفت «الدكتورة أمينة»..؟!

تقول أمينة فى اختصار شديد.. أنها عادت إلى الأردن فى أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦.. فاستقبلها الأهل بحفاوة وفخر.. وطلب منها والدها أن تستعد للزفاف فى أقرب وقت حيث أن خطيبها أعد لها بيت الزوجية ولم يعد أمامها إلا أن تزف فى حفل كبير يناسب مركزها الجديد.. فلم تمانع لكن كل ما طلبته هو إمهالها عدة أسابيع حتى تحصل من وزارة الصحة على ترخيص بمزاولة المهنة والموافقة على المبنى الذى قامت باستئجاره لتحويله إلى مستشفى.

وبينما الإجراءات تسير بشكلها العادى.. وقع خلاف بينها وبين وكيل وزارة الصحة.. فتشكوه إلى الوزير بمعاونة من عمها المسئول فى القصر الملكى.. وتحال الشكوى إلى الشؤون القانونية التى تشك فى تصديقات شهادتها العلمية، فتطلب منها تصديقات جديدة من الجامعة ومن السفارة الأردنية بفيينا.

ونظراً للمفاجآت التى ظهرت فجأة.. تخوفت من انكشاف التزوير وما يصاحب ذلك من فضيحة لها ولأسرتها.. سافرت «أمينة» إلى النمسا بحجة إنجاز أوراقها فى أسرع وقت.. حتى إنها رفضت مصاحبة والدها معها قائلة إن الأمر لن يستغرق أكثر من ثلاثة أيام.

هكذا طارت إلى «فيينا» متخمة بالخوف.. وبأعماقها غضب يفيض كراهية لبلدها.. وقررت ألا تعود إليه ثانية مهما كانت النتائج.

هناك.. أسرعت إلى «موشيه» يعاودها الحنين.. فقامت باستئجار مسكن آخر على الفور.. واتصلت بشقيقتها فى «روما» وقالت لها إنها لن تعود ثانية إلى الأردن وقد توفرت لها فرصة عمل جيدة فى الولايات المتحدة حيث ستسافر خلال أيام. طلبت منها أيضاً إبلاغ والدها ألا يرهق نفسه بالبحث عنها لأنه لن يعثر عليها.

حاولت شقيقتها تهدئتها والتفاهم معها فلم تجد صدى لمحاولاتها.. إذ كانت «أمينة» ثائرة غضبى لا تطيق سماع حتى اسم بلدها.. وأغلقت الخط مع «رقية» بعد أن أوصلت إليها الرسالة المطلوب إيصالها.

ذابت «أمينة» فى الزحام.. متجنبة شتى الأماكن التى يعرفها والدها إذا ما جاء للبحث عنها.. مبتعدة عن محيط منطقة الجامعة أو شارع شتراوس وكذلك مسكنها الأخير المطل على نهر الدانوب.

بواسطة خطاب من الجامعة يفيد بأنها تدرس لنيل درجة الدكتوراة.. تمكنت من تجديد إقامتها فى النمسا.. فى ذات الوقت الذى تم فيه نقل «موشيه» لقرب مدينة «سالزبورج» Salzburg... فانتقلت معه حيث استأجرا مسكناً بالمدينة الواقعة على الحدود الجنوبية الشرقية لألمانيا «الغربية».

لقد رتبت أمورها على أساس أن تظل فى أوروبا مدى الحياة.. غير عابئة بانكسار وطنها العربى بنكسة ١٩٦٧.. بل وكانت تعلق شماتتها فى العرب بلا حرج أو خجل.. حيث زادتها الحرية التى تعيشها كراهية لكل ما هو عربى وما يمت للعرب بصلة.

كانت برغم حياتها المحرمة مع فتاها لا تعبأ سوى به.. ولا تفكر فى دين أو عقيدة أو شرف.. فبدت ساقطة حتى فى نظر نفسها.. وما كان هذا سيغير فى الأمر شيئاً.. فكل ثمين وغال ضاع وانتهى.. ولم تعد تشعر بندم أو حسرة أو ضياع..!

ولما تملكها الضجر من الوحدة والعزلة.. عملت فى مكتب للمحاماة كسكرتيرة وضاربة على الآلة الكاتبة لقاء راتب معقول.. وفكرت بمعاودة الدراسة

من جديد والتقدم لنيل الدكتوراه.. ثم سرعان ما تراجعت خوفاً من أسرتها التى ستبحث عنها لا محالة ويمكن التوصل إليها من خلال ترددها على الجامعة.

ويبدو أن «موشيه» أدرك ما تعانيه من ضجر وخوف فى الوقت نفسه.. فسألها:

ـ هل تشعرين بالندم يا «آنى»..؟!

قالت بدون تردد:

ـ كان من الممكن أن أشعر بالندم لو لم تكن تحبنى.. فحبك هو الشىء الرائع الذى يملأ حياتى ويهز كيانى.

وبين ندف الجليد المتساقطة فى ديسمبر ١٩٦٨.. كانا معاً فى نزهة بالمدينة.. وبينما يعبران جسراً خشبياً قديماً استوقفها فجأة وسألها:

ـ آنى.. أتتزوجيننى..؟

وكأنما نطق بما كانت تتمنى.. ودون أن تفكر أجابت وهى تحتضنه فى عنف:

ـ أوه «موشيه» الحبيب.. نحن زوجان بالفعل يا عزيزى.

وأردفت:

ـ فى أول لقاء لنا وهبتك قلبى وعقلى وجسدى ودينى.. والآن أضحى بوطنى وأهلى وكل شىء من أجلك.. وأبحث دائماً عن كل ثمين لأقدمه لك.. ولو خسرت عمرى..!

قال ملاطفاً:

ـ أريده زواجاً شرعياً يا «آنى».. فى المعبد..!!

أجابته بدهشة:

ـ معبد..؟ أنا لا أفهم يا «موشيه».

رد قائلاً:

- إن إقامتك على وشك الانتهاء يا حبيبتى... وزواجنا سيحميك حيث ستحصلين على الجنسية النمساوية.. وبالتالى فلن يكون لأحد من أهلك سلطة عليك.. و..

قاطعته:

- «موشيه».. ما حكاية المعبد هذه.. أنت لم تجيبنى بعد..؟!

قال:

- لابد من توثيق الزواج فى المعبد لإتمام إجراءات الإقامة.

سألته:

- وهل التوثيق فى المبعد له صلة بكونى مسلمة..؟!

أجاب:

- الزواج فى المعبد يكون لليهود فقط.

ارتجفت «أمينة».. فالإجابة كانت تحمل كل تساؤلاتها.. إذ يجب عليها التخلى عن دينها رسمياً والتحول إلى اليهودية حتى يتوثق الزواج.

وحتى لا يظن شيئاً إذا تأخرت طويلاً فى التفكير.. قالت:

- أنت تعرف يا «موشيه» أننى أحبك أكثر من نفسى.. وقبل أن أذهب معك إلى المعبد أريد أن أسمع منك تأكيداً بأنك لن تتخلى عنى فى يوم من الأيام.. فمعنى ذلك يا «موشيه» أننى أصبحت كشجرة تموت أوراقها وجذورها شيئاً فشيئاً فى انتظار النهاية.. ونهايتى عندئذٍ ستكون الانتحار.. فلا معنى للحياة بدونك يا «موشيه».

ضمها فى حب ووعدها بما أرادت.. فاطمأنت.. وما هى إلا أيام قلائل حتى اعتنقت اليهودية.. وتزوجت من فتاها اليهودى زواجاً رسمياً.. وغيرت اسمها إلى «آنى موشيه بيراد»!!

وبعد هذا الزواج ازداد هلعها.. فقد أدركت مدى الجرم الذى ارتكبته فى حق دينها ووطنها.. لكنها لم تحاول إظهار هذا الهلع حتى لا يؤثر ذلك فى عمل زوجها واستقراره النفسى الذى يحتاجه كقائد لطائرة أسرع من الصوت.

ولما انتقل زوجها إلى قاعدة عسكرية قريبة من فيينا... انتقلت هى الأخرى معه، وعلى أطراف المدينة أقاما بشقة جديدة رائعة.. تمتد من أمامها مساحات الزروع الخضراء الشاسعة.. وتبدو أشجار الغابات من بعيد كرؤوس أشباح تترصد.. وتطارد الخائنة العربية كلما خلت إلى نفسها.

اختارت تلك الشقة بالذات لتكون بعيدة عن أعين المخابرات العربية التى تصورت أنها تسعى إليها وتنقب عنها فى «فيينا».

وبسبب ذلك كرهت الخروج مشياً فى نزهات خلوية بمفردها أو برفقة زوجها.. وسيطرت عليها هواجس الخوف الشديد كلما التفت أحد المارة إلى نافذتها بشكل عفوى.

هكذا عاشت تجرع التوتر فى كل لحظة.. وينهشها الخوف بلا رحمة.. وتحولت أيامها إلى كابوس مرعب يخنق فيها البسمة.. ويغرز بأظافره الحادة المستطيلة فى عنقها.. حتى إنها كثيراً ما كانت تستيقظ فجأة صارخة فزعة مرتجفة.. تتحسس فى سرعة مسدسها المشحون وتصوبه هلوعة إلى كل أركان الغرفة.

ضاعت منها فرصة إكمال أطروحتها فى الجامعة.. وضاعت أيضاً وإلى الأبد رغبتها فى أن تصبح أُمّاً.. فقد أظهرت نتائج التحاليل المختلفة أن هناك عيباً خَلقياً يمنعها من الإنجاب.

برغم ذلك لم يظهر «موشيه» تبرمه.. بقدر ما كان يعمل على إسعادها وإدخال الهناء إلى حياتها.. ولما عرض عليها أن يستقيل ويعمل طياراً مدنياً رفضت بشدة تلك الخطوة.. فغيابه عنها فى هذه الحالة سيطول وستبقى وحدها تقاتل الخوف والاضطراب.. فى حين أنه كان فى ذلك الوقت يقضى معها خمسة ليال من كل أسبوع.

وذات يوم عرض عليها «موشيه» أن تقيم «سارة» معهما.. فعارضت ذلك بمنتهى العنف.. وأخذت تشرح له كيف أن والدها يعرف «سارة».. ويمكن بذلك التوصل إلى الشقة بمراقبة شقيقته واقتفاء تحركاتها.. فهى إذن «الطعم» الذى يمكن اصطيادها بواسطته.

لم يكن زوجها يتخيل مدى يقظة عقلها وتحليلها للأشياء بمثل هذه البراعة.. وقال لها مازحاً:

- من المستحيل على جهاز الاستخبارات فى الأردن التوصل إليك لأنك أذكى من رجاله.

ضحكت وقالت:

- إن عمى الآن جنرالاً فى القصر الملكى.. وهو على صلة وثيقة بأجهزة الأمن هناك وأعتقد أنه لن يتركنى أبداً حتى وإن عشت فى كوخ بدائى على نهر الأمازون.

إننى شركسية يا عزيزى.. والشراكسة أقلية جداً فى الأردن لكنهم يتبوأون مناصب هامة.. وهروبى فى النمسا أمر يضر بمركزهم وبأمنهم.. لذلك فهم يسعون ورائى ولن يتركوا الأمر يمر بسلام.

وأضافت:

- ما يقلقنى أيضاً ويتلف أعصابى أنهم قد يشركون السلطات النمساوية فى عملية البحث عنى.. وعما إذا كنت قد غادرت «فيينا».. أم مازلت أقيم داخل البلاد.. إن وزارة الخارجية الأردنية لن تسكت على كل حال.. فالعملية ستأخذ الخطوات الدبلوماسية الرسمية ليتم تتبع خطواتى من خلال سجلات إدارة الهجرة والتجنس.

ثم تذكر يا عزيزى أن زوج شقيقتى يعمل دبلوماسياً فى روما وله علاقات بالسفارة هنا بالطبع.

أجابها «موشيه»:

- يا عزيزتى هذه الأفكار ستقتلك.. أنت الآن تحملين اسم «آنى موشيه بيراد» فى السجلات الرسمية للدولة.. ومن الصعب أن يتوصل إليك أى مخلوق مهما كان.. فقد قمت بعمل «اللازم» بواسطة علاقاتى والنقود أيضاً.. لإخفاء اسمك الحقيقى.. فليطمئن قلبك إذن..!!

بشكل أو بآخر.. كان «موشيه» قد «تصرف» بما يضمن حصول «آنى» على الأمان الكافى.. وهذا ما كان يحاول إيصاله لها وإقناعها به.

لكنها كانت تعلم تمام العلم أن الخطأ الذى ارتكبته لا يغتفر.. وسيطولها الثأر أينما كانت وفى أى وقت.. ثأر عشيرتها وأهلها وأجهزة الاستخبارات العربية أيضاً.. فدمها قد أهدر على كل حال وأصبح أجلها مرهوناً بمن يتوصل إليها أولاً.

لكل ذلك كرهت الخروج من الشقة ليلاً أو نهاراً.. وتحولت إلى سجينة بإرادتها بين جدران باردة.. تنزف دموعها الملحية بلا انقطاع.. فضلاً عن سجنها الآخر.. المهلك المدمر.. سجن الخوف الذى أبى أن يغادرها حتى وهى فى ذروة لحظاتها الحميمية.. تاركاً بصماته فى كل ما يمس حياتها داخل مسكنها وخارجه.. وهى بمفردها أو فى وجود «موشيه».

وذات مساء شتوى قارس ارتدت البالطو الثقيل والكوفية والطاقية الصوف فبدت بملامح أخرى جديدة.. وخرجت مع «موشيه» للتنزه بسيارته الصغيرة.. وخطر لها أن تتصل تليفونياً بشقيقتها فى «روما».

استغرق الحديث بينهما ثلاث دقائق تقريباً.. أخبرتها أمينة للتمويه أنها تعيش بإحدى دول أمريكا الجنوبية.. وحاولت أن تستشف أية أخبار من «رقية» التى لعنتها لأنها جلبت العار لأهلها.. ثم وضعت السماعة بدون أسف.

لم تحصد «آنى» من هذه المكالمة أية أخبار.. بل حصدت الاحتقار والأسف وباتت ليلتها فى كدر فشل «موشيه» فى إنقاذها وإخراجها منه.

غصباً عنها كانت تحاول إسعاد زوجها بالقدر الذى اعتاده منها برغم

معاناتها القاسية.. فتنجح أحياناً وتفشل فى أحيان أخرى.. وحار عقلها فى إيجاد أى منفذ لوأد الخوف المتوحش المسيطر عليها.

وبعد مرور عدة سنوات تغيرت «آنى» كثيراً.. إذ نحل عودها وغارت وجنتاها بعدما أنهكها الفكر وأخذ يفتك بها شيئاً فشيئاً.. وتذكرت تلك القصة التى تقول إن حطاباً فوجىء بحية بشعة المنظر قطعت عليه الطريق فى الصحراء.. فارتجف هلعاً وروعاً وعرف أنه هالك هالك.. وقال لها:

- اتقتلينني وأنا حطاب ضعيف؟ إن أخى «فِكْر» أقوى منى ويستطيع أن يصرعك بضربة واحدة من يده.

فأطلقته حتى يذهب فيأتى بأخيه بعد أسبوع.. وخلال تلك الأيام أخذت تفكر: ما طول هذا الرجل..؟ وما شكله..؟ ولونه..؟ وهل سيقتلنى فعلاً بضربة يد واحدة..؟ لابد إذن أنه عملاق مخيف مهيب.. و ... إلخ.

كانت قد زهدت الطعام والشراب لكثرة التفكير فى ذلك الرجل المجهول الخارق القوة الذى سيجيئ ليقتلها بيده.. فبدا الذبول يجتاح بدنها حتى أُنهكت قواها وحل بها الضعف الشديد.. وفى الموعد المحدد جاءها الصياد وحده فسألته:

- أين أخوك الذى قلت أنه سيجىء ليقتلنى..؟

قال لها:

- لقد أرسلته لكِ بالفعل.. إنه أخى «فِكْر» الذى أصابك بالضعف..!!

ثم ضربها فقتلها.

وارتعبت «أمينة/ آنى».. فهى هالكة هالكة لا محالة إذا ما استمرت على حالها هكذا.. ونشط عقلها يعمل ويحلل ويفكر فى كيفية التعايش.. وجلب الأمن والأمان والاستقرار النفسى.

وفى صيف سنة ١٩٧٢ قرأت إعلاناً بإحدى الصحف.. تطلب فيه إسرائيل من يهود أوروبا الهجرة إلى «أرض الميعاد».. وكان الإعلان مغرياً جداً حيث

سيمنح أصحاب التخصصات والكفاءات الفنية الدقيقة مزايا عديدة من حيث الإقامة التى ستكون فى فيلا مستقلة.. ومرتبات عالية و... إلخ..!

ابتهجت «أمينة/ آنى» واتصلت بالسفارة الإسرائيلية للاستفسار ومعرفة تفاصيل أكثر.. ولما أُجيب عن أسئلتها تملكها شعور بالاطمئنان وتصورت أنها عثرت على الحل المثالى للقضاء على معاناتها.. وأخذت تعد العدة لمفاتحة زوجها وإقناعه بفكرة الهجرة التى راقت لها.

ففى هذه الحالة لن تتمكن المخابرات العربية من التوصل إليها.. وستودع عند ذلك الخوف إلى الأبد.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى ستحصل و «موشيه» على جواز سفر إسرائيلى... وفيلا... ووظائف مرموقة.

بيد أن موشيه لم يقتنع بكلام زوجته ولهفتها على الهجرة.. وعارض الفكرة تماماً عندما قرأ الإعلان.. إذ كان يعرف أن إسرائيل والعرب فى حالة حرب مسلحة.. ما إن تهدأ حتى تشتعل طالما هناك أراضٍ عربية مغتصبة ومحتلة.. وشعوباً عربية تكره إسرائيل وممارساتها.. ودولٌ الجوار تعد جيوشها للانقضاض عليها.

وأمام رفضه لتحقيق أمنيتها فى العيش آمنة.. اشتد حزنها وذبولها.. وانزوت تجرع الخوف وتنزف الدموع.. إلى أن لان «موشيه» وأشفق عليها مشقة البكاء والألم.. فتقدم بأوراقه إلى سفارة إسرائيل فقبلتها على الفور ودون مناقشة.. وعند ذلك قدم استقالته.. وفى غضون عدة أشهر كانا يطيران إلى «تل أبيب» بطائرة «العال» الإسرائيلية.

كان ذلك فى آخر تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٧٢.. حيث تحير «موشيه» عندما استقبلت «آنى» استقبالاً رائعاً فى مطار اللد.. فقد ظن لأول وهلة أن زوجته إما أن تكون شخصية مرموقة ومعروفة فى «عمان».. أو أنها فنانة إسرائيلية مشهورة..!!

القسم الخامس عشر
فى إسرائيل (١)

«ها أنا الآن أجرع الألم وألوك المعاناة.. مات موشيه وتركنى وحدى فى بلاد غريبة.. غريبة.. فقد كان هو وطنى وملاذى.. لكن غبائى هو الذى قاده إلى مصيره المهلك وعجل بنهايته فى إسرائيل..»

٢٧ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٧٢

كنت فى غاية اللهفة لمغادرة النمسا إلى إسرائيل.. فهناك الأمان الذى أنشده وأبحث عنه.. وكلما اقترب الموعد حسبما يقولون لنا فى السفارة أزداد حبوراً وإقبالاً على الحياة.. فبدأت أتناول طعامى بشهية وأنام ملء جفونى.. كما عادت إلى وجهى نضارته التى افتقدها طوال سنوات رعب وهلع.

أما «موشيه» الذى كان قد استقال وتأهب للهجرة إرضاءً لى برغم معارضة والديه وإلحاحهما فى ألا يترك النمسا.. فقد رأى تبدل حالى وسره كثيراً أن يدخل السرور إلى قلبى بهذه الخطوة الجريئة التى طالما عارضها وأبدى امتعاضه منها.

وفى ١٩ تشرين الثانى طرت و «موشيه» إلى «تل أبيب» بعدما أغلقنا شقتنا فى «فيينا».. وفى المطار عندما وصلنا استقبلنى بحفاوة رجال لا أعرفهم.. فدهش زوجى وسألنى بلتقائية عما إذا كانت قد زرت إسرائيل من قبل..؟ وبدأ متشككاً بل وتصور أننى شخصية مشهورة جداً دون أن يعرف.

أخذتنا السيارة إلى مدينة «ريشون لتسيون» Rishon Le Ziyyon الواقعة على مسافة خمسة عشر كيلو متراً تقريباً جنوبى العاصمة.. وحسبما قال أحد مرافقينا إن هذه المدينة الجميلة كانت أول مستوطنة يهودية أنشئت فى فلسطين سنة ١٨٨٢ بواسطة المهاجرين الأولين الذين جاءوا إلى هذه الأرض.

نزلنا بشقة صغيرة لكنها كانت رائعة وأثاثها جديد وحديث.. والمثير أننى وجدت بالثلاجة أنواعا عديدة من الجبن والمياه الغازية والمأكولات الأخرى.. وعرفت أنهم وضعوا لنا هذه الأشياء ليريحونا من عملية البحث والاختيار ومشاكل اللغة والنقود.. بل إنهم تركوا لنا ألف شيكل لتصريف أمورنا السريعة فى المدينة.

وبعد ثلاثة أيام جاءنا أحد هؤلاء الذين كانوا بانتظارنا فى المطار.. وأخذنا بسيارته إلى بناية فى «تل أبيب» تتكون من ستة طوابق وتحيطها حديقة ضيقة..

استقبلنا شخص آخر أخذ «موشيه» إلى أحد المكاتب.. بينما أدخلونى إلى مكتب فى نهاية الممر.

كان المكتب الأنيق خالياً من أى شخص.. وجلست أنتظر من سيجىء ليتحدث معى.

جاء عامل البوفيه وفى أثره دخل أحد الأشخاص ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة فطلب لى عصيراً.. وصافحنى بحرارة بينما كان العامل ينصرف.. وقال فى ود:

ـ مرحباً بك فى وطنك سيدة «أمينة».

ثم ضحك برقة وهو يضيف:

ـ أم تحبين أن أناديك بالسيدة «آنى».

لم أدر بماذا أجيبه.. وتملكنى الحرج فقلت له:

ـ نادنى بأى منهما يا سيد.

ـ يعقوب.. يعقوب سنوفسكى.

حملق فى وجهى بتركيز شديد ثم سألنى:

ـ أعرف أنك تجيدين الألمانية.. فسنوات إقامتك فى النمسا كفيلة بأن تجعلك تكتبين شعراً بها.. لكننى أفضل أن نتكلم معاً بالعربية.. فهل لديك مانع سيدتى؟

قلت:

ـ أبداً.. كما تحب.

ـ أنت كما خيل لى مهذبة جداً وشديدة الذكاء.. ووجودك هنا الآن ليس بنية التحدث معك عن أى شىء يتصل بحياتك من قبل... إنما أن مكلف يا سيدتى بالترحيب بك نيابة عن رؤسائى وتلبية طلباتك.. كل طلباتك.. لتأكيد مدى

حرص إسرائيل على راحة أبنائها الجدد الذين ضحوا بالكثير لأجل ارتقاء هذه الدولة وحفاظها على قوتها بين جيران يتربصون بها.

إن حكومة إسرائيل تتوجه إليك سيدة «آنى» بكل الشكر والثناء والعرفان لمدى اهتمامكم.. وبليغ حبكم ورغبتكم فى العيش هنا على هذه الأرض المقدسة.. وحسبما أكد لكم المسئولون فى سفارتنا فى «فيينا».. فستعمل على إسعادكم وتوفير حياة هانئة مطمئنة لكم.

بعد ذلك سلمنى مظروفاً به اثنتا عشره ورقة مطلوب منى الإجابة تفصيلياً عمها بها من أسئلة واستفسارات تتصل بحياتى فى «عمان» من حيث الأهل والأقارب ووظائف كل منهم ومدخولاتهم التقريبية.

وفى صفحات تالية كانت الأسئلة تتصل بى شخصياً وعن آرائى فى الأمور السياسية التى تعيشها المنطقة... والمشكلة الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى.. وكان هناك اهتمام خاص باعتقاداتى ونظرتى لإسرائيل والصورة التى كان لدى عنها.. ومما تكونت هذه الصورة وكيف انطبعت بفكرى وثقافتى.

أستطيع أن أقول إن تلك الأوراق حوت عشرات الأسئلة بما فيها كيفية التعارف بينى وبين زوجى.. وكيف كانت الخطوات نحو الزواج.. ومن الذى اقترح ذلك.. ومدى تقبلى للأمر.

كانت هناك أسئلة تحتاج إجابة محددة أكثر عمقاً ووضوحاً.. كتلك الأسئلة التى تستفسر عما تمثله إسرائيل بوجدانى كفتاة عربية.. وعن مشاعرى تجاه الأردن.. ورأى الشارع الأردنى فى الفلسطينيين الذين يمثلون نسبة كبيرة من الشعب هناك.

لقد أجبت بكل صراحة ووضوح عما جاء بالأسئلة.. واعترفت بأننى أكره الفلسطينيين ومنظمة التحرير وكل المنظمات الفلسطينية الأخرى.. وكان على الملك حسين أن يبيد كل هؤلاء بلا شفقة.. فهم يكرهون الأقلية الشركسية فى الأردن.. لذلك قصفور دورهم.. وأتلفوا ممتلكاتهم فى عمان ظناً منهم أن عمها -

اللواء بالبلاط الملكى - كان أحد المحرضين لاشتعال أحداث/ أيلول/ سبتمبر ١٩٧١[١].. بل واتهموه فى الصحف العربية واللبنانية خاصة، بأنه أحد مرتكبيها!.

---

(١) اشتهرت هذه الأحداث باسم (أيلول الأسود)، يقول صلاح خلف (أبو إياد) فى مذكراته (فلسطينى بلا هوية) عن دار الجيل - الأردن ١٩٩٦: دقت معركة جرش وعجلون ناقوس نهاية المقاومة الفلسطينية فى الأردن، فعلى مدى الأيام الخمسة الممتدة بين ١٢ إلى ١٧ تموز/ يوليو ١٩٧١ راح نحو ثلاثة آلاف فدائى متحصنين فى الغابات والهضاب المكسوة بالأشجار فى هاتين الناحيتين الواقعتين فى شمال المملكة يقاتلون حتى الطلقة الأخيرة ضد الجيش الأردنى، ومن الصحيح أن سلوكنا لم يكن فى غاية الانضباط، فبرغم أننا كنا نسعى وراء الحصول على دعم كافة السكان إلا أننا كنا نتحو منحى إهمال الأردن الأصيل لصالح الفلسطينيين، ثم إن الفدائيين الذين كانوا فخورين بقوتهم كثيراً، ما أظهروا شعوراً بالتفوق، وأحياناً بالغطرسة والأخطر، هو موقفهم من الجيش الأردنى، وأسمعنى رئيس الوزراء الأردنى تسجيلاً لخطاب ألقاه مسئول فلسطينى كان لا يهاجم الملك فحسب، وإنما أفراد أسرته أيضاً، وكان الخطاب من البذاءة بحيث إننى لم أطق الإصغاء للتسجيل حتى نهايته، وكان ممثلو بعض المنظمات الفدائية لا يترددون فى بعض اجتماعاتهم مع الملك، فى أن يستشيطوا غضباً ويضربوا الطاولة بقبضتهم، وازدهرت الشعارات اليسارية ووزعت صور لينين فى شوارع عمان وحتى داخل المساجد، والدعوة إلى الثورة وإقامة نظام اشتراكى.

وفى آب/ أغسطس وبينما كان الجيش الأردنى يدك مراكز المقاومة ذهبنا لمقابلة عبد الناصر، ياسر عرفات وقدومى وأنا وآخرون. وفى ٦ أيلول/ سبتمبر اختطفت الجبهة الشعبية أربع طائرات وقادتها إلى مدرج هبوط فى الأردن بعد أن أسمته «مطار الثورة» معلنة بذلك تحدياً جديداً للملك، وعمت المعارك شمال الأردن حيث راحت المدفعية الأردنية تقصف مكاتبنا قصفاً منظماً.. وكان علينا أن نرد وأن نسرع فى الرد.. والغريب أن العراق كان يحرضنا على الاستيلاء على السلطة «نظموا محاولة انقلاب وستدعمكم القوات العراقية المرابطة فى الأردن لقلب النظام وإقامة سلطة شعبية».. وكان فى مشروعهم أن تحتل هذه الوحدات إربد والزرقاء فى الشمال.. بينما يستولى الفدائيون على عمان.

وفى ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧١ تشكلت حكومة حرب كل أعضائها من العسكريين.. وشنت قوات الجيش الأردنى هجوماً عاماً ضد الفدائيين واحتلت مقر قيادة «فتح» العسكرية العامة فى جبل الحسين.. وتحصن عرفات بجبل اللويبدة بينما تم اعتقالى أنا وقدومى وإبراهيم بكر وأبو غربية ثم أخذنا إلى القصر الملكى وجاء الملك حسين ليرحب بنا.. وعانقنى الملك بحرارة وقال لى بلهجة اللائم: «أنت راض عن المأساة التى نعيشها..؟».

فى ذلك الوقت كان هناك مؤتمر للجامعة العربية فى القاهرة.. ووافق الملك حسين على أن يطلق سراح أصحابى الثلاثة.. وفى ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٧١ غداة توقيع اتفاق وقف إطلاق النار بين الملك حسين وياسر عرفات.. مات جمال عبد الناصر.. الرجل الذى أنقذنا.

أما عن الأسئلة التى كانت تتعلق بإسرائيل وعما تمثله بالنسبة إلى، فقلت بلا مواربة أننى كنت أكره إسرائيل كسائر العرب.. وطوال مرحلة الدراسة بالأردن كان لدى شعور بعمق هذه الكراهية.. هكذا تربينا وتعلمنا وكبرنا وتثقفنا على ذلك وكان صعباً تغيير الأمر.

أما عندما عشت فى النمسا واختلطت باليهود.. فقد زايلنى أى شعور

= عند ذلك قررنا تعزيز قواعدنا فى لبنان كما وكيفاً للعودة إلى شن الهجمات الفدائية ضد إسرائيل انطلاقاً من الجنوب.

وعن وصف مذابح أيلول الأسود يقول ياسر عرفات: «وثائق حرب أكتوبر لموسى صبرى ـ المكتب المصرى الحديث ـ الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٥»، فى اجتماع الرؤساء والملوك العرب بالقاهرة مساء ٢٥ سبتمبر ١٩٧١: خلينا نقول هؤلاء الفدائيين خونة مجرمين.. لكن ما ذنب مخيم الوحدات «فى عمان»؟ لم أستطع أن أمشى أكثر من مائة متر فى المخيم.. لأن روائح الجثث فى الشوارع وتحت الأنقاض ما فيش حد يدفنها.. حيث ندفنها قالوا لى حرام.. مافيش ماء فى الأحياء الشعبية إطلاقاً.. حتى سمعت أن السفارات مافيهاش ماء أيضاً. أكل مافيش.. حتى الأدوية لم تصل إلى مستشفياتنا إطلاقاً.. اليوم دكوا مستشفى الأشرفية.. واستطاع شبابنا أن يعطلوا الدبابات.. ثم لجأ الأردنيون إلى حيلة: وضعوا أطفالاً فوق الدبابات واقتحموا المستشفى وأخذوا الممرضات والأطباء.. وأنا أعرف أين ستبيت الممرضات الليلة.. لأن «عمان» استبيحت كما تستباح المدن فى القرون الوسطى، ماذا فعلنا لهذا الشعب منذ عام ١٩٤٨؟ وما ذنبه فيما يجرى له..؟ هل نخون..؟ نروح نتفق مع أمريكا ونأخذ حماية منها..؟ نروح نتفق مع إسرائيل «وهنا بكى عرفات».. وأردف: أناشدكم أنتم مسئولون عن الأمة.. هذا الرجل غرق فى الدم.. وإذا تراجع فهو قد أدين.. إنه لا يستطيع أن يتراجع.. سوف يكمل المذبحة. هذا الرجل الدموى لا يوقفه بيان.. إسرائيل فتحت جسورها لاستقبال جرحانا.

فيقول عرفات: هذا الملك حاربنا بالدبابات، قال إننا مجرمون خونة مرتبطون بإسرائيل.. لدى المقاومة إثباتات أنه يجتمع مع الإسرائيليين، لقد طلب منا الملك بإنذار تسليم سلاحنا.. ثم حدثت المذبحة، لقد استباحوا دمنا ولا يزالون وحتى أمس (٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٧١) باعترافهم ١٤ ألف قتيل فلسطينى، و٢٥ ألف جريح والله أعلم، البعض لا يزال تحت الأنقاض، أخو الملك قال والوفد العبرى سمع ذلك، أن أسرته جاءت إلى هذه الأرض وهى خلاء وستتركها كذلك، ولسنوات طويلة حفرت ذكرى مذبحة «أيلول الأسود» فى أذهان الفلسطينيين.. حتى أنهم أسسوا منظمة تحمل هذا الاسم تتبع حركة فتح.. كان قائدها العسكرى الفدائى «على حسن سلامة» الذى قام بعمليات خارقة بموافقة عرفات سراً واستنكاره العلنى فى وسائل الإعلام.. وهو الفدائى الذى طاردته إسرائيل فى طول الأرض وعرضها للانتقام منه وتصفيته!!

بالكراهية.. بل بالعكس كنت على وئام معهم وحب.. بدليل أننى أحببت «موشيه» وشجعته على الهجرة لإسرائيل.. فإسرائيل تشكل لدى الآن الوطن الأول الذى لا وطن بعده..!!

أخضع «موشيه» لاستجوابات مطولة.. بعضها خاص بعلاقتنا كزوجين وكيفية التعارف والالتقاء العاطفى.. وبعضها الآخر كان يتعلق بعمله كطيار لاستبيان مدى كفاءته من خلال الدورات الفنية التى حصل عليها.. ولأنهم فى إسرائيل كانوا بحاجة إلى أمثاله.. فقد تعددت اللقاءات به.. ثم أخذوه إلى أحد المعامل المتخصصة لمناظرة خبراته.. وإعداده كطيار سيتم إلحاقه بسلاح الجو.. وكان أهم ما يميز «موشيه» أنه طيار أعد فى بلاده وأنفق عليه الكثير والكثير.. وها هو الآن ينخرط فى سلاح الجو دون أن يكلف إسرائيل شيئاً يذكر.

* * *

١٥ كانون الثانى/ يناير ١٩٧٣:

نقلنا منذ نحو ثلاثة أسابيع إلى فيلا رائعة فى «ريشون لتسيون» بنيت من الخشب على طراز بيوت الريف الإنجليزى.. كان الطابق الأول يتألف من ريسبشن مؤثث ومطبخ فسيح.. وفى الدور العلوى حجرتان للنوم، منها واحدة للأولاد، وشرفة زينت بأصص من الفخار للزهور، وكانت الطاقة الشمسية المركبة ألواح خلاياها فوق السطح تقوم بعملية تسخين المياه فى الحمامين العلوى والسفلى إلى جانب المطبخ.

وفى الوقت الذى كنا نتعلم فيه اللغة العبرية من خلال معلمة جىء بها إلينا، كان «موشيه» يذهب للتدريب بقاعدة «عكير» الجوية القريبة.. وكان يذهب أحياناً إلى مطار «حاتسور» العسكرى الواقع إلى الجنوب من المدينة قرب الشاطئ..!

ومنذ ستة أيام احتفلنا بامتلاك سيارة مرسيدس هدية من الحكومة الإسرائيلية.. وتسلمنا كذلك جوازى سفر إسرائيليين وسحبت منا جوازات

سفرنا النمساوية.. وقال أحد موفدى الحكومة مهنئاً، إننا أصبحنا إسرائيليين رسمياً بداية من هذه اللحظة.

كان «موشيه» قد أخبرنى بأنه أخضع لتدريبات مختلفة لقيادة الطائرة الأمريكية «سكاى هوك» Sky Hawk.. وهى قاذفة هجومية خفيفة ذات مقعد واحد.. لكنه كان يتدرب على طائرة تدريب طراز A - 4H التى يمكن استخدامها أيضاً خزانات وقود طائرة لتزويد الطائرات الأخرى فى الجو.. وكان ذلك لإعداده لقيادة الطائرة القاذفة الهجومية طراز A - 4 التى تحمل الاسم الكودى TA - 4H الأسرع من الصوت حيث تربو سرعتها على ٦٤٩ ميل/ ساعة (١٠٤٤كم/ ساعة).

أخبرنى أيضاً أنه سيتغيب بضعة أيام عن المنزل لسفره إلى قاعدة «رامات دافيد» الجوية أقصى شمال إسرائيل.. ليطير قريباً من الحدود اللبنانية والسورية كتدريب لأنه ربما يتمركز فى تلك القاعدة.. ولما سألته: لماذا شمال إسرائيل بالذات.. ألا يوجد له مكان فى «حاتسور» أو «عكير»..؟ أجابنى بأن أمور التنقلات هذه لا تخضع للأسئلة لأنها سياسة عسكرية واستراتيجيات تكنيكية ليس للطيارين الحق فى مناقشتها أو مجرد طرح سؤال استفسارى.

وسافر موشيه إلى عمله الجديد فى «رامات دافيد» وعاد مساء الأمس يضج بالحنين إلىّ وإلى البيت.. وأخذ يساعدنى فى إعداد العشاء وهو يسألنى عن الأيام التى مرت علىّ بدونه.. وكيف قضيتها..؟

وبعد تناول الطعام أبدى رغبته فى الاستحمام.. وما أن انتهيت من إعداد الحمام وتعطير ماء البانيو كما يحب.. حتى وجدته يغط فى نوم عميق..!

بلا شك كان عمله مضنياً ومرهقاً.. فقد كان إلى جانب التدريبات المرهقة يتعلم اللغة العبرية على يد أحد المتخصصين.. لكنه كان يمتلك عزيمة قوية وثباتاً يفوق الوصف.. ولم يكن من السهل أن يظهر تبرمه أو زهقه.. فقيادة الطائرة متعة عنده لا تدانيها متعة أخرى.. أما تعلم لغة جديدة عليه وهو فى

هذه السن.. فهذا هو الشيء الممل الذى كان يكرهه ولا يستسيغه أبداً.

عندئذ ظهر دورى كزوجة وحبيبة.. وبكل ما لدى من ملكة الإقناع والحب والدلال شجعته لأن يحب العبرية ويسعى بإخلاص لتعلمها.. فهى اللغة الأساسية للوطن الجديد الذى صرنا جزءاً من نسيجه.. حتى يمكننا التكيف مع الجيران والزملاء والأصدقاء فى محيط العمل والبيت.

فوعدنى.. وكان لا يخلف لى وعداً أبداً..!!

* * *

٢٣ كانون الثانى/ يناير ١٩٧٣:

فى الصباح الباكر جاءت سيارة فخمة يقودها جندى من سلاح الجو.. وبعد عناق طويل وصامت ودعنى «موشيه» ومضى.. ومن النافذة رأيت الجندى يؤدى له التحية العسكرية فيدلف «موشيه» ببزته الرسمية إلى المقعد الخلفى.. ثم يرفع رأسه ليلمحنى.. فيبتسم ويمد يده من النافذة مودعاً.. وأبقى مكانى أتتبع السيارة حتى تذوب بعيداً كالشبح.

هذه المرة كان «موشيه» مختلفاً تمام الاختلاف.. فقد تبلورت ثقافته وأدرك طبيعة الجيش الإسرائيلى.. وقال لى إنه منذ انتصار عام ١٩٦٧ أصبح الجنرالات هم أبطال إسرائيل الجدد.. وصاروا شيئاً فشيئاً محط عبادة الشخصية البارزة.

قال لى أيضاً:

- إن التصلب الأخلاقى الذى ابتلى الحياة الإسرائيلية بعد ١٩٦٧ لم يستثن الجيش.. فبالإطراء.. وشرب النبيذ.. والموائد.. بدأ الجنرالات يستغلون رتبهم.. فيأكلون فى أفضل المطاعم على حساب وزارة الدفاع.. ويبرزون ذوقاً جديداً باهظ التكاليف فى الملبس والسيارات.. ويسمحون لسائقيهم بخدمة عائلاتهم[1].

---

(١) ناتالى راين: المرأة اليهودية، ترجمة د. سهام منصور، مكتبة مدبولى ١٩٨٧.

٢٩ كانون الثانى/ يناير ١٩٧٣:

استيقظت فى السادسة صباحاً على جرس التليفون الذى كان إلى جوار فراشى.. كنت أعرف أنه زوجى الحبيب الذى طالما طلبنى فى مثل هذا الوقت المبكر.

رفعت سماعة الهاتف فسمعت طرقعة قبلة حنونة وجاءنى صوته المنغم:

ـ صباح الخير يا أرق امرأة.. وأحن زوجة.

قَبَّلته أولاً وأنا أتنهد وقلت:

ـ أحبك يا «موشيه».

أجابنى:

ـ ليس أكثر من حبى لكِ.

وسمعت جلبة إلى جانبه وأصوات غير واضحة فقلت:

ـ هل ستطير الآن يا حبيبى..؟

قال فى لهجة استعجال وأسف:

ـ نعم يا حبيبتى.. نعم.. ستكونين برفقتى دائماً فى كل مكان.. سأعاود الاتصال بك لاحقاً.

ثم سكت هنيهة وجاءنى صوته:

ـ أحبك يا «آنى»..

ويبدو أن هناك من كان يستعجله.. لأنه أغلق الخط قبلما أرد عليه مودعة!

ظل عقلى فى حالة استيقاظ لبعض الوقت.. ثم أرغمنى البرد الشديد على الزحف تحت الغطاء ألتمس الدفء.. ونمت.

وعند العاشرة إلا ربعاً كنت قد تناولت فطورى وأعددت الشاى وجلست أنتظر معلمة اللغة العبرية التى كانت تجيئنى فى العاشرة وخمس دقائق.. هكذا كانت دقيقة فى موعدها إلى حد مذهل.

لكن هذه المرة قبل موعدها بعشر دقائق سمعت وقع أقدامها على سلم الفيلا الخشبى ثم صوت الجرس.. فتعجبت لأمرها.. ولما فتحت الباب رأيت رجلاً عرفته فى الحال.. إنه يعقوب سنوفسكى الرجل الذى استقبلنى بمكتبه وسلمنى مظروفاً به عدة ورقات لأجيب على الأسئلة التى بها.

اضطربت برغم ابتسامة الرجل الباهتة الغامضة.. إنه أحد رجال الأمن والاستخبارات.. فلماذا جاءنى هذه الساعة المبكرة..؟

وأى أمر خطير دعاه للمجىء..؟

أفسحت له الطريق وأنا أمد يداً مرتجفة وأحملق فى عينيه علنى أقف على مكنون سره.. وقبلما أغلق الباب لمحت فتاة تسرع الخطى باتجاهى.. ثم ألقت بالتحية فى هدوء ودخلت أيضاً.

جلست قبالتهما كالمنومة تلاحق نظراتى عيونهما.. وأخيراً نطق يعقوب بصعوبة:

- سيدة «آنى».. أعرف أنك تريدين أن نطلعك فوراً على ما جئنا إليك بشأنه فى مثل هذا الوقت.. لكن..

لكن قبلما نطلعك على هذا الأمر.. لابد أن نذكرك بأن دولتنا محاطة بالأعداء الذين يتربصون بنا منذ هزيمتهم فى عام ١٩٦٧.. وعليك أن تعرفى أيضاً أن إسرائيل منذ استقلت فى ١٩٤٨.. ضحَّت بالآلاف من شبابها.. ومازالت تضحى حتى اليوم وستضحى لسنوات طويلة قادمة بخيرة شبابها فى سبيل نهضتها والزود عنها ممن يحاولون ويسعون لتدميرها.

سيدتى المبجلة.. لن تتخلى عنك إسرائيل يوماً ولن تخذلك مهما كانت النتائج.. فأنت ما جئت إلينا إلا لثقتك فى قدرتنا على توفير الأمن والأمان لكِ.. وهذا ما سيكون وما ستتأكدين منه.

تصورت فى البداية أنه جاء للترحيب بى.. ولأننى امرأة وحيدة بالمنزل فقد اصطحب معه تلك الفتاة أو السيدة التى لم يعرفنى بها.

لكن الحقيقة كانت أقسى وأمر مما كنت أتخيل.. إنها كارثة بحق قضت على أحلامى وأمنياتى.. ودمرتنى.

* * *

لم تصدق أمينة الخبر.. ففى ٢٩ كانون الثانى/ يناير بعدما حادثها تليفونياً وأرسل لها قبلة عبر الأثير.. طار فى أول طلعة استطلاع له يرافقه طيار بطائرة أخرى.. وبالقرب من الحدود السورية انحرف زميله بطائرته.. فيما انطلق «موشيه» وهو لا يفهم نداءات وصيحات زميله عبر اللاسلكى.. ولما اجتاز الأجواء السورية أسقطه السوريون بصواريخ أرض/ جو.. واعتبر مفقوداً منذ تلك اللحظة لأن دمشق لم تعلن رسمياً عن أسر الطيار الإسرائيلى كما يحدث فى العادة.. لكنها أعلنت عن قصفها لطائرة سكاى هوك اخترقت مجالها الجوى فانفجرت فى الجو وقائدها بداخلها.

ولأيام طويلة خلت.. ظلت أمينة تصرخ صرخات هستيرية لا تتوقف إلا لمعاودة الصراخ والتشنج من جديد.. وفى مستشفى «كوبات حوليم هستدروت» للأعصاب فى «ريشون لتسيون» احتبس صوتها.. أو لنقل أن صدمة الفاجعة ألجمت لسانها فصمتت، وهى حالة تم تشخيصها على أنها «هوس الاكتئاب» Manic- depressive الناتج عن موقف شدة الحزن Saddening stress مثل فقد عزيز أو صدمة أو نحوها مما يكون الغم المؤلم استجابته الطبيعية المتعمقة بمرور الوقت.

وهذا النوع من الاستجابة العصابية.. تعجل به الهموم ولا يظهر إلا فى ذوات الاستعدادات العصابية من الشخصيات التى تتميز بمشاعر الدونية In- feriority وشدة الحساسية.. والخوف من قسوة الحياة أو ظلم العالم[1].

والهوس الاكتئابى لا يؤدى بأى حال إلى الجنل Dementia فالمصابون به أكثرهم أشداء وناجحون.. وبعضهم تقدم ذبذبات حالتهم المزاجية على الصراعات الداخلية التى تتفاعل وتثور داخلهم.. وتكون الهلوسات Hallucina- tions أحد أعراض هذه الحالة.

(١) د. كمال دسوقى (مصدر سبق ذكره).

خصوصاً النوع المسمى منها Auditory.. فالمريض يسمع الشخص الذى يحبه وكأنه يهمس فى أذنه بحنان، وهناك أيضاً «التوهمات» Delusions حيث تصل مبالغة المريض فى تقديره لنفسه لدرجة توهمات العظمة.. فقد يعتبر نفسه عبقريا يحارب الفساد وينتصر على الأعداء الذين يكرهم.. وفى أحيان أخرى يميل إلى اعتبار نفسه عبئاً على المجتمع.. وبالتالى فقد يفكر فى الانتحار.. أو الإنتقام ممن ظلموه.. ويكون ذلك مدعاة لتنامى استجابات «سوداء اليأس».. وشدة الكراهية للمجتمع والناس عامة.

* * *

بعد شهر ونصف الشهر من الصمت والذهول.. أفاقت «آنى داوود» وتكلمت.. كانت تنادى على «موشيه» فى خفوت وكأنها لم تستوعب ما جرى له.. ثم نطقت أخيراً عندما زارها نفر من رجال «الموساد» للاطمئنان عليها.. وقالت بأنها تتشكك فى البيان السورى الذى أذيع بعد إسقاط الطائرة.. ثم أخذت تفند الوقائع وتحلل رؤيتها للحادث... مؤكدة أن «موشيه» مايزال حياً ومتخفياً بين الحشائش والمغارات فى منطقة الجولان الجبلية.. فهو طيار ماهر وقدراته الفنية عالية جداً.. حتى إنه لم يرتكب أى خطأ طوال عمله فى النمسا.

وفى منزلها ـ وكانت برفقتها إحدى الإخصائيات النفسيات ـ كانت «آنى» تحدث نفسها نهاراً بصوت مسموع أحياناً.. وفى الليل يصدر عنها أنين خافت ملىء بالوجع.. هو مزيج متهالك من مشاعر الحسرة والندم والوحدة والضياع.

وقالت ذات مرة لمرافقتها الإسرائيلية المغربية المولد.. إنها لا تفكر فى الانتحار ولن تفكر فيه أبداً.. فأمامها رسالة هامة عليها أن تؤديها مهما كانت النتائج.. رسالة البحث عن زوجها الذى يزورها فى المنام يستغيث بها أن تنقذه.

لقد صبت جام غضبها على العرب الذين أرهقوا أعصابها فى الأردن.. وطاردوها فى النمسا.. وضيعوا حلمها فى الاستقرار بإسرائيل.. إنهم كما أوهمت نفسها.. آفة مستقبلها المظلم.. وسبب نكبتها وفجيعتها فى زوجها الشاعرى

الحنون.. لذلك تضاعفت كراهيتها للعرب.. وتمنت لو أنها تستطيع الانتقام.

فهاهى وحيدة بائسة بين أناس لا تعرفهم.. وبل وتجهل لغتهم وطقوسهم ونظم حياتهم.. وعمداً تناست أنها هى التى دفعت بحياتها فى مقامرة خاسرة إلى مستنقع الهاوية.. فأحبت ذلك الشاب اليهودى وتزوجت منه.. ثم دفعته للهجرة إلى إسرائيل خوفاً من انتقام المخابرات العربية.. وسعت قدر جهدها إلى الدفع به إلى مصير مجهول.. مماثل لمصيرها.

* * *

٢٢ آذار/ مارس ١٩٧٣:

ها أنا الآن أجرع الألم وألوك المعاناة..

مات «موشيه» وتركنى وحدى فى بلاد غريبة.. غريبة.. فقد كان هو وطنى وملاذى وحائط الأمان الذى يحمينى حتى من نفسى! لكن غبائى هو الذى قاده إلى مصيره المهلك.. وعجل بنهايته.

فلو لم ألح عليه لنهاجر إلى إسرائيل.

ولو لم يكن يحبنى لما وافقنى على ذلك.. فقد ترك أسرته ووطنه ومراتع ذكرياته.. واختارنى أنا.. اختار أن يكون إلى جوارى فى أى مكان من العالم.

لقد كنت السبب فى مجيئه إلى إسرائيل.. ومقتله.. وإن كنت أشك فى ذلك لأن لا رفات له ولا خبر.. وكزوجة مخلصة علىّ أن أتحرك للبحث عنه.. وتلقط الأخبار التى ترشدنى إليه.

رجال الأمن فى إسرائيل.. أو رجال الموساد.. وافقوا أخيراً على الطلب الذى قدمته للسلطات.. للسماح لى بالسفر إلى دمشق وبيروت لتقصى أخبار «موشيه».

ولماذا لا يوافقوا؟

إن مهمتى انتهت بمقتل موشيه ولم تعد لى «قيمة» تذكر فى إسرائيل.. أصبحت «كارتاً محروقاً» لا فائدة من ورائه.. لذلك وافقوا على سفرى بدون

اعتراض.. أو حتى توصيات بما يجب أن أفعله هناك لتقصى أخبار «موشيه».

كانت «سارة» ووالدها قد جاءوا من «فيينا» بعد الحادث بأيام وقد أصابهم جميعاً الذهول وخيمت عليهم الصدمة.. وعندما جاءوا لزيارتى بالمستشفى لمحت فى عيونهم نظرات العتاب واللوم.. فجميعهم كانوا لا يوافقوننا على الهجرة لإسرائيل نظراً للظروف التى تمر بها المنطقة بعد ١٩٦٧.. إلا أنه كان قد رتب أموره وتجهز للهجرة لكى يحمينى من شياطين خوفى.

ولا أنكر أن والده كان قد اقترح علينا الهجرة إلى إحدى دول أمريكا الجنوبية بعد التنقل من عدة مطارات للتمويه.. إلا أننى عارضت ذلك بقوة.. فالمخابرات العربية تتواجد فى كل مكان على سطح الأرض وسيتم التوصل إلينا فى أى وقت.

هكذا قدت «موشيه» إلى نهايته.. غصباً عنى.. فلو أننى كنت قد وافقت على الهجرة لمكان آخر.. أو لم أتزوج منه أصلاً.. لما تطورت الأمور إلى هذا الحد.

وخطر ببالى فجأة أن أتصل بشقيقتى «رقية» فى روما.. ربما أعرف منها أخباراً تفيدنى فى خطواتى القادمة.. وعندما سمعت صوتى أغلقت الهاتف فى وجهى كالعادة.. ولما عاودت الاتصال وقد علا صوت نشيجى رفعت السماعة لكنها ظلت صامتة.. وكنت أسمع صوت أنفاسها.. ثم قالت:

- أرجوك.. دعينى أعيش مستقرة مع زوجى.. إنه يعيرنى بك.. وقد تفسد حياتى الزوجية بسببك.

قلت لها فى رجاء:

- أريد نصيحتك يا أختاه.. ماذا أتصرف.. وهل من الممكن أن أعود إلى «عمان» مرة ثانية..؟

لم أكن بالطبع أريد العودة إلى «عمان».. إنما كان سؤالى لها لكى أستشف من الرد ما أبغى الوصول إليه.

قالت «رقية» محذرة:

- مستحيل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها.. فأنت وضعت رؤوسنا فى الوحل.. مستحيل يا «أمينة» أن يغفر لك أحد فعلتك وهربك فى أوروبا.. إن تصرف كهذا لدليل على اعوجاجك وسوء تربيتك.. وكان أبسط شىء هو أن يتبرأ منك والدى إلى الأبد.

قلت لها بنية معرفة المزيد:

- حاولى يا «رقية».. حاولى أن تكونى همزة وصل بينى وبين الأسرة.. هل أعطيك رقم تليفونى لتحادثينى عندما تكونين بمفردك..؟

وجاءنى ردها حاسماً:

- لقد أقسمت ألا أتصل بك مطلقاً.. بناء على رغبة زوجى.. وأنصحك بألا تتصلى بوالدك لأنه مريض بسببك.. فقد تنتج عن اتصالك به عواقب وخيمة هو فى غنى عنها.

ألححت عليها أن تفعل أى شىء لأجلى.. وسأعاود الاتصال بها فى وقت لاحق.. لكنها قالت بإصرار أنها لن تفعل شيئاً.. ونصحتنى بالاتصال بابن عمها «خطيبى» أو بعمى «اللواء» إذا كنت جادة ولدى رغبة فى إصلاح ما تم كسره.

ثم عادت بعد لحظات صمت لتقول لى:

- وأنصحك ألا تتصلى بعمك أو بخطيبك.. هذا لمصلحتك يا «أمينة» ولا تسألينى عن السبب.

وأضافت:

- هذا آخر ما عندى لك.. لعلك تعودين إلى رشدك ذات يوم.. لكن برجاء ألا تطلبى هذا الرقم ثانية حفاظاً على بيتى..!!

* * *

٢٥ آذار/ مارس ١٩٧٣:

كنت قد سجلت المكالمة الهاتفية مع «رقية».. وأدرت الشريط عشرات المرات لأحلل ما جاء به.. ولو أن شقيقتى كانت صريحة معى كل الصراحة لاتضحت أمور هامة.. ومذهلة:

- لا أحد يعرف مكانى بالضبط أو زواجى من يهودى وهجرتى لإسرائيل.

- إنهم يعتقدون أننى مازلت فى «النمسا» أو ذهبت لأعيش بإحدى دول أوروبا رافضة العودة إلى «الأردن».

- نصيحتها لى بالاتصال بعمى أو بخطيبى تدل على أن لا أحد فى عمان يعرف قصة زواجى من يهودى وارتدادى عن الإسلام.

- لكن لماذا طلبت منى بإخلاص عدم الاتصال بهما «حفاظاً على مصلحتى».

ترى ماذا كانت تقصد بهذا الطلب بالذات..؟

لقد كانت نبرات صوتها مختلفة وهى تقول ذلك.. نبرات «رقية» الأخت الوحيدة التى تحذر أختها بلهجة خوف.

فممَّ كانت تخاف يا ترى..؟

عموماً كان ذلك يحيرنى إلى حد ما.. لكن الاستنتاجات الأخرى التى توصلت إليها كانت مدهشة ومريحة.. ولما صارحت رجال الأمن الذين كانوا يزورونني بشكل دائم وأسمعتهم الشريط.. وافقونى على ما توصلت إليه..!

القسم السادس عشر
في النمسا (٧)

«لا أريدك أن تكذبى لأجلى.. قـــولى لهم الحقيقة التى حدثتك بها.. وسبب هروبى من عـائلتى ومن أوروبا كلها.. ومـدى حـبى وشـوقى لعـائلتى إلا أننى لن أجـرؤ على التحدث إليهم هاتفياً ..!!»

٧ نيسان/ أبريل ١٩٧٣:

منذ أسبوع وصلت إلى «فيينا» بجواز سفرى الإسرائيلى.. وعندما دخلت شقتى هاجمتنى الذكريات وحاصرتنى.. ووقفت باكية إنظر إلى صورة «موشيه» الكبيرة المعلقة إلى الحائط.. ولم أتحمل المكوث بالشقة لعدة ساعات.. حيث تركت أغراضى وركبت أول حافلة أقلتنى إلى «إنسبروك».

هناك وجدت «سارة» بالصدفة.. واستقبلتنى أسرة «موشيه» بفتور.. لكن بعد عدة أيام معهم ذاب الجليد وتعاملوا معى بترحاب يغلفه الحب.. وكانت «سارة» أحد أسباب هذا التقارب الذى حدث بيننا.. خاصة عندما علموا بأننى سأسافر إلى دمشق وبيروت للبحث عن «موشيه» وتقصى أية أخبار عنه.

عدت إلى الشقة من جديد وطوال الليل كنت أبكى بحرقة ولوعة.. ففى كل ركن بها هناك ذكريات رائعة.. وأخذت ألثم المقاعد والستائر والوسائد.. وأدفن وجهى فى ملابس «موشيه» المعلقة بالخزانة.. حتى أننى كنت أطوف بين الحجرتين أناديه هامسة كما كنت أفعل.. وأتحسس كتبه وأسطواناته وأحذيته.. وجواربه.

قد يقال إننى امرأة ملتاعة جُنَّت.. امرأة لفظتها أرجوحة الثمالة إلى جب الهاوية.. فدوت صرخاتها تتردد فى الأعماق لهفى إلى الضياء والأمان.. ويبث الصدى فى شقوقه ألم الإنسان وظلمه لنفسه.

وفى الصباح جاءتنى «سارة» لتجدنى فى أسوأ حال.. شبح امرأة أنهكها الأسى ودهمها الألم.. فعانقتنى وهى تغالب بكاءً مرّاً على وشك أن يجتاحها.. وقالت:

ـ كنت على ثقة بما ستفعلينه بنفسك.. لذلك غادرت «إيسنبروك» فى وقت متأخر من الليل لألحق بك فى الصباح.

هدأت جوانحى وحجزت تذكرة طائرة إلى دمشق وأنا أمنى نفسى بنجاح رحلتى.. وقبلما أغادر «فيينا» عرضتُ على «سارة» فكرة كانت قد راودتنى..

وهى معاودة دراستى العليا لنيل درجة الدكتوراه.. لكنها لم توافقنى على خطوتى هذه لأنه من السهل حينئذٍ معرفة خطواتى.. وقد يحاول أحد من عائلتى التعرض لى.

وعندما فكرت بما قالته وجدته معقولاً.. فطردت الفكرة من رأسى وسكتُّ لأن لا حل آخر لدى غير ذلك.

وحدث أن اتصلت بصاحبة البيت الذى كنت أقيم بإحدى شققه فى شارع «شتراوس».. وما إن عرَّفتها بنفسى إلا وصاحت فى دهشة غير مصدقة:

ـ أمينة..؟ من أين تتحدثين..؟

ـ من هنا.. من «فيينا».. إننى على وشك السفر بالبر إلى «ميونيخ» بعد بضع ساعات.

ـ هل تعيشين فى ميونيخ الآن..؟

ـ لا.. إننى أعيش فى «ريو دى جانيرو».. وسأذهب إلى «ميونيخ» لزيارة صديقة لى مريضة.. وبعدها سأطير إلى «البرازيل».. لكن هل لديك أية أخبار لى..؟!

ـ أخبار..؟ إنها أخبار قديمة ربما لا تهمك الآن..!

ـ أرجو أن تطلعينى على أى شىء يخصنى.. إننى بحاجة ماسة إلى معرفة ما حدث.. أرجوك.

ـ هل تصالحت مع أسرتك يا ابنتى..؟ لقد جاء والدك أربع مرات للسؤال عنك وكان معه أحد الموظفين بالسفارة.. وفى كل مرة كان يلح فى معرفة أية أخبار عنك.. لكننى أقسمت لهما أننى لا أعرف شيئاً عنك منذ أن تركت المسكن إلى مكان آخر لا أعرفه.. وفى إحدى المرات جاء والدك ومعه والدتك وخطيبك.. وفشلوا فى الوقوف على أية معلومات تتعلق بمكانك.. فماذا جرى يا ابنتى..؟

ـ أبداً.. الأمر يتعلق بخطبتى لرجل كبير السن من أقربائى لا أحبه.. وأظنك

قد لاحظت ورأيت بنفسك أنه يقارب أبى سناً.. لكنها عادات الشرق التى تفرض علىّ الزواج منه برغم عدم حصوله إلا على الشهادة الابتدائية.

بإيجاز شديد لقد تمردت على عادات بالية تظلم المرأة ونبزها أقل حقوقها فى اختيار الزوج المناسب لها.. فهل أخطأت..؟

- كان عليك أن تتفاهمى مع والدك.. فمن الواضح أنه رجل متفتح ومتمدين.. وأن تشركى والدتك فيما تفكرين فيه وترينه صحيحاً.. كذلك كان عليك أن تجلسى مع خطيبك هذا وتفصحى له عن آرائك فينسحب من طريقك بهدوء.

- صدقينى لقد فعلت كل ذلك حتى أننى هددت بالانتحار.. بلا فائدة.. لذلك فكرت بالهرب من الأردن ومن النمسا أيضاً.. بل ومن قارة أوروبا إلى أقصى جنوب شرق البرازيل.. فهل تتصورين أننى سعيدة لهذا التصرف..؟ بالقطع لا.. لقد كان بودى أن يعاملنى والدى كإنسانة ذات كيان وشخصية مثقفة.. لا أن يعتبرنى طفلة لا رأى لها.. إن أختى الصغرى تزوجت من دبلوماسى وهى أقل منى فى التعليم.. أما أنا.. ربما لأننى كنت دائماً مطيعة لا أخالف له أمراً.. أراد أن يزوجنى لقريبى لارتباطهما معاً بأعمال تجارية.

لكن لا.. إن الفتاة المطيعة كبرت وتعلمت فى جامعة «فيينا» وكانت على وشك أن تتقدم بأطروحتها فى الدكتوراه.. وكان من الصعب عند ذلك التعامل معها بذات الأسلوب القديم.

فهل أخطأت عندما طالبت باحترام رأيى فى اختيار شريك حياتى..!؟

- وهل تزوجت الآن يا ابنتى..؟

- أبداً.. إننى أعيش بمفردى هادئة البال.. ربما يغفر لى والدى «جريمة» هروبى هذه ويغض الطرف عما حدث.. وأعتقد أن ذلك لن يحدث إلا إذا عرف عن قناعة أنه كان على خطأ..!

ـ اتصلى به يا ابنتى.. ذكريه بالأشياء التى غرسها فيك منذ صغرك.. وكونى هادئة مقنعة بلا انفعال.. وساعتئذٍ سيغير رأيه وربما يسافر إليك فى البرازيل لمصالحتك.

وقبل أن أنسى أحب أن أقول لكِ أن موظفاً بالسفارة دائم التردد للسؤال عنك.. فهل تريدين أن أخبره بأمر مكالمتك هذه وأنك تعيشين فى «ريو دى جانيرو» Rio de Janeiro؟! أم ماذا أفعل..؟

ـ لا أريدك أن تكذبى بسببى.. فأنت سيدة مهذبة لا ذنب لكِ فيما يحدث.. فإن جاءك أحدكم لتقصى أخبارى.. فقولى له كل ما لديك من أخبار عنى.. قولى الحقيقة التى حدثتك بها وسبب هروبى من هنا إلى البرازيل.. ومدى حبى وشوقى لعائلتى إلا أننى لن أجرؤ على التحدث إليهم هاتفياً لأن الهاتف سيحمل إلىَّ لعناتهم التى لا أريد سماعها.. فأعصابى باتت هشة سيئة ولم تعد تتحمل إهانات أو غيره.

قولى لمن يجيئك منهم يا سيدتى إننى أعيش بمفردى.. عذراء.. ولدى فيلا جميلة.. وعمل محترم.. وعندى ثلاثة خدم يقومون على راحتى مع زوجاتهم.

قولى لهم أيضاً أننى لن أعود إلى الأردن حتى وإن مت.. فقد اخترت طريقى ولم يعد من السهل تغيير المسار.

ـ أتمنى لك يا ابنتى حياة موفقة.. فقد كنت دائماً مثال البنت المجتهدة التى لا يشغلها شىء سوى العلم..!

* * *

القسم السابع عشر
في سوريا ولبنان (١)

«وعندما عدت إلى بيرت.. كنت قد اتخذت قراراً بألا أعود إلى «دمشق» مرة ثانية.. فالمخابرات السورية كانت ترصد كل شيء وتراقب الوافدين إلى البلاد، ولم أكن مستعدة لتحمل نتائج مغامرة قد تقودني إلى الهلاك في دولة المخابرات..!!»

١٢ نيسان/ أبريل ١٩٧٣[١]:

منذ أن وطأت قدماى أرض مطار «دمشق» الاثنين ٩ نيسان.. وقد خالجنى شعور بالخوف.. فإلى جانب التدقيق معى فى الجوازات بالمطار.. كانت هناك نظرات فاحصة تكاد تخترق أعماقى.

لازمنى هذا الشعور حتى وأنا أخطو أولى خطواتى فى فندق «الشرق» أسأل عن حجرة.. ولم أستطع التغلب على هذا الخوف فى أى مكان كنت أذهب إليه.. فى الأسواق الشعبية والمتاجر.. وفى الشوارع والمقاهى.

كانت «دمشق» تموج بعشرات المرشدين ورجال الأمن والمخابرات.. فى ذلك الوقت لم أكن غبية حتى أتصور أن ما أراه شيئاً طبيعياً لا غبار عليه.. بيد أن الحس الأمنى لدى كان قوياً.. لدرجة أننى كنت أقرأ نظرات المارة وأتأمل وجوههم.. وأكاد أشم رائحة الشك التى تحيط بكل غريب يزور سوريا لأول مرة.

دولة المخابرات هذه أرعبتنى.. لذلك قمت بعدة زيارات سياحية للغوطة وللمسجد الأموى فى دمشق.. وحرصت على زيارة ساحة «المرجة».. والتمعن فى كل شبر منها.. ففى هذه الساحة بالذات يتم إعدام الخونة والجواسيس شنقاً على مرأى من الجماهير.. وأشهر من أعدموا بها كان جاسوس الموساد «إيلياهو كوهين[٢] المشهور باسم «إيلى».

---

(١) لم يكن لأمينة المفتى أى دور فى عملية فردان التى نفذت مساء العاشر من أبريل ١٩٧٣ وأسفرت عن مقتل ثلاثة من كبار الزعماء الفلسطينيين: كمال عدوان، وكمال ناصر، ويوسف النجار (انظر الجزء الثانى من كتابنا: حراس الهيكل ـ الاغتيالات، عن أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى بالقاهرة).

(٢) ولد بالإسكندرية لأب يهودى جاء من حلب.. وفى عام ١٩٥٦ هاجر إلى إسرائيل بعدما انخرط فى عدة عمليات ضد مصر واعتقل فى «فضيحة لافون» لكن تم تبرئته.

وفى إسرائيل انضم إلى المخابرات العسكرية «أمان».. ثم عمل فى «الموساد» حيث تم تدريبه وإرساله إلى الأرجنتين فى مارس ١٩٦١ بعد عمل التغطية اللازمة لشخصيته الجديدة «كامل أمين ثابت»، وفى يناير ١٩٦٢ وصل إلى سوريا يحمل العديد من الرسائل والتوصيات لبعض الأشخاص السوريين.

ومن خلال هؤلاء الأشخاص تعرف ببعض رجالات المجتمع.. منهم أحد العاملين بإذاعة دمشق.. وملازم أول بالقوات المسلحة يمت بصلة قرابة لرئيس الأركان.. كذلك تعرف إيلى كوهين على =

وعندما غادرت عاصمة الأمويين إلى «بيروت» غمرتنى راحة ما بعدها راحة.. وقلت فى نفسى إن «لبنان» دولة متحررة منفتحة تعيش أزهى عصورها.. ولأنها تعتمد على السياحة كدخل قومى.. فالمعاملة هناك تختلف ويشهد بذلك كل من يزورونها.

فعندما وصلت إلى مطار بيروت الدولى لمست بنفسى حفاوة الاستقبال بداية من الحمال والسائق وموظف الجوازات.. وأخذت أتأمل المطار من الداخل حيث اصطفت الطائرات.. وقلت فى نفسى: هنا قصفت إسرائيل المطار ودمرت جميع الطائرات المدنية العربية الرابضة على أرض المطار[1].. وكان عددها ثلاث عشرة طائرة.

١٥ نيسان/ أبريل ١٩٧٣:

وصلت الأربعاء ١١ نيسان إلى بيروت.. طلبت من السائق أن يأخذنى لأحد الفنادق العادية.. فذهب بى إلى شارع «الحمراء» أشهر الشوارع العربية.. ومساءً

= العديد من الفتيات والسيدات.. كان يصطحب بعضهن إلى شقته ويتركها لأصحابه أحياناً لقضاء وقت ممتع مع صديقاتهم.. وفى تلك الفترة أمد إسرائيل بمعلومات عسكرية استمدها من الملازم أول.. وفى يناير ١٩٦٥ اعتقل فى دمشق لأسباب عديدة أثيرت من حوله.. واستغلت إسرائيل ذلك وقامت بدعاية إعلامية بقصد الإفراج عنه أو تخفيف الحكم.. وتوسطت حكومات وشخصيات عالمية لأجل هذا الغرض.. لكن لا فائدة.. وفى مايو ١٩٦٥ أعدم شنقاً بساحة «المرجة» وأبقيت جثته مدلاة لأربعة أيام كما تقول بعض المصادر.. وحتى صدور هذا الكتاب لا تزال جثته فى سوريا رغم مطالبة إسرائيل بها وصرخات زوجته «ناديا» العراقية الأصل عبر وسائل الإعلام العالمية..!!

(١) فى ٢٦ ديسمبر عام ١٩٦٨ هاجمت عناصر فدائية فلسطينية مكتب شركة «العال» فى مطار أثينا بالقنابل وأطلقت النار على طائرة إسرائيلية.. وعند القبض على المتهمين تبين أنهما طارا من بيروت إلى اليونان بعد تدريبهما فى أحد المعسكرات بلبنان.. وفى التاسعة وربع مساء ٢٨ ديسمبر - أى بعد يومين فقط - هاجمت طائرات هليوكبتر إسرائيلية مطار بيروت الدولى واحتلته قوات الكوماندوز.. وجرى نسف ١٣ طائرة لبنانية وعربية بناء على أوامر من «موشى ديان».. وقيل أن «رافى إيتان» الذى قاد العملية دخل إلى استراحة المطار مع حراسه ليشرب القهوة.. إلى أن انتهى رجاله من تلغيم الطائرات التى كانت جاثمة على أرض المطار.. وزيادة فى السخرية دفع «إيتان» ثمن فنجان القهوة للعامل اللبنانى الذى عاش لدقائق وصفها كأنها قرون.

(تفاصيل العملية جاءت بالجزء الثالث من كتابنا الموسوعى: «حراس الهيكل.. عمليات الموساد الخارجية فى نصف قرن». عن أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى. القاهرة ٢٠٠٤).

عندما تجولت بالشارع دخلت أحد الشوارع الفرعية لأشترى بعض الجوارب.. فتعرفت على صاحبة المحل وكانت سيدة أردنية الأصل اسمها «خديجة زهران».

امتد الحوار بيننا لوقت طويل فى ذلك اليوم.. واشتريت منها ملبوسات عديدة بمبلغ كبير بقصد التعرف والتقرب إليها.. وعندما طلبت منها مساعدتى فى العثور على شقة معتدلة وعدتنى بذلك.. وكانت رغبتى فى الإقامة ببيروت رغبة ملحة للبحث عن زوجى من خلال الفلسطينيين الذين ربما كانت لديهم معلومات عنه.

عام ١٨٨٨ كانت «بيروت» جزءاً من ولاية «سوريا» وتحولت لتكون ولاية مستقلة مرتبطة بالدولة العثمانية.. وكان يتبعها سنجق «بيروت».. وسنجق «عكا».. وسنجق «نابلس».. وسنجق «اللاذقية».. وسنجق «طرابلس».. وقبل ذلك بخمسة عشر عاماً كانت «بيروت» مرفأ «دمشق» بل كل سوريا الداخلية.. وزاد من أهمية المدينة الطريق البرى بينها وبين «دمشق» الذين أقيم فى ذلك الوقت (١٨٦٣).. ثم خط السكة الحديد الذى ربط بين المدينتين.. لتتحول «بيروت» بذلك إلى بوابة «دمشق» التى تقع على أطراف الصحراء.

فى ذلك الوقت أيضاً كانت «بيروت» كما وصفها قنصل فرنسا «هنرى جيز» لا يتجاوز عدد سكانها خمسة عشر ألفاً وخمسمائة نسمة.. منهم سبعة آلاف مسلم.. وأربعة آلاف من الروم الأرثوذوكس.. وألف وخمسمائة مارونى.. وألف ومائتان من الروم الكاثوليك.. وثمانمائة درزى.. وأربعمائة أرمنى وسريانى وكاثوليكى.

نشطت «بيروت» كمدينة تجارية وميناء هام.. وأخذ الاقتصاد اللبنانى فى النمو بشكل مطرد.. وبعد قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ ازدادت أهمية العاصمة اللبنانية بعدما ورثت موانئ فلسطين جميعاً.. وتدفقت إليها أموال الأثرياء العرب التى وجدت فى «بيروت» ملجأ آمناً وجهازاً مالياً ومصارف وشبكة اتصالات على صلة بمراكز العالم.

وفى إحدى النشرات السياحية قرأت أيضاً اسم «بيروت» جاء من «يروتوس»

Beroutos.. وأطلق عليها الرومان اسم «فيلكس جوليا» Felix Julia.. كما أطلق عليها اسم «بيريت».. المشتق من اللفظ السامى الفينيقى «البئر» وذلك لكثرة وجود الآبار والينابيع فيها.

تجولت فى المدينة العريقة وزرت بواباتها المشهورة.. ووقفت كثيراً أتأمل باب «الدركة» الذى يعد من أجمل بوابات «بيروت» العثمانية.. كما زرت باب «إدريس» الذى يطل على مرفأ المدينة وعلى الجهة الغربية الشمالية لسور بيروت.

وعندما عدت مساء أول أمس إلى الفندق.. أخبرنى موظف الاستقبال أن اتصالاً تليفونياً جاءنى من السيدة «خديجة زهران» ولما اتصلت بها للاستفسار أعلمتنى أنها عثرت لى على شقة صغيرة بمنطقة «الشياح».. وصباح أمس أخذتنى إلى الشقة التى راقت لى فاستأجرتها فى الحال.

* * *

١٩ نيسان/ أبريل ١٩٧٣:

انطلقت من شقتى للبحث عن «موشيه» عن طريق زياراتى لمراكز تجمع الفلسطينيين ومحاولة إنشاء علاقات معهم.. لكن كان التحدث بشأن الطائرة التى أسقطها السوريون مسألة خطيرة يصعب الخوض فيها مع أناس لا أعرفهم وقابلتهم لقاء عابراً.. وتخوفت أن يكون بينهم أحد المنضمين لأجهزة الأمن الفلسطينية فيشتبه بى ويرتاب فى تحركاتى.. ومن ثم تتم مراقبتى.

ذهبت إلى «الهورس شو» المقهى القديم الذى كان ملتقى كبار رجال السياسة والإعلام وصانعى القرار اللبنانيين والعرب والأجانب.. صحيح أن عبارة مشهورة قالت عنه: «إذا أردت أن تعرف ماذا يحدث فى العالم فيمكنك أن تعرف ذلك فى الهورش شو».. لكن ذلك كان حلماً بالنسبة لى.. فقد عرفت أمر هذا المقهى مؤخراً.. لذلك ذهبت إليه على أمل أن أصل إلى أية أخبار عن «موشيه».

لكنى أعترف بأننى فشلت فى مهمتى.. فشلت لدرجة اليأس.. فغادرت بيروت إلى دمشق بطريق البر.. وما أن تركنا الحدود اللبنانية حتى رأيت

الشلالات بالقرب من منطقة «بقين».. وعرفت أن هذه المنطقة مليئة بعيون المياه المعدنية.. ومن حوالينا انتشرت الأشجار الكثيفة الظليلة.

ولأول مرة أعرف أن هذه المنطقة هى التى تسمى بالزهدانى والمشهورة برحابتها وخيراتها ومصايفها.. ففيها يقع مصيف «بلودان» الذى يرتفع ألفاً وخمسمائة متر عن مستوى سطح البحر.. وهو المصيف الذى كان يرتاده الشعراء والكتاب والفنانون.

كنت قد غادرت «دمشق» فى الزيارة الأولى بعدما أبلغت الأمن كذباً بأننى فقدت حقيبة يدى بإحدى سيارات الأجرة وبداخلها أسورة ذهبية وستمائة دولار أمريكى فضلاً عن خمسمائة شلن نمساوى.. وكان هذا مبرراً كافياً لأعود ثانية إلى دمشق للسؤال عن حقيبتى المفقودة.

وفى المخفر أخبرنى الضابط المسئول بأسف أنه لم يتم العثور على الحقيبة أو تقدم السائق للإبلاغ عنها.. وانتهزت الفرصة المتاحة وأخذت أذكر نبالة الشعب السورى وأخلاقه الدمثة.. وتطرقت شيئاً فشيئاً إلى الحديث عن الجاسوس الإسرائيلى «إيلى كوهين» وشجاعة السوريين فى عدم الاستجابة للضغوط الدولية لتخفيف الحكم وإنقاذه من الموت.. وكيف ذهبت لأرى ساحة المرجة التى جرى إعدامه فى وسطها.

ولأول مرة أتطرق مع الضابط الشاب إلى حديث يمس «موشيه» بشكل غير مباشر.. حيث أثنيت على القوات المسلحة السورية التى أسقطت الطائرة الإسرائيلية وأسرت قائدها.

فدهش الضابط وقال:

- إنها المرة الأولى التى أسمع فيها قصة الطيار الأسير.. فدمشق لم تعلن أى شىء عن الطيار سوى أنه قتل داخل الطائرة التى انفجرت فى الجو.

- إن الحكومة السورية ليست من الغباء لتعلن ذلك فى حينه.. فهى بلا شك تحتفظ بالطيار فى مكان أمين حتى يجىء الوقت المناسب لمبادلته.. إنها لعبة

الذكاء التى اشتهر بها السوريون.

ـ ربما ما تقولينه صحيحاً.

ـ لقد قرأت عن هذا كثيراً فى «الحروب النفسية».. وهو أسلوب اتبعه الحلفاء مع هتلر.. وقد أجاد «جوبلز» أيضا استخدامه ضدهم.. وأعتقد أن دمشق تجيد استخدام هذه الحروب واللعب بأعصاب العدو الصهيونى.

وخرجت من مخفر الشرطة دون أن أحصل على أية معلومة تدلنى على الحقيقية التى أبحث عنها.

فهل «موشيه» كان سجين الأسر فى دمشق..؟

أم ترى ذاب جسده فى طائرته المحترقة قبلما تتفجر..؟

ولما كان من المستحيل الحصول على إجابة شافية.. قررت أن أرجع ثانية إلى بيروت قبلما أرهق رجال الأمن فى ملازمتى.. فقد كانت عودتى إلى «دمشق» للمرة الثانية.. وبرغم أن السبب كان معروفاً لديهم.. إلا أنهم لم يكونوا ليتركونى أبداً أجول فى أحياء المدينة وشوارعها بمفردى.

وبينما كنت أستوقف تاكسياً لتقلنى إلى محطة الحافلات لأسافر إلى «بيروت».. اقترب منى رجلان وقالا فى جدية وتجهم:

ـ من فضلك.. نحن نريد دعوتك لتناول كوب من العصير فى مكتب الأمن العام.

أسقط فى يدى واضطرب خاطرى.. وسألتهما:

ـ وما أدرانى أنكما من رجال الأمن؟

فأبرزا هويتهما.. وحمل أحدهم حقيبتى إلى السيارة التى انطلقت إلى ناحية لا أعرفها.. وهناك قابلنى رجل جهم الملامح ينبئ مظهره ووجهه عن قسوة وفظاظة.. وسألنى:

ـ لماذا كذبت وادعيت ضياع حقيبة يدك..؟

ـ هذه هى الحقيقة وأنا لم أكذب.

ـ إن السائق الذي أقلك يومها كان رجل أمن..!!

فازددت ارتباكاً وقلت:

ـ لازلت مصرة على ما قلته.. فأنا بالفعل فقدت حقيبتى وما بها من أموال فى «دمشق».. وإلا لماذا عدت ثانية إلى هنا للسؤال عنها فى مخفر الشرطة..؟

وتصور الضابط أننى ربما أضعت حقيبتي فى سيارة تاكسى أخري لا صلة لها بالأمن.. وما كان ذلك يتم لولا إصراري على حدوث الواقعة.. ومع الرعب الذى تملكنى إلا أننى تماسكت ومثّلت دورى بمهارة.. وفي النهاية أطلقونى.

ومنذ تلك اللحظات اتخذت قراراً بعدم زيارة «دمشق» ثانية.. فأجهزة المخابرات كانت ترصد كل شيء.. وترقب أى وافد عربى أو أجنبى.. ولم أكن مستعدة لتحمل نتائج مغامرة قد تقودنى إلى الهلاك.

لكن المشكلة الحقيقية التى واجهتنى هى كيفية التوصل إلى معلومات عن «موشيه».. وعما إذا كان أسيراً فى المعتقلات السورية أو أنه قتل بالفعل فى طائرته..؟

وراودنى شعورٍ خفى حاولتِ تكذيبه مرات كثيرة.. بأن «موشيه» قفز من الطائرة بواسطة الكرسى القاذف طراز دوجلاس أسكاياك A - C3 الذى يمكن إطلاقه من ارتفاع الصفر.. وأنه يعيش فى الجحور ومغارات وأحراش هضبة الجولان السورية معتمداً على ما يعثر عليه من النباتات البرية فى إطعام نفسه.

لكن أمر مقتله كان هو المنطقى والمؤكد.. وهو ما حاولت نفيه من فكرى واستنكار حدوثه.. وبقيت هكذا أسيرة أحلام اليقظة التى كنت أوجهها كيفما شئت تبعاً لميولى الخاصة وأمنياتى أيضاً.

وعندما عدت إلى بيروت كنت أكثر ميلاً إلى تصديق مقولة وفاة زوجى.. لكننى كنت أقاوم وأرفض.. تماماً كما يفعل المحكوم عليه بالإعدام فالبرغم من أنهم أخذوه إلى غرفة الموت وإدراكه بأن هذه هى نهايته.. إلا أنه كان يقاوم

ويصرخ قائلاً: «إنه برىء»..!!

كنت أنا على شاكلة هذا المحكوم عليه بالإعدام.. فموشيه كان قد مات وتناثرت أشلاؤه.. وكنت على ثقة من هذه الحقيقة.. لكن رفضى لتصديقها كان يترسخ بداخلى.. وأظل أصرخ وأصرخ لأقنع نفسى بأن «موشيه» لم يمت.

فإلى متى أظل هكذا أسيرة الوهم والهواجس..؟

وإلى أين يأخذنى الفكر ويتلاعب بأعصابى..؟

ولكى أستريح من ظنونى وعذاباتى كان علىّ أن أسافر إلى «فيينا» لبعض الوقت.. فاستجمع أفكارى وشتات نفسى استعداداً للعودة إلى بيروت مرة ثانية!

* * *

القسم الثامن عشر
فى النمسا (٨)

«خـلال ثلاثة أيام شـرحت لى «شـولاميت» الكثيـر من أسـرار الإغـواء.. ثم اسـتـدعت زميلها الذى «تعامل» معها بحرية أمامى بقصد تعليمى.. ولما جاء دورى تحرجت.. فخرجت «شولاميت» من الغرفة وتركتنا معاً..!!»

٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٧٣:

غادرت «بيروت» بالأمس إلى «فيينا» متخمة بالأسى واليأس.. فهاهى محاولاتى قد باءت بالفشل وأصبحت وحدى فى هذه الحياة.. تركنى «موشيه» لمصير لا أعرفه لأعيش حياة الشتات بلا وطن أو شعور بالأمان.. فمنذ اختطفه الموت وأنا أترنح بلا وعى وقد توقفت أحلامى عند تلك اللحظة.. وضاعت ابتساماتى التى حطمها الحزن وأدماها الذهول.

وفى شقتى بفيينا لفنى الصمت المغلف بالألم.. ووضعت باقة من الليلاك حول إطار صورة «موشيه» ببذته العسكرية.. تلك الزهور التى كان يعشقها ويحملها إلىَّ دائماً عندما يجىء من العمل.. لكن الذى حيرنى بحق ذلك الرفض الذى كنت أستشفه من نظرات عينيه.. وكأنه كان يستقرأ ما أفكر فيه..!

كنت أخاله يرجونى ألا أعود ثانية إلى «بيروت».. مستنكراً هذا التصرف وكأنه يقول لى: إن القلب الذى أحب بصدق لا يعرف سوى التسامح.. ولا يجب أن تكون بقلبه ذرة حقد أو كراهية ورغبة فى العنف والانتقام.

بيد أن مخزون الكراهية للعرب حشر حشراً بأوردتى وأعماقى.. ولم يعد لدى ما أفكر فيه إلا الانتقام ممن اغتالوا سعادتى وأمنى عندما قتلوا زوجى.

هكذا سيطر الثأر على فكرى وكان لابد من المضى فى طريقى مهما كانت النتائج.

وبينما كنت أسبح مع أفكارى دق جرس الهاتف فجأة فجفلت.. حدقت طويلاً فى الهاتف ولم أرد.. فانقطع الجرس ثم عاد يدق من جديد.. وأخيراً استجمعت ما بقى لدى من جرأة ورفعت السماعة فى هدوء..

وجاءنى صوت رجالى:

ـ آلو.. السيدة «آنى»..؟

ـ من أنت..؟

ـ أنا من طرف يعقوب سنوفسكى.

صمت للحظات قبل أن أجيب:

ـ أهلاً..!

ـ هناك بعض المسائل لابد من مناقشتها معك.. هل تسمحى لى بزيارتك غداً..؟

ـ أية مسائل تقصد..؟

ـ كل ما يتصل بالمكافأة ومعاش زوجك وأمور الوراثة عامة.

ـ أهلاً وسهلاً.. هل تأخذ عنوان المسكن..؟

ـ لا أنا أعرف العنوان.. سأكون عندك فى تمام العاشرة صباحاً.

على الفور اتصلت برقم يعقوب سنوفسكى الخاص.. ولما أخبرته بأمر المكالمة التى تلقيتها.. أفادنى بأنه أرسل ثلاثة رجال من طرفه لمقابلتى.. فاطمأن بالى ونمت مبكراً على غير العادة لأستعد للقاء المرتقب.

وصباح اليوم جاءنى الزوار الثلاثة.. كنت أعرف أنهم ضباط مخابرات لأن سنوفسكى هو الذى أرسلهم.. فهو ضابط فى أحد أجهزة الأمن.. ربما يكون «الموساد»..!

بعد التعارف اعتذر لى الضابط الذى هاتفنى لأنه لم يخبرنى أنهم ثلاثة أفراد.

فقلت له: لقد عرفت العدد من سنوفسكى.. لكنه لم يوضح لى بالضبط أية مسائل ستناقشونها.. وإن كنت أستشف أن موضوع الإرث ليس هو السبب الحقيقى للزيارة.

ضحك الرجل وقال لى:

ـ أعرف أنك ذكية جداً يا سيدة «آنى».. ولذلك سأتخير كلماتى بعناية شديدة بحيث تؤدى الغرض المنشود.

قلت:

ـ هات ما عندك يا سيد «ناحوم».

ـ إن مهمتنا هى مناقشتك فى موضوع الإرث والإجراءات الخاصة التى تضمن لك حقوقك دون إثارة أية مشاكل مع أسرة زوجك الراحل.. أو الجهات الرسمية سواء فى النمسا أو فى إسرائيل.

إن ميراثك وحدك فى إسرائيل يربو على نصف المليون دولار.. منه التعويض والفيلا فى ريشون لتسيون.. إلى جانب أن هناك ضمانات حماية وأمن فوق العادة.

قلت:

ـ هذا جميل.. لكن ما هو الشيء الآخر المطلوب منى..؟

وبعد مجادلات ومناقشات وشروح قال لى: «ناحوم»:

ـ المطلوب منى هو التعاون مع الأجهزة الأمنية الإسرائيلية.. وتنفيذ ما يطلب منى فى بيروت لجلب أخبار عن «موشيه» من خلال اختراق جدران الأمن الفلسطينى.

قال لى أيضاً: يجب أن أحاول إقامة علاقة مع أحد أعضاء جبهة «الكفاح الشعبى الفلسطينى» وهى جبهة تتخذ دمشق مقراً لها وتعتمد فى تمويلها على ليبيا والعراق.. وإذا تحقق لى ذلك فيمكننى الحصول على معلومات هامة تتصل بزوجى.. حيث أن قائد الجبهة «سمير غوشة».. ورجاله يتنقلون بشكل مستمر ما بين بيروت ودمشق عقب هزيمة ١٩٦٧.

أما «القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» التى يقودها أحمد جبريل.. فهى موالية لسوريا منذ أنشئت عام ١٩٦٨ وتتخذ من دمشق مقرّاً لها.. وأنه يسهل اختراق هذه الجبهة فى بيروت من خلال أحد الأعضاء النافذين.. الذين يتواجدون فى لبنان بشكل منتظم للكوادر الجديدة والتنسيق بشأن العمليات الفدائية المخطط لها.

لقد كنت بقياسات المخابرات الإسرائيلية ثروة لا تقدر.. فأنا امرأة عربية فقدت الأهل والوطن والدين.. وأعيش فى وضع نفسى سيء ملىء بالخوف.. ولا مأوى لى سوى إسرائيل التى ستضمن لى الاستقرار والأمن.

لكل ذلك كان لابد من استقطابى بقليل من بث الكراهية فى نفسى لهؤلاء العرب الذين قتلوا زوجى الذى كان يمثل لدى الأمن والأمان.. وكنت بالضرورة ـ فى ذلك الوقت بالذات ـ بحاجة ماسة إلى هذين العاملين.

والذين لم يكن يعرفه رجال الموساد.. أننى لم أكن بحاجة إلى كل هذه المناورات والخطط لإدخالى عش الجاسوسية والعمل لصالح إسرائيل.

لقد ضغطوا بكل قواهم على مأساتى.. منتهزين فرصة غرقى فى بحور اليأس والضياع والضعف.. وكانوا يعرفون جيداً أننى لم أعر للشرف والعفة انتباهاً.. إذ أنى قد خلعت ثوب الشرق المحتشم واستبدلته بغلالة الغرب طواعية.. نازفة تقاليدنا العربية.. وديانتى.. ومبادئ تربيت عليها.. لذلك فقد كنت صيداً سهلاً لرجال الاستخبارات الإسرائيلية يحاصرونه ويضيقون عليه الخناق إلى أن يسقط فى شباكهم.

* * *

استغل ضباط الموساد الثلاثة الضعف الإنسانى عند «أمينة المفتى».. عازفين على أوتار كراهيتها للعرب وهم على ثقة تامة بأنها وحيدة.. هاربة.. خائفة.. وتحتاج إلى نقود للإنفاق على نفسها والعيش فى أمان.. وهى نقاط ضعف محسوبة لهم للسيطرة على فريستهم وتجنيدها بكامل رغبتها.

إن الجاسوسية فى قوانين أجهزة الاستخبارات لا تعترف بمبدأ الرحمة.. ولا تستجيب بأيٍ حال لنداءات الضمير.. ذلك إنه عالم عجيب مثير يفتقد العواطف ولا تصنَّف المشاعر تحت سمائه.

ففى دهاليزه المظلمة الغامضة.. توجد هناك دائماً مساحة ضيقة من الطموح والجنون.. وبقدر ما لدى الإنسان من رغبة محمومة فى تحقيق أحلامه.. وتوهماته.. تعميه الحقيقة المرة أحياناً عن معالم الطريق.. ويتحول لمخلوق مبصر يتحسس الخطى دونما توقع لنواميس الطبيعة.

فالنفس البشرية ماتزال تمثل لغزاً محيراً عجزت العقول عن تفسير بعض جوانبه.. ولذلك.. لا يجب أن نندهش أمام تقلبات البشر.. وجنوح العقل.. وانحرافات الأفرجه والسلوك.

تلك هى النفس البشرية.. لغز الألغاز.. سرها لا يعلمه إلا خالقها سبحانه جل شأنه..!!

هكذا كانت «أمينة داوود المفتى».. فريسة سهلة سقطت بلا أدنى مقاومة فى شرك الجاسوسية.. وأسلمت قيادها للضباط الثلاثة.. الذين تناوبوا وأانكبوا على

تعليمها وتدريبها أصول «المهنة» التى ستمتهنها فى لبنان.. وبعد دورة مكثفة استغرقت شهوراً تقريباً.. تعلمت أثناءها أساليب التجسس المختلفة من تصوير.. وتشفير.. وتلقط الأخبار.. وكيفية الالتزام بالحس الأمنى.. وكذا التمييز بين الأسلحة.

لكن المثير والعجيب.. أنهم استقدموا فتاة حسناء عراقية الأصل.. مكثت أياما فى دورة خاصة مغلقة بشقة «أمينة».. قامت خلالها بتدريبها على فنون الإغواء والإغراء والإمتاع بقصد جلب الأسرار لا بقصد المتعة.. وبعد الدورة النظرية هذه جىء بشاب إسرائيلى مفتول العضلات لتلقينها عملياً كيفية «التعامل» مع العرب.

* * *

وفى ذلك كتبت «أمينة» عدة صفحات سجلت بها مشاعرها الحقيقية إزاء هذا الأمر.. ولأن وصفها كان صريحاً لا يمكن كتابته.. نورد بعضاً منه بأسلوب مهذب.

تقول «أمينة»:

- خلال ثلاثة أيام شرحت لى «شولاميت» الكثير من أسرار الإغواء التى لم أكن أعلم عنها شيئاً.. وعندما أقنعتنى بأن تستدعى أحد أعضاء الفريق، وافقت وجاء «أفرايم» الذى «تعامل» مع زميلته أمامى بحرية تامة بقصد تعليمى.. ولما جاء دورى تحرجت من «شولاميت» التى خرجت من الغرفة وتركتنا معاً.

فى البداية شرح لى «أفرايم» وهو مصرى الأصل.. أن ما سيتم بيننا لمجرد التدريب ليس إلا.. ثم شرعنا فى «العمل» ولاحظت أن جسدى كان يرفض ذلك بشدة. لكننى سيطرت على مشاعرى وأنا أهتف لنفسى بأن ذلك الأمر لأجل الوصول إلى «موشيه» واسترداده بشكل أو بآخر.

ومع تنبيهات «أفرايم» كنت أزداد توهجاً.. وأكاد أضبط جسدى وهو يتلذذ غصباً عنى.. فكنت أعنّف نفسى وألعن الشيطان الذى يغرقنى فى متعة لست أبغيها!!؟؟

وتكمل: وبعد التجديف فى بحور «أفرايم» تم تدريبى على كيفية تحميض الأفلام.. والهرب من المراقبة.. واستخدام المسدس.. ثم استقدموا خبيراً فى تقوية الذاكرة، وتخزين المعلومات والأرقام والتدريب على عدم نسيانها.. فكان

يعرض على مشهداً من فيلم سينمائى ويطلب منى الإجابة:

- كم طبقاً كان على المائدة..؟

- ما لون ستائر الشباك..؟

- كم لمبة بالنجفة..؟

- كم عدد درجات السلم..؟

- كم سيارة ظهرت فى الكادر..؟

* * *

ببراعة فائقة أجادت «آنى موشيه بيراد» دورتها الأولى فى التجسس.. وأصبحت أكثر إصراراً على الانتقام والتحدى.. بل وعمل المستحيل للثأر لزوجها من العرب.. إذ كانت تريد تأكيد حبها له من خلال تجسسها لصالح إسرائيل.. حيث لم تعد تزعجها الهواجس أو هلاوس الليل عندما تحلم به وتتخيله يسعى فى الجبال ممزق الثياب.. كث اللحية.. غائر العينين والوجنتين.. يناديها فى رجاء طالباً منها أن تنقذه.. وكثيراً ما كانت تراه فى أحلامها ممزق الجسد.. تلتهم أطرافه فئران الخلاء.

وعندما غادرت «أمينة» فيينا إلى بيروت هذه المرة.. لم تكن رحلة للبحث عن زوجها المفقود.. وإنما للانتقام له.. حيث حددت مهمتها فى تقصى أخبار المنظمات الفلسطينية.. ورجال المقاومة المسلحة الذين يتم استقدامهم من مخيمات اللاجئين فيؤرقون أمن إسرائيل.. ويحيلون ليلها إلى نهار لشدة القصف والعمليات الفدائية الجرئية التى تمثل نقلة نوعية فى أساليب القتال الفلسطينية.. إضافة إلى عمليات اختراق الحدود المذهلة التى برع فيها شباب الفدائيين..!

كلفت أيضاً بمهمة التحرى عن مراكز إقامة قادة المقاومة.. وأرقام تليفونات رؤساء المنظمات والجبهات.. ومعرفة الطرق التى يسلكها الفدائيون للتسلل إلى الأراضى المحتلة.. وأيضاً.. التغلغل داخلهم لمعرفة أعداد الفدائيين.. وأساليب تدريبهم.. وأسلحتهم.. ومدى مهارتهم فى التخفى والمناورة.. وكذا تكشّف مخازن الأسلحة والذخيرة والإعاشة.

القسم التاسع عشر
فى لبنان (٢)

«تبولتُ على نفسى رعباً.. وانحصر تفكيرى فى البحث عن كبسولة سم «السيانيد» التى خبأتها بين خصلات شعرى بواسطة مادة لاصقة.. فالانتحار أفضل كثيراً من الإعدام لأنه موت اختيارى خالص..!!»

٩ حزيران/ يونيو ١٩٧٣:

ودعت «موشيه» وأنا أقبل إطار صورته الباسمة.. وقلت له فى تصميم:

- سأعود إلى «بيروت» يا حبيبى هذه المرة للثأر لك لا للبحث عنك.. وثق بأننى لن أهنأ حتى أنتقم من هؤلاء الأوغاد الذين نالوا منك فحرمونى طعم الحياة.

وفى يوم السبت ٢٦ أيار وصلت إلى بيروت فى الصباح الباكر.. وبعد قسط معقول من النوم خرجت أبحث عن شقة أجمل تصلح للمهمة الجديدة التى جئت لأجلها.. وعن طريق مكتب للعقارات استأجرت شقة بإحدى بنايات الروشة.. أروع مناطق بيروت.

وعبر شرفة الشقة كنت أرى الشاطىء المتعرج برماله البيضاء التى يتقاذفها البحر على رماله اليابسة.. وهو المشهد الذى وصفه الشاعر الفرنسى «لامرتين» بقوله:

- إن الطبيعة هنا.. بل كل شىء حولى أسمى من الخيال.. لقد حلمت بجنة عدن.. لا.. بل لقد رأيتها.

كنت أرى أيضاً من خلال الشرفة صخور الروشة الشهيرة.. وعلى بعد خطوات كان يقع مقهى «الدولشى فيتا» أشهر مقاهى بيروت.. حيث المكان المفضل للمثقفين والفنانين والجواسيس أيضاً.

ولما كان الشىء الوحيد الذى يضايقنى هو انقطاع حرارة التليفون بالشقة.. فقد زرت صديقتى الجديدة «خديجة زهران» لأطلب منها المساعدة.. وفى الحال اتصلت بموظف تعرفه بشركة الهاتف.. اسمه «مانويل عساف» الذى وعدها بعمل اللازم.

وفى اليوم التالى.. طرق «عساف» بابى فأدخلته فأخذ يؤكد لى بأن المنطقة تعانى من بعض الأعطال بسبب تجديدات بالشبكة.. على وعد بالتوصل فى القريب العاجل إلى حل.

لكن الحل لا يأتى.. وموظف التليفونات دائم التردد علىّ بحجة الكشف على الكابلات.. وعندما يكون معى بالشقة كنت كأنثى أقرأ أفكاره ونظراته.. ولاحظت جيداً أنه لا يريد الخمسين ليرة التى منحتها له.. بل يريد شيئاً آخر.. فمنحته جسدى أيضاً إذ وجدت فيه صيداً سهلاً أستطيع من خلاله التوصل لأرقام الهواتف الخاصة وعناوين القادة الفلسطينيين.

أجدت استخدام جسدى المدرب على كيفية التعامل مع الرجال المراد استقطابهم.. ولم أشعر بأية رغبة مع أول رجل أقوم بمنحه جسدى خلال مهمتى.. ولأننى بعت الوطن والأهل عندما تزوجت من يهودى.. لم أجد غضاضة وأنا أبيع نفسى لمانويل عساف المسيحى.. ذلك الرجل المتزوج البالغ من العمر نحو اثنين وثلاثين عاماً.. الذى خر مستسلماً أمامى وأنا أمثل دور المرأة التى بعينيها نداءات جوع.. وأذهبت بعقله فحوصر ولم يعد لديه أى منفذ للفرار.

هكذا أقبل «مانويل» فى شراهة ونهم.. باعتقاده أنه أوقع بامرأة ظمأى.. بينما تصرفت معه كما تدربت فبدوت فى أقصى حالات الضعف.. والمتعة..!

هكذا تفعل النساء فى عالم المخابرات والجاسوسية.. فالجنس عندهن وسيلة.. لا هدف..!

بيد أننى صدمت بشدة عندما اكتشفت أن «مانويل» لا يمتلك كل ما أريده.. فهو مجرد موظف صغير.. ورغبة منه فى توطيد علاقته بى عرض علىّ اصطحاب رئيسه فى العمل «مارون الحايك» حيث أن بيده كل الصلاحيات.. وأفهمنى أن رئيسه هذا مرح الطباع.. منشغل بالتجسس على المحادثات الهاتفية بين نساء بيروت وعشاقهن... وتستهويه لعبة المطاردة والبحث عن صيد جديد.

وبغريزة الأنثى الجاسوسة.. أيقنت أن «مارون» كنز معلومات ويستطيع أن يدلنى - إن أسقطته فى حبائلى - على ما أريد من معلومات عن الزعماء الفلسطينيين فى بيروت.

وعندما جاءنى هذا الباحث عن صيد جديد.. كانت نظراته الجريئة تكاد

تخترقنى وتعرينى أمامه.. ولما وعدنى بإصلاح خط الهاتف وعدته أنا أيضاً بهدية ثمينة.. وكانت هديتى إليه «وليمة فسق» أتخمته وأطاحت عقله بسياج من غباء.

وبينما الجسد المنهد ساكناً بدأ يتكلم محاولاً إظهار أهميته وسعة علاقاته.. وبعد عدة ولائم.. أطلعنى على الهواتف السرية لبعض المنظمات الفلسطينية.. ولزعماء الجبهات وعناوين إقامتهم بحى «الريحانة» الشهير.. وكان ذلك بعدما أفهمته أننى جئت للعمل كمتطوعة فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين.. واختصاراً للوقت كان لابد من الاتصال مباشرة بالقادة لأتسلم العمل بعيداً عن الروتين والتسويف والمماطلة والتحريات الطويلة التى يقومون بها أحياناً.

بهذا أقنعت «مارون» الذى لم يكن بحاجة إلى أدلة لإقناعه.. إنما كان يجيء خائر المقاومة لا هدف له سوى نيل ما يبغيه.. فكنت أعطيه لآخذ.. وأمنحه لأضمن ولاءً وإخلاصاً فى العمل والمعلومات.

وبواسطة صندوق بريد ميت.. كنت أصب كل ما تفوه به «مارون» فى خطاب من عدة صفحات.. وتجيئنى الأوامر بعد ذلك بالسعى للحصول على القوائم السرية لرجال المخابرات الفلسطينية فى أوروبا.. والتنصت على تليفونات «ياسر عرفات» ورئيس الجناح العسكرى فى جهاز مخابرات «على حسن سلامة»[1]

---

(١) على حسن سلامة: ابن المناضل الفلسطينى «حسن سلامة» الذى دوخ الإسرائيليين وقتل العشرات منهم قبلما يتمكنوا من قتله.. واختار عرفات «على حسن سلامة» ليكون قائداً لحرسه الشخصى الذى عرف باسم «القوة ١٧».. ثم شغل إلى جانب ذلك منصب قائد الجناح العسكرى للمخابرات الفلسطينية وقاد أشرس المعارك ضد إسرائيل وقتل بيده العديد من الجواسيس.. ومن أشهر العمليات التى قادها «مذبحة ميونيخ» أثناء انعقاد الدورة الأوليمبية.. برغم زواجه من إحدى قريبات مفتى القدس «أمين الحسينى» إلا أنه تزوج من اللبنانية المارونية «جورجينا رزق» التى انتخبت ملكة لجمال الكون.

رصدت الموساد تحركاته وتوصلت لمحل إقامته الجديد فى بيروت.. وأرسلت خلفه العميلة «ماريا إيريكا تشامبرز» لاغتياله.. وعن ذلك تقول إيريكا: «تحولت الرغبة عندى وغريزة اصطياد سلامة إلى حالة هوس.. لقد درست كافة الملفات الخاصة به.. ورأيت فى تفاصيل وجهه المرح».

وبواسطة سيارة مفخخة.. تمكنت «إيريكا» من اغتيال «الأمير الأحمر» عام ١٩٧٩ فى بيروت.. وكان ذلك بمساعدة شريكين آخرين لها..!!

الذى أطلقت عليه «جولدا مائير»[1] لقب «الأمير الأحمر» لأنه المخطط لعملية «ميونيخ» ١٩٧٢ التى قتل فيها أحد عشر إسرائيلياً أثناء انعقاد الدورة الأوليمبية هناك.

بدت المهمة صعبة جداً بل شبه مستحيلة.. فأنا مجرد جاسوسة جديدة أحاول استجماع جرأتى.. ولا خبرة لى كافية لأستطيع القيام بمهمة خطيرة كهذه لا يقدر عليها سوى عميل مدرب لسنوات.. خبير بكل فنون العمل ولديه أعصاب من فولاذ.

وبعد تفكير عميق ازددت اقتناعاً بأن الموساد اختارتنى لهذه العملية لكونى عربية من الأردن.. وطبيبة متخصصة فى علم الأمراض النفسية.. وهتان ميزتان مهمتان أستطيع بواسطتهما الدخول إلى الحصن الفلسطينى المنيع.

* * *

١٧ حزيران/ يونيو ١٩٧٣:

فى ذلك الوقت من يونيو ١٩٧٣ كانت الحياة فى بيروت لها مذاق رائع.. تماماً كالأطعمة المتنوعة فى كل أنحاء الدنيا.. إذ كانت تزهو أجمل فتيات لبنان فى الأندية والفنادة والبلاجات.. يرتدين البكينى اللاصق المثير.. ويتلوين تحت أشعة الشمس حول حمامات السباحة.. أو يلعبن الجولف والتنس.. ويرقصن الديسكو ويشتركن فى مسابقات الجمال.

وسط جو كهذا يموج بالمرح والسن والشباب.. اعتاد الفدائى «على حسن سلامة» أن يعيش بعض أوقاته.. يرافقه أحياناً «فتحى عرفات»[2] شقيق «ياسر

(١) جولدا مائير: أول امرأة تتولى رئاسة الحكومة الإسرائيلية.. ولدت فى «كييف» بأوكرانيا سنة ١٨٨٩ وهاجرت مع أسرتها إلى فلسطين عام ١٩٢١ وعاشت فى القدس وتعاونت مع العصابات الصهيونية فى ذبح الفلسطينيين وطردهم من قراهم بالقوة.. دخلت الكنيسيت عام ١٩٤٩ ثم تولت منصب وزير الخارجية فرئيس الوزراء وشهدت هزيمة جيوشها فى أكتوبر ١٩٧٣ وماتت فى ديسمبر ١٩٧٨.

(٢) الدكتور فتحى عرفات: الشقيق الأصغر لياسر عرفات.. تخرج من طب القصر العينى وشارك عرفات فى مسيرة نضاله حيث أسس عام ١٩٦٨ جمعية الهلال الأحمر الفلسطينى وأصبح رئيساً =

عرفات».. ولما اختيرت «جورجينا رزق» ملكة لجمال الكون عام ١٩٧١، اخطتفها «سلامة» وتزوجها فى حدث أكثر من رائع.. مما جعله مطارد دائماً من فتيات لبنان.. لكنه كان مشبعاً بكل جمال الدنيا بين يديه.

ولأن الموساد كانت تجهل صورة «سلامة» أو ملامحه الجديدة.. وفشلت كثيراً فى اقتفاء أثره.. خاصة بعد عملية «ميونيخ» عام ١٩٧٢ بالذات.. فقد كان المطلوب من التسلل إلى عرين هذا الأسد والحصول على قوائم بأسماء قيادات وعملاء المخابرات الفلسطينية فى أوروبا.. فقد كان «سلامة» رجل مخابرات من الطراز الأول.. استطاع أن يخطط وينفذ عمليات جرئية ضد إسرائيل.. ونظراً لتمتعه بحس أمنى متميز.. فشلت الموساد فى اقتفاء أثره.

قيل لى أن هذا الفشل سببه عدم وجود صورة فوتوغرافية حديثة لسلامة.. وأن الصورة الوحيدة المتواجدة فى ملفه التقطت له أثناء دراسته بالجامعة الأمريكية ببيروت.. وهى على كل حال لا تفى بالغرض نظراً لتغيرات الملامح التى استجدت.

وكانت التكليفات التى جاءتنى بضرورة الوصول إلى «سلامة» والحصول على القوائم السرية لرجاله فى أوروبا أمر هام جداً وضرورى لتفكيك أوصال القيادة فى «بيروت».. وعزلها عن رجالها فى كل قارات العالم.. وفى هذا إجابة عن سؤال ملح: لماذا السطو على أوراقه وملفاته بدلاً من اغتياله؟

= لها.. وتمكن من إقامة العديد من المستشفيات وعمل على تخرج أطباء مهرة وممرضين وفنيين.. وكان عماد وزارة الصحية الفلسطينية بعد قيام السلطة وانتقالها إلى الأرض المحتلة.. وكان فى الوقت نفسه يشغل منصب المستشار الصحى لياسر عرفات.. وعضو مجلس وزراء الصحة العرب.. ورئيس أكاديمية فلسطين للعلوم والتكنولوجيا.. ورئيس المجلس الصحى الأعلى الفلسطينى.. ورئيس اتحاد الأطباء والصيادلة العرب، ونائب رئيس مجلس وزراء صحة دول عدم الانحياز.. وعضو المجلس الثورى والمجلس الوطنى والمجلس المركزى بمنظمة التحرير الفلسطينية.. تزوج من الطبيبة المصرية «نادى الحطيم» وأنجب منها الدكتورة أمانى والمهندس طارق.. وتوفى ودفن بالقاهرة فى ١ ديسمبر ٢٠٠٤ عن ٧١ عاماً بعد غيبوبة طويلة بمعهد ناصر.. دون أن يدرى بوفاة شقيقه ياسر عرفات قبل أيام..!!

هكذا كانت مهمتى فى «بيروت» مهمة خطيرة إلى أقصى حد.. ولو أننى استطعت القيام بها على أكمل وجه.. فكل ميادين إسرائيل لن تكفى لنصب تماثيلى.. وفوجئت بوصول «أفرائم» إلى «بيروت» يحمل جواز سفر ألمانى.. وفى شقتى دربنى ليومين على إغواء «سلامة» الذى كان بحاجة إلى مؤثر قوى ليخطفه لبضع ساعات من بين أحضان ملكة جمال العالم.

* * *

٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٧٣:

فى لقاء حميم مع «مارون الحايك» سألته عن صلاح خلف «أبو إياد» والغمرى وغيرهما.. فأجاب بأنه يعرفهم جميعاً فهو المختص بإصلاح تليفوناتهم الخاصة.. وعندما ذكرت له اسم «على حسن سلامة» قال ضاحكاً:

- زوج «جورجينا».. ؟ يبدو أنه ذاق جمالها حتى شبع.. لذلك فهو دائم التردد على فندق «كورال بيتش» للاستحمام ومتابعة خطوات الفتيات الحسناوات بنظرات ملتهبة.

أسعدتنى المعلومات التى أدلى بها «مارون» فمعنى ذلك أن الرجل الذى تطارده «الموساد» يمكن اصطياده بسهولة نظراً لحبه وميله الشديد للنساء.. وكانت نقطة الضعف هذه هى المدخل المنطقى لاقتحامه.. بيد أننى لم أكن لأصدق أن مثل هذا الرجل قد يقيم علاقة بامرأة أخرى.. ولديه زوجتان واحدة منهما أجمل امرأة على سطح الأرض.

أخذت «مارون» معى إلى الكورال بيتش ليدلنى على «سلامة».. لكن الأيام تمر و«الحايك» يستمتع بجسدى وبالإنفاق عليه دون أن يظهر لسلامة أثر.

تملكنى اليأس لفشلى فى المهمة التى كلفت بها.. وفكرت كثيراً فى مغادرة بيروت.. لكن طرأت بخيالى فكرة جديدة عملت على تنفيذها بأسرع وقت.. إذ انتقلت إلى شقة أخرى بكورنيش المزرعة.. وهى منطقة شعبية يرتادها التجار من قاطنى المخيمات الفلسطينية فى بيروت.

وللوهلة الأولى أحسست بتفاؤل كبير.. خاصة بعدما تعرفت على ممرضة فلسطينية تدعى «شميسة» تعمل بإحدى عيادات مؤسسة «صامد»[١] بمخيم «صبرا»[٢] للاجئين الفلسطينيين ببيروت.

قدمتنى «شميسة» إلى مدير العيادة الذى اطلع على أوراقى العلمية وهو يبتسم فى سعادة.. وقال:

ـ أهلاً بك يا دكتورة أمينة.. ستجدين هنا العديد من الأطباء من كل مكان.. جاءوا كتطوعين للمشاركة فى علاج إخوانهم الفلسطينيين.

وضع أوراقى وشهادة الدكتوراه المزورة فى المظروف ثانية.. وطلب منى الانتظار لعدة أيام ريثما يخبر رؤساءه.. فتملكنى الخوف لحظتئذ.. إذ ربما تطلع المخابرات الفلسطينية على أوراقى وترسل إلى «فيينا» للتثبت منها فتتكشف الحقيقة.. وربما أيضاً تكون هناك معلومات متبادلة مع المخابرات الأردنية فيتم احتجازى وترحيلى إلى «عمان» نظراً لمكانة عمى ومركزه المرموق فى البلاط الملكى.

ندمت ندماً شديداً وحبست نفسى بشقتى الجديدة التى استأجرتها بكورنيش المزرعة.. حتى أننى تعمدت ألا أرد على الهاتف أو أستقبل «مارون الحايك».

وبعد ثلاثة أيام اتصلت بمدير العيادة فأبلغنى أن طلبى قد قُبل.. وعندما ذهبت لتسلم عملى قيل لى: إن «ياسر عرفات» يقابل هؤلاء المتطوعين فى شتى المؤسسات الفلسطينية.. ويستعرض فى خطاب طويل تاريخ الجهاد الفلسطينى وقيام منظمة التحرير.. ويأخذهم فى جولات لبعض المخيمات وملاجىء الأيتام

(١) أنشئت مؤسسة «صامد» عام ١٩٦٩.. وهى تقدم الخدمات المتنوعة لمستلزمات المعيشة وما يتصل بالصحة والعلاج.. وتنتج المؤسسة الفلسطينية المنسوجات والسلع الاستهلاكية والمصنوعات الجلدية والخشبية والنسيج والزجاج والسيراميك.

(٢) بعد خروج القوات الفلسطينية من بيروت.. ارتكب الكتائبيون بمساعدة إسرائيل مذبحة «صبرا وشاتيلا» التى راح ضحيتها ٢٢٩٧ قتيلاً فلسطينياً من جميع الأعمار.. وذبح فى المجزرة أيضاً ١١٩ لبنانياً و١١ سورياً.. و ٣٢ باكستانياً وإيرانياً وجزائريان.. و٢٥ قتيلاً لم تعرف هوياتهم أو جنسياتهم ليصبح عدد الذين ذبحوا ٢٤٨٤ فى مجزرة بشعة نفذت أيام ١٦، ١٧، ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ فى بيروت.

والمؤسسات الصحية والهلال الأحمر.. كذلك يزور المستشفيات ويستعرض معهم أقسام الأجهزة التعويضية وبنك الدم والمعامل وخلافه.

وما إن تسلمت عملى حتى بدا الطريق سهلاً أمامى للامتزاج بالفلسطينيين والإنخراط فى صفوفهم.. وبدأ عملى التجسسى الأوسع..!

* * *

٢٥ تموز/ يوليو ١٩٧٣:

مساء الأحد الماضى.. ٢٢ تموز.. دق جرس الهاتف بشقتى كان على الطرف الآخر «مارون الحايك» الذى أسر إلىّ ببضع كلمات ألجمتنى.. فوضعت السماعة فى الحال وأسرعت إلى التليفزيون.. وصدمنى المذيع وهو يعلن نبأ اعتقال ستة من رجال الموساد فى أوسلو.. بينهم فتاتان.. بتهمة قتل الجرسون المغربى «أحمد بوشيقى» بالرصاص فى منتجع «ليليهامر».

وأضاف المذيع: أن القتلة ظنوا أن «بوشيقى» هو الفدائى الفلسطينى «على حسن سلامة».. وأمام جهات التحقيق اعترفوا بأنهم ينتمون إلى «الموساد الإسرائيلى».. وجاءوا من عدة دول ومطارات مختلفة خصيصاً لتعقب «سلامة» واغتياله فى أى مكان يتواجد به[1].

ارتجت أوصالى واحتوانى الهلع على مصيرى أنا أيضاً.. وفشلت فى الإجابة عن سؤال:

- لماذا كانوا يتعقبون «سلامة» لاغتياله.. بينما طلبوا منى خلاف ذلك..؟!

يبدو أن اللعبة كانت أكبر بكثير من تفكيرى وحدود معلوماتى.. فأمور السياسة والمخابرات تتشكل وفقاً لمعايير أخرى.. وحسابات معقدة..!

(١) اغتيل «أحمد بوشيقى» مساء السبت ٢١ يوليو ١٩٧٣ فى ليليهامر Lillehammer وهى جزيرة سياحية صغيرة تقع بإحدى البحيرات النرويجية.. وهو مغربى الأصل نرويجى الجنسية لزواجه من الممرضة «توريل» ويقيم فى ليليهامر منذ أربع سنوات وعمره ٢٨ عاماً «ولد عام ١٩٤٥ بالدار البيضاء».. والقتلة المعتقلون هم: دانييل آربيل.. وماريانا جلادينكوف.. وإبراهام جيهمر.. وسيلفيا رافائيل.. وميشيل دوف.. وزيفى شتاينبرج.

ولأول مرة منذ فقدت «موشيه» أشعر برغبة جامحة فى الاستمتاع بالحياة.. ومدى الحاجة إلى مذاقات النشوى الحقيقية التى افتقدتها.. فاستدعيت «مارون الحايك» الذى جاءنى بأسرع مما كنت أتصور.. وبعد دقائق جاء أيضاً «مانويل عساف» فنظرا لبعضهما البعض فى ذهول.. ثم حملقا فى المرأة المهووسة التى استدعتهما للشرب والسهر.. والمتعة.. ويبدو أنهما لم يفهما شيئاً بالمرة إلا عندما تحررت حتى من أى غلالة.. ورقصت فى نشوة مسكرة.. فقاما ورقصا معى.. ثم انتقلنا ثلاثتنا إلى الداخل حيث تحولت إلى إنسانة أخرى مغايرة..!!

وفى اليوم التالى أيقظنى التليفون.. وعندما جاءنى صوت «مانويل» أفقت وأسرعت إلى الحمام فاغتسلت.. ثم تزينت وارتديت أجمل ملابسى النهارية وقلت لسائق التاكسى:

ـ الكورال بيتش من فضلك.

كان «مارون» بانتظارى أمام الفندق.. ودون أن نتكلم كلمة واحدة اتجهنا إلى حوض السباحة.. وعند ذلك أشار بعينيه إلى أحد الأركان قائلاً:

ـ هذا هو ما تريدوين رؤيته.. على حسن سلامة..!!

* * *

كان حوض السباحة كبيراً على شكل حدوة الحصان.. يحيط به مبنى أبيض اللون مكون من ثلاثة طوابق تطل كل غرفة الخمس والتسعين على الحوض.

لقد اختار «سلامة» هذا الفندق بالذات لأنه مُؤمَّن جيداً.. ومن الأمور العادية أن توجد ثلاث سيارات عسكرية حول الفندق لحماية «الأمير الأحمر».. حيث يقوم حراسه بتأمين موقف السيارات ومداخل الفندق ومخارجه وحدائقه الداخلية.. أما فى الحجرة المطلة على الحوض وهى بالدور الأرضى.. فيكون «سلامة» دائماً بمفرده.. يحمل مسدسه الأتوماتيكى ولا يغفل عنه أبداً.. وفى زاوية بعيدة كان هناك ثلاثة من رجال الحرس على أهبة الاستعداد لمجابهة أى طارئ.

فى ذلك الوقت كان «سلامة» فى الثالثة والثلاثين من عمره.. رياضى.. وسيم.. أنيق.. تزوج من «جورجينا رزق» عندما كان عمرها واحد وعشرون عاماً.. وهى فتاة جميلة تنحدر من أسرة مسيحية فى بيروت لأب لبنانى وأم مجرية.. انتخبت فى السادسة عشرة ملكة جمال لبنان.. وبعدها بعامين اختيرت ملكة جمال العالم.. وكانت الوحيدة من بلاد العرب التى دخلت مسابقة «ميامى بيتش».

هكذا أصبحت «جورجينا رزق» أشهر امرأة فى العالم.. يحلم بها كل الرجال.. وكان الجميع يريد التعرف على الفتاة ذات الشعر الأسود الطويل.. والعيون الخضراء.. والفم الكبير.. والجسد الأسطورى.. حتى «جيمى كارتر» حاكم ولاية جورجيا وقبل أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة.. تحققت أمنيته وظهرت صورة له مع ملكة جمال الكون وهى ترتدى فستان السهرة الأسود العارى الأكتاف والصدر.

كانت «جورجينا رزق» قد انشغلت بالفتى الوسيم مفتول العضلات ذى الجسد الرياضى الممشوق.. وانشغل بها هو أيضاً.. وبرغم زواجهما إلا أنه كما تردد.. لم يمانع فى اختبار رجولته التى لا تقاوم مع نساء أخريات.

وها هى «أمينة المفتى» عميلة الموساد تقف أمامه وجهاً لوجه بشكل لم يكن متوقعاً.. وحيث رتبت الموائد حول الحوض وعلى مقربة منه اقترب رجلان من حراسه تنتفخ أجنابهما بالسلاح..!

رسمت «أمينة» صورته فى خيالها وحفظتها جيداً.. وكانت كثيراً ما تلتقى بسلامة الذى اعتاد رؤيتها.. وابتسامتها. وجمالها الهادئ البسيط.

وذات مرة وصل «سلامة» إلى الفندق واتجه إلى حجرته.. لكنه عرج فجأة إلى مائدة «أمينة» وانحنى على ظهر المقعد المواجه لها وسألها فى أدب عدة أسئلة.. ثم سحب المقعد وجلس قبالتها لأكثر من نصف الساعة.

* * *

وعن ذلك اللقاء المثير تقول «أمينة» فى مذكراتها:

- فى ذلك اليوم الحار من أواخر تموز.. تشوقت لترطيب جسدى فى حوض السباحة بالكورال بيتش.. حجزت إحدى الغرف بالفندق وارتديت البكينى البرتقالى.. وبعد حمام لمدة ساعة واحدة تقريباً أحسست برغبة فى الخروج من المياه.. وبينما كنت أرفع كأس العصير البارد إلى فمى.. رأيته أمامى.. إنه «سلامة»..!

سرت رعشة فجائية بأوصالى عندما جاء إلى مائدتى محيياً.. وبدأ بأن عرفنى بنفسه على أنه رجل أعمال فلسطينى.. ولمحت من بعيد ثلاثة حراس وقفوا متباعدين فى حالة انتباه وعيونهم تتجه ناحيتنا.. ولما سألنى عن نفسى أجبته بجرأة مصطنعة.. فجلس إلى مائدتى بعدما عرف بأننى طبيبة أردنية متطوعة لخدمة الفلسطينيين.. فأثنى على شاكراً اهتمامى بقضية بلاده وشعبه.

ومنذ ذلك اليوم لازلت أذكر رعشة اللقاء مع الفتى الوسيم الذى كان «عرفات» يعده ليتولى قيادة منظمة التحرير من بعده.. وحديثه الرائع الذى جذبنى إليه بكل كيانى ومشاعرى.. وقلت فى نفسى: هنيئاً لكِ يا ملكة جمال الكون ذلك الشاب الرائع الذى تطفح منه الرجولة والوسامة معاً..!

* * *

١٩ آب/ أغسطس ١٩٧٣:

تعددت لقاءاتى بسلامة فى الكورال بيتش.. كنت أناديه باسمه الذى عرفنى به «كمال ياسين» متحاشية فتح أى حوار معه يتصل بالسياسة.. وحريصة أقصى درجات الحرص إذا سألنى عن رأيى فى أية قرارات فلسطينية.. لكننى كنت أظهر سعادتى عند الإعلان عن أية عملية فدائية ضد الإسرائيليين.

لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من سؤاله عن هؤلاء الحرس الذين يرافقونه حتى فى مثل هذه الأماكن العامة برغم أنه مجرد رجل أعمال فلسطينى.. فأجابنى بأنه رجل ثرى يتبنى العديد من المشروعات الحيوية الفلسطينية.. وبالتالى هناك أعداء له حيث تجيئه رسائل تهديد من أشخاص كثر.. لذلك كان عليه أن يحتاط لمثل هذه الأمور.

لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من سؤاله عن هؤلاء الحرس الذين يرافقونه حتى فى مثل هذه الأماكن العامة برغم أنه مجرد رجل أعمال فلسطينى.. فأجابنى بأنه رجل ثرى يتبنى العديد من المشروعات الحيوية الفلسطينية.. وبالتالى هناك أعداء له حيث تجيئه رسائل تهديد من أشخاص كثر.. لذلك كان عليه أن يحتاط لمثل هذه الأمور.

تغابيت وأنا أعلن اتفاقى معه فى الرأى.. ونظراً لعلاقاته الوثيقة بالقيادات الفلسطينية طلبت منه مساعدتى فى منحى التصاريح اللازمة لزيارة مخيمات اللاجئين فى مدينة «صور» للاطلاع على أحوال المستشفيات هناك فى «البرج الشمالية و«الرشيدية» و«البص» أشهر مخيمات الجنوب اللبنانى.

وبواسطة «سلامة/ كمال ياسين» انفتحت أمامى كل الأبواب المغلقة.. إذ أصبحت محل ثقة الفلسطينيين... وتطورت علاقاتى بالقادة الكبار حتى وصلت إلى الزعيم «ياسر عرفات» شخصياً.. ولما دخلت مكتبه لأول مرة ارتجف بدنى.. وصافحته بكف مرتعشة باردة ذلك لأن الدم هرب من أوردتى وشراييني... وقال لى يومها:

- إننا نفخر بالمتطوعات العربيات من أمثالك.. فأنتن سيدات فضليات نبذن مباهج الحياة من أجل الشعب الفلسطيني ولاجئيه.. هؤلاء الذين يعانون الأمرين فى مخيمات ضيقة وبيوت كالأكواخ تفتقد أبسط مظاهر الحياة.. ومستشفيات بحاجة إلى عونكن..!

وبالتصريح الذي يضمن لي التحرك في أي مكان.. انخرطت في صفوف المقاومة أضمد الجروح للمصابين.. وأبث فيهم الإرادة والحماس لإرهاق العدو الغاصب.. وقمت بعدة زيارات إلى الجنوب للإطلاع على أوضاع اللاجئين فى المخيمات.. فكنت عيناي تعملان بدقة في التقاط الصور وتخزينها.. وتحولت أذناى إلى أجهزة تسجيل متطورة.. وباتت ذاكرتى من القوة بحيث تحولت إلى آلة جبارة لا يرهقها تزاحم المعلومات وتنوعها.. وكذا رسم الخرائط لشتى المواقع التى

زرتها بدقة كبيرة.. وحفظ أسماء وأنواع الأسلحة وأساليب التدريب.. وأسماء القادة الذين يتولون التدريب البدنى والعسكرى لشباب المخيمات والمتطوعون.

* * *

١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣:

أدمنت استجلاء أوضاع الفلسطينيين مستغلة ثقتهم بى.. وكنت أسجل يوماً بيوم ما كنت أتحصل عليه من معلومات.. حيث أضعها فى صندوق البريد الميت[١].. أو أرسلها إلى مكتب «الموساد» فى «ستوكهولم».

وأذكر أننى فى إحدى المرات كنت أحمل وثائق سرية وتقارير خطيرة.. وذهبت لمقابلة «سلامة/ كمال ياسين» بالفندق بعد أن تأخرت فتاة قبرصية عميلة للموساد كانت ستأخذ الأوراق منى.. لقد كانت حقيبتى مكتنزة بأربعة وعشرون ورقة من أوراق البلوك نوت الكبيرة.. وبينما يأكلنى التوتر لتأخر زميلتى.. فاجأنى الشاب الفلسطينى الوسيم بمجيئه مبكراً قبلما أتمكن من الدخول بالأوراق إلى الحمام لتسليمها لزميلتى التى وصلت حال وصوله.. وكانت ورقة واحدة منها فقط.. كفيلة بأن يفرغ «سلامة/ كمال ياسين» رصاصات مسدسه فى صدرى.. وهو الذى قتل بنفسه عشرات الجواسيس من الفلسطينيين الذين أغوتهم الموساد من قبل.

لقد كنت أجلس إليه بأعصاب من فولاذ.. وعلى مقربة منى كانت زميلتى القبرصية تكاد تموت هلعاً.

ولما انصرف «سلامة» دخلت الحمام وأغلقت الباب ولم أستطع منع نفسى من البكاء بشدة.. وأفقت على نقرات خفيفة لأصابع زميلتى التى كانت ترتجف هى الأخرى وقد امتقع لونها.. فسلمتها المظروف بشكل سريع وخرجت لا أدرى

(١) صندوق البريد الميت ليس صندوق بريد بالمعنى المعروف.. لكنه مخابراتياً عبارة عن مكان محدد سلفاً توضع به الرسائل الوثائق.. فقد يكون شق فى شجرة.. أو سيفون حمام بمطعم أو بفندق.. أو حفرة فى حائط قديم يمكن سدها بطوبة.. وربما يكون صندوق البريد الميت هذا فتحة غير ملحوظة فى مقبرة..!!

كيف مشيت حتى خارج الفندق.. فساقاى كانتا لا تقويان على المشى.. وبدأ ميزان اتزانى مختلاً.

وفى اليوم التالى زرت مكتب «ياسر عرفات» لكى أخفف من وقع الصدمة التى حدثت فى الكورال بيتش.. وقدمت إليه تقريراً يضم العديد من السلبيات فى الجنوب.. فاهتم بمقترحاتى وأفرد لى مساحة عريضة من الوقت للاستماع إلىّ.. ثم أوصى مدير مكتبه فى الحال بالتحقيق فيما جاء بالتقرير.. وتلافى أية أخطاء قد تعوق العملية العلاجية فى مستشفيات الجنوب اللبنانى.. وبذلك تقربت أكثر وأكثر من الزعيم الفلسطينى الأول.. وأصبح مكتبه مفتوحاً أمامى دائماً..

وفى اليوم نفسه ذهبت إلى مقهى «الدولشى فيتا» حيث شاطىء الروشة المتعرج الخيالى السحر.. وكان المقهى مزدحماً بالرواد وعثرت على مائدة صغيرة بصعوبة فجلست أرتشف الشاى الأخضر عندما وقفت فجأة سيارة جيب عسكرية أمام المقهى ونزل منها ثلاثة رجال فلسطينيون بدأ أنهم يبحثون عن شخص بذاته.. ولما لمحونى اتجهوا إلىّ وقال أحدهم بحسم:

- نعرف أنك هنا.. وعليك مرافقتنا الآن..!!

كاد فنجان الشاى أن يسقط من يدى.. ولم أقدر على الوقوف أو الكلام.. بينما الرجال الثلاثة ترسل عيونهم سهاماً من توتر تخترق عظامى وتفتت أوصالى.. وبين ذهول رواد المقهى مشيت معهم وأنا اصطدم بالمقاعد والموائد.

كانت السيارة العسكرية تخترق شوارع بيروت بسرعة مذهلة.. فى حين كنت متكورة إلى يمين السائق تنتفض عروقى رعباً.. ويرتعد بدنى كله لهول النهاية التى يسوقونها إليها.

منذ ساعتين فقط كانت قد التقت بالأمير الأحمر «سلامة/ كمال ياسين» عندما كانت تزور «عرفات».. حاول أن يغير جلدته ويبدو كزائر مثلها.. لكن نظرات الاحترام والانحناءات الخفيفة كانت تدل على مكانته.. لذلك لم يقف

معى سوى دقائق معدودة أخبرته خلالها أننى سأذهب لشرب الشاى فى الدولش فيتا.

ترى.. هل اكتشف هذا الفدائى الذكى سرى..؟

نعم.. انفضح الأمر.. وها أنا الآن فى طريقى إلى ساحة الإعدام.

لكن كيف عرفوا الحقيقة..؟

لم أسأل عن سبب اعتقالى.. أو إلى أين سيأخذوننى.. ولم أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة.. لكنت أعلم أن الجالس ورائى يوجه مسدسه نحو قلبى إذا بدرت منى أية بادرة.. أو حركة عفوية قد يفهم منها أننى أنوى القفز من السيارة.

فقط.. انحصر تفكيرى فى شىء واحد.. ألا وهو تحين الفرصة المناسبة للبحث عن كبسولة سم «السيانيد» التى خبأتها بين خصلات شعرى بواسطة دهان لاصق.. فالانتحار أفضل كثيراً من الإعدام لأنه موت اختيارى خالص.

كان الأمر شاقاً للغاية.. فحتماً سيكتشف الجنود المدججون بالسلاح أمر كبسولة الموت.. وعندها سيضطرون إلى تكبيل يدى إلى الخلف وتضيع بذلك فرصة الانتحار الوحيدة.

وفى غمرة أفكارى وأحزانى.. اكتشفت أننى تبولت على نفسى دون إدراك منى.. فأحسست بالمهانة والمذلة.. وإذا بالسيارة تعرج بى فجأة إلى الطريق المؤدى إلى شاتيلا.. وعند ذلك سألت نفسى:

- هل أقام الفلسطينيون معتقلات للخونة بداخل المخيمات..؟

وكيف سأنزل من السيارة وملابسى مبللة بهذا الشكل المخزى..؟

وهل سيضحكون من ذلك أم سيتجاهلون لحظة الضعف هذه التى تصيب الخونة قبيل إعدامهم..؟

وعندما كانت غارقة فى بولها واضطرابها.. انطلق صوت أحد الجنود من خلفها يحث السائق على أن يزيد من سرعته لأن الجرحى الذين جىء بهم من

الجنوب كثيرون وحالتهم تحتاج إلى إسعافهم بسرعة.

أفقت مما أنا فيه من هلع وسألت الجندى عن الأمر..

فقال لى:

- هناك مصابين حالتهم حرجة.. من جراء القصف الإسرائيلى على معسكر فلسطينى بالقرب من مخيم «عين الحلوة» فى صيدا.. ونظراً للعجز الكبير فى الأطباء المتطوعين.. دلهم على مكانها مكتب الأمن الفلسطينى[1].

عند ذلك استجمعت شتات عقلى وصرخت:

- غبى.. غبى.. كلكم أغبياء وتيوس.. أهكذا تستدعون ضيوفكم..؟

أقسم لكم أننى سأشكو إلى الزعيم «عرفات» شخصياً.. هذا التصرف الهمجى الذى قمتم به حتى أننى أصبت بالهلع و... ولم أستطع إكمال العبارة.. فقد كانوا سيعرفون ما كنت أقصده عندما أغادر السيارة.. ولم أسمع تقريباً كلمات الإعتذار التى نطقوا بها لأننى شغلت بالبحث عن حل لمشكلتى.. وما إن توقفت السيارة أمام عيادة مخيم «شاتيلا».. حتى طلبت منهم النزول من السيارة وإحضار أية ممرضة بالعيادة.. ولما جاءت الممرضة قلت لها:

- أريد ملابس نسائية نظيفة.. وبطانية.

وبوساطة البطانية قامت الممرضة بتغطية زجاج السيارة حيث قمت باستبدال ملابسى.. ثم فتحت الباب ونزلت وكانت نظرات الجنود الثلاثة تنم عن إدراكهم التام لما حدث لى.. فقد أحنوا رؤوسهم حتى لا أرى وجوههم احتراماً لى.. بيد أننى كنت ألتحف بالخجل لأنهم كانوا يقفون بالقرب من طريقى عندما كنت أصعد درجات سلم العيادة.. وتخيلت ضحكات السخرية التى سيشيعوننى بها وهم يتابعون خطواتى من الخلف.

هذه الواقعة.. لم تسقط أبداً من ذاكرتى.. إذ زرعت لدىّ شعوراً قاتماً

(١) كان «سلامة» هو الوحيد الذى يعرف مكانها فى ذلك الوقت فى مقهى الدولشى فيتا.. وهو الذى دلهم عليها عندما علم بوجود عجز فى الأطباء مع كثرة عدد المصابين..!!

بالخوف يذكرني بالنهاية المرتقبة فى بيروت إذا ما ازددت ثقة بنفسى وتعاظمت هذه الثقة فأتخيل نفسى جاسوسة عبقرية ذات ذكاء حاد.. تمارس نشاطها بين أناس لهم طبيعة خاصة.. وظروف خاصة أيضاً.. حتى أنهم يشكُّون فى كل غريب وافد.

لذلك كان علىّ أن أغسل هذا الخوف الملتصق ببدنى والذى تخلل أعماقى وأنسجتى.. وكانت لدى رغبة كبيرة فى الحصول على جرعات عالية من الهدوء.. والأمان.. والحنكة.. والتعلم.. وما كان ذلك ليتأتى فى إسرائيل.

وقبلما أغادر بيروت التقيت برجل الأعمال «كمال الياسين».. فأخبرته وأنا أبكى.. ما جرى لى مع القوات الفلسطينية التى أشعرتنى بأننى أقاد إلى الإعدام لسبب لا أعرفه.. حتى إننى فقدت السيطرة «بيولوجيا» على نفسى..

كنت أعرف أنه ما حدث لى تفصيلياً سيعرض عليه.. لذلك فضلت أن أقول له بنفسى - كصديق مقرب - ما حدث.. وأصف له معاناتى النفسية لأسلوب اقتيادى اللاإنسانى.. حتى أننى لم أعد بقادرة على البقاء للعمل فى بيروت.. لذلك سأتغيب بعض الوقت فى الأردن والنمسا لإنجاز بعض المتعلقات قبلما أعود إلى هنا.

هكذا أنهيت عملى فى لبنان لفترة مؤقتة... واستأذنت فى السفر إلى فيينا لتسجيل اسمى لدى منظمة الطفولة الدولية.. وكنت فى غاية الشوق لشقتى هناك حيث الذكريات الرائعة التى لا تنسى وبمرور الوقت تتأجج وتزداد اشتعالاً وعنفاً...!!

* * *

القسم العشرون
فى النمسا (٩)

«وعندما وجدته ممدداً إلى جوارى.. تذكرت تفاصيل سهرة الأمس.. وهذه المرة انتابنى الخجل الشديد.. فعلاقتى العابرة هذه كانت بعيدة عن مهمتى الأصلية فى بيروت.. إنما كانت نزوة حقيقية..!!»

٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣:

غادرت بيروت إلى فيينا.. وفى شقتى الخاوية عشش الصمت على كل الأشياء.. وعلى الفراش البارد أهاجتنى الذكريات وضربت عمق وعيى.. فأخذت أطوف بالغرف والأركان أتحسس الأرائك والأدراج وأحذية «موشيه» القديمة.. وقلبت صفحات ألبوماتى وأنفاسى المتلاحقة تبعث الاضطراب والشجن.

جاءتنى «سارة» بعد ساعة من اتصالى بها.. كانت تعمل بأحد معاهد تعليم اللغة الألمانية للأجانب.. وبكيت بلوعة بين أحضانها حتى ظنت أننى سأموت لا محالة.. وعرضت علىّ أن أسافر معها إلى «إنسبروك» لزيارة الأسرة هناك.. حيث يجرع والداها الأسى ويعتصرهما المرار لفقد «موشيه».. فوافقت.

هناك.. رأيتهما فى حالة نفسية سيئة.. ويبدو أننى أردت طمأنتهما عندما تخليت عن أهم قواعد الجاسوسية.. ومعى السرية المطلقة.. إذ تفاخرت أمامهما بأننى فى بيروت خصيصاً للثأر لموشيه.. وفى كل يوم يسقط عشرات القتلى من الفلسطينيين والعرب بسبب انتقامى دون رحمة بهم أو شفقة.. كما قصصت عليهما الكثير من أسرار عملى فى بيروت.. وما كنت أعلم وقتها أن «سارة» المنخرطة فى حياة المجون وجماعات الهيبيز.. تصادق شاباً فلسطينياً قتل اليهود والده فهام فى بلاد الله الواسعة يتيماً.. بائساً.. متسكعاً.. لا هدف له أو وطن.

بقيت ثلاثة أيام فى «إنسبروك» قبل أن أعود إلى شقتى حيث كنت قد رتبت نفسى للسفر إلى إسرائيل.. ولا أعلم بالضبط ما سبب هذا الشعور المؤلم بالكآبة الذى تمكن منى.. حيث أننى فشلت مرات فى معالجة الباب لارتعاش بدنى منذ أن بدأت أصعد الدرج.

وعندما أضأت الأنوار واجهتنى صورة «موشيه» الكبيرة باللباس العسكرى.. فمسحت زجاج الإطار وقبلته.. وعلقت باقة من زهور الليلاك والبانسيه التى كان يحبها إلى جواره.. لحظتئذ خيل إلى أن ابتسامته الرائعة تفيض بالعتاب.. بل

هى كانت كذلك.. فتذكرت.. يا لغبائى.. كيف دفعته بنفسى إلى نهايته.. عندما ألححت عليه للهجرة إلى إسرائيل.

حاولت أن أستعيد ابتسامته فلم أنجح.. ولحظتها.. ركعت أمامه على ركبتى وأجهشت بالبكاء.. راجية إياه ألا يلومنى أو يغضب منى.. فأنا أنتقم له.. وآخذ بثأره.. ولن أهدأ حتى أشهد بنفسى بحور الدم المراق تعلوها الأشلاء الممزقة.. وأشهد بنفسى ألف امرأة عربية تبكى زوجها.. وألف أم فقدت ابنها.. وألف شاب بلا أطراف.

وعندئذٍ فقط لمحت ابتسامته وقد ارتسمت على وجهه من جديد.. وأحسست كما لو أن يديه كانتا تحيطان بى.

فى هذا اليوم أيضاً انتابنى شعور بالخجل لأننى خنت «موشيه» مع «مارون» و«مانويل».. وتركت نفسى لأفرايم يعبث بى كما يشاء.. ومهما كانت الظروف كان من المحتم ألا أخون.. إلا أننى اضطررت لذلك تحت ضغط ظروف العمل الانتقامى الذى أقوم به.

وفى أحيان كثيرة كنت أتساءل:

- ما خير هذه العلاقات الجنسية طالما سيقربنى ذلك من تكشف أسرار الفلسطينيين الذين يعرفون بلا شك قصة الطائرة الإسرائيلية التى أسقطها السوريون ولم يعلنوا شيئاً عن قائدها.

كان علىّ أن أنتقم وأنتقم وأنتقم.

انتقم لزوجى الذى اختطفوه منى..

انتقم لعمرى الذى غرق فى أعماق الألم..

انتقم لشبابى الذى يذبل حزناً ويأساً..

ولحياتى التى أفتقدت الأمن والأهل والوطن.

أعيش الآن بلا هدف.. امرأة وحيدة خائفة يتربص بها الموت.. وتقودها

شياطين الفكر السوداوى إلى حيث لا تدرى.

وفجأة خطر لى خاطر.. وقمت فى الحال إلى الهاتف فطلبت شقيقتى «رقية» فى «روما».. ولما جاءنى صوت ابنتها عجزت عن النطق.. وظلت السماعة على أذنى وهى تردد:

ـ من على الهاتف..؟

فما رددت.. وتكرر الأمر عدة مرات على فترات متباعدة حتى سمعت صوت «رقية».. وبمجرد أن قلت لها: «آلو.. أنا».. حتى انفجرت بى صارخة:

ـ هذا ليس الرقم الذى تريدين.. من فضلك لا تعاودى الاتصال بنا لاحقاً.

وصدمتنى صفعة وضع السماعة فى وجهى.. فتتابعت أنفاسى واضطرم قلبى.. وقبلما أتهاوى على أقرب مقعد أصبت بما يشبه الطشاش مع دوار عنيف عاتٍ فشلت فى التغلب عليه أو إزاحته.

بعد هذه المعاناة النفسية المهلكة لم يكن من السهل البقاء فى الشقة بمفردى لوقت آخر فى تلك الليلة.. لذلك خرجت على عجل إلى شوارع «فيينا» العريضة لا أخشى اصطدامى بأردنى يبحث عنى.. واتجهت إلى أحد الكباريهات حيث سمعت موسيق رقصة «الفالس» التى أحياها «شتراوس».. وهى من أشهر الرقصات الجماعية القديمة فى «النمسا» أيام كانت امبراطورية تضم إليها هنجاريا «المجر».

سهرت فى الكباريه الذى لا أذكر اسمه لوقت طويل.. فشربت ورقصت مع شاب سويسرى يدرس الرسم.. عدت به آخر الليل إلى شقتى متحاشية النظر إلى عينى «موشيه».. أما صديقى فقد علق قائلاً عندما رأى الشريط الأسود على زاوية الإطار:

ـ خسارة.

فلم أرد.. أو أفتح معه حواراً يتصل بظروف حياتى أو دراستى أو حتى جنسيتى السابقة.. وتركته يخمن بأننى ربما أكون فتاة هندية أو مغربية.

وفى الصباح عندما وجدته ممدداً إلى جوارى فى استغراق تام.. تذكرت تفاصيل سهرة الكباريه وما جرى بيننا فى شقتى.. وهذه المرة انتابنى الخجل الشديد.. فعلاقتى العابرة هذه كانت بعيدة عن مهمتى الأصلية التى أرسلت لأجلها إلى لبنان.. إنما كانت نزوة حقيقية استعدتها رغبات جسد يتضور شوقاً للعناق والإرتواء.

فاتجهت إلى صورة «موشيه» وكانت الزهور المعلقة قد بدأت تذبل.. لكننى لم أستطع النظر إلى عينيه.. فوقفت أسفل الإطار أبكى خفيضة الصوت والرأس.. وهمست إليه:

- لا أظن أنك تنكر علىّ لحظات سعادة قليلة يا حبيبى.. فأنا بشر ولست ملاكاً.. ومشاعرى التى أكنها لك أعظم من أن توصف.. ورغبتى الجسدية مجرد نزوة لا صلة لها بالمشاعر الفياضة التى أكنها لك..!

كنت أعرف أنه لن يصدقنى.. فالحب هو الحب.. والخيانة هى الخيانة.. وشتان بينهما.

وجفلت عندما وضع صديقى العابر كفه على كتفى.. ويبدو أنه قرأ وعرف قصتى بمجرد أن لمح دموعى.. وندمى.. وقبلما يغادر الشقة احتضننى من الخلف برقة وقال:

- آسف...!!

هكذا تحاشى النظر إلى وجهى.. وصفق الباب خلفه فى هدوء.. وخرج.

وعندما كنت أرتب الفراش لمحت أسفل الوسادة مبلغاً من المال.. فتناولته باندهاش وكان مائتى شلن نمساوى.

وتذكرت.. واستوعبت.. فصرخت فى جنون:

- سافل.. قذر.. أيحسبنى مومساً أبيع جسدى لأعيش بعدما مات زوجى..؟!

القسم الحادى والعشرون
فى إسرائيل (٢)

«وصلت إلى بيروت وبين أمتعتى جهاز راديو لماركة عالمية.. هو بالأصل جهاز لاسلكى يصعب اكتشافه.. إضافة إلى المصحف الشريف المذهب وقد نزعت عدة صفحات منه واستبدلت بصفحات أخرى تحمل الشيفرة السرية..!!»

٢١ أيلول/ سبتمبر ١٩٧٣:

غادرت «فيينا» صباح الأمس إلى «تل أبيب».. حيث ملاذى الآمن الذى أشعر فيه بالأمان بعيداً عن «فيينا» وما قد ألاقيه فيها من مفاجآت غير سارة.

حقيقة لم يكن لى فى إسرائيل أى أصدقاء أستطيع التحدث والالتقاء بهم سوى رجال «الموساد».. لكن لا يهم طالما كنت أجد من يسأل عنى ويهتم بى.. فلما فوجئوا بى وقد علتنى مسحة قاتمة من الهم والأرق والإرهاق.. طلبوا منى أن أستريح بفيلتى بعض الوقت.. وحتى لا تنهشنى الوحدة وتزيدنى ضعفاً.. استأذنوا فى أن تقيم معى فتاة يهودية عراقية تدعى «زهيرة».. فوافقت على اقتراحهم.

ولما جاءت رفيقتى التى كانت إحدى العاملات فى الموساد اتضح لى أنها طبيبة نفسية حصلت على شهادتها من إحدى الجامعات الأمريكية.. فسكت على مضض وحاولت الاندماج مع «زهيرة» التى عملت الكثير والكثير لإقناعى بأن ما حدث مجرد حادث عارض ومن الطبيعى أن يحدث.. فإسرائيل محاطة بالأعداء من كل ناحية ولابد من ضحايا.

* * *

وفى فيلتها بمدينة «ريشون لتسيون».. عملت «زهيرة» على تهيئتها للإندماج فى المجتمع الإسرائيلى تمهيداً لاستقرارها النهائى.. بما يعنى الاكتفاء بخدماتها السابقة كعميلة للموساد فى بيروت نظراً لظروفها النفسية التى قد تعرضها للسقوط.. فتخضع إسرائيل لضغوط عديدة وتكون هناك فضيحة دولية.

كانت مهمة زهيرة ألا تفاتحها فى قرار إنهاء خدمتها.. فهى ليست منوطة بذلك.. ولكن تنحصر مهمتها فى إذابة جدران العزلة النفسية التى تحيط بآنى موشيه بيراد.. وذلك بدمجها شيئاً فشيئاً باليهود ذوى الجذور العربية.. وخلق محيط اجتماعى موسع حولها يضم نخبة مختارة بعناية من هؤلاء.

هكذا حدثتها رفيقتها عن اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل قادمين

من شتى الأقطار: مصر وسوريا والأردن والمغرب وليبيا والعراق وغيرها.. وكيف استطاع هؤلاء الاندماج مع الجنسيات الأجنبية الأخرى حتى استساغوا العيش فى المجتمع الجديد المتحرر الذى لا يعرف الكبت أو القيود مثلما فى البلاد العربية التى تعيش حياة البداوة والتخلف.. بدوى المحافظة على التقاليد والموروثات والأعراف.. وهى كلها مسميات لا صلة لها بالحقيقة.. لكنها تؤدى إلى التؤخر والجهل.

حدثتها «زهيرة» كذلك عن المسيحيين العرب الذين فروا إلى إسرائيل طلباً للحرية والأمن.. ومن بين الذين ذكرتهم النقيب طيار «منير روفه» الكاثوليكى العراقى.. الذى فر بطائرته الحربية ميج ٢١ إلى إسرائيل نظراً للاضطهاد الذى طاله فى بلاده[١].. وكذلك جاءت أسرته للعيش معه..!!

وعندما أبدت «آنى» رغبتها فى لقائه.. عرضت «زهيرة» الأمر على رؤسائها فجاءتها الموافقة.. وتم ترتيب اللقاء فى منزل «روفه» بين زوجته وأولاده.

كانت «آنى» فى شوق بالغ للقاء الطيار العراقى الهارب.. ليس لأنه عربى مثلها ولكن لتسأله عما يجول بخاطرها من تساؤلات قد تفيدها معرفة إجاباتها.

وبابتسامة عريضة بباب منزلهما رحب «منير» وزوجته بضيفتهما وقاداها إلى الداخل.

فى ذلك الوقت كان «روفه» فى الثلاثينيات من عمره.. أسمر.. واسع العينين والجبهة غزته مقدمات الصلع، أما زوجته «مريم» فكانت تصغره بنحو خمس سنوات.. طويلة.. خمرية.. ذات شعر انسيابى ناعم طويل.. وفم واسع.. فلجاء.. لها صوت خشن كأغلب العراقيات..!

كانت مظاهر الثراء بادية جداً على فيلتهما.. ورغم ذلك جاءت مريم بالشاى والبسكويت بنفسها.. ولما سألتها «أمينة» فى شىء من الحرج عن خادمتها.. أجابتها

(١) فى ١٦ أغسطس ١٩٦٦ هرب «منير روفه» بطائرته الحربية إلى إسرائيل مقابل مليون دولار.. فى عملية مخابراتية تعاونت فيها الاستخبارات المركزية مع الموساد.. وتفاصيل عملية الهروب جاءت بكتابنا: (العملية ٠٠٧ وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل. عن مكتبة مدبولى ـ القاهرة ٢٠٠٢).

«مريم» بأن المجتمع الإسرائيلى مازال بحاجة إلى تطور.. فهو ينظر إلى المرأة التى تجلب خادمة نظرة اتهام بالبرجوازية.. لذلك فهى تقوم بمهام المنزل بنفسها.

أما «منير» فقال ردّاً على سؤالها عن حياته فى إسرائيل.. أنه مر بحياة عصيبة فى البداية.. حيث كان يجهل اللغة العبرية ولم يكن له عمل أو أصدقاء.. ويتابعه كظله رجلاً أمن فى الشارع والبيت.. ثم عمل لبعض الوقت فى جيش الدفاع.. لكنه اتجه بعد ذلك إلى العمل الحر حيث أسس وكالة إعلانية كبيرة خاصة بعد اسمها: «الأضواء» بالعربية و«حانوكا» بالعبرية.. وحتى لا تصاب زوجته بالملل فقد أشركها معه فى العمل وهى الآن مديرة للعلاقات العامة بالشركة.

بعد ذلك تحدثا فى عدة نواح حياتية تتصل بشكل الحياة فى إسرائيل.. ثم سألته فجأة:

ـ وأنت كطيار سابق محترف لم تنس بلاشك معلوماتك عن الطائرات والحوادث التى قد يتعرض لها الطيارون.. فهل لك أن تشرح لى بأمانة وبشكل علمى وتقنى: كيف يفشل طيار محترف فى القفز إذا أصيبت طائرته فى الجو؟ وهل تتحول الطائرة «سكاى هوك» الأمريكية إلى مقبرة لقائدها قبلما تتهاوى..؟!

كانت تريد الحصول على إجابات محددة ومنطقية يستسيغها العقل.. فربما استمرت فى التعلق بأمل عودة زوجها ثانية.. أو نسيان الأمر نهائياً بما يعنى عدم التفكير فى إمكانية وجوده حياً فى بقعة ما.. وربما فى السجون السورية.

إن الإجابات التى حصلت عليها من ضباط «الموساد» مبهمة ولا تحمل نفياً تاماً أو تأكيداً يرسخ الأمل.. وكان هذا ما يحيرها ويرهق عقلها.

ولما شرع «روفه» فى الإجابة انتبهت كل حواسها لشروحه المستفيضة.. وأوضح لها أن الطائرة التى كان يقودها زوجها ـ وهى "Sky Hawk- 4H" اعتمد تصميمها على حماية الطيار.. فكرس القائد وهو من طراز «أسكاباك A- C3» الذى يمكن إطلاقه عند الضرورة القصوى من ارتفاع الصفر وبسرعة

الصفر أيضاً.

أما كابينة القيادة فهى مدرعة تدريعاً جيداً فى المقدمة والمؤخرة والجانب الأيسر.. وسمك التدريع حوالى ١٨مم بما يوفر الحماية اللازمة للطيار.

وبعد شروح طويلة قال إن زوجها إما أصيبت طائرته بصاروخ «سام ٦».. وفى هذه الحالة إما أن يكون أسيراً لدى السوريين.. أو أن صاروخاً من طراز Atoll ـ جور جو أصاب كابينة قيادته الفقاعية فانفجرت به الطائرة فى الجو لأن الصاروخ أسرع بالطبع من اندفاع الكرسى القاذف.

هذه الإجابات الأكثر وضوحاً وشروحاً.. تعطى ذات الإجابات التى سمعتها من قبل.. فلا هو أوضح نافياً أو مؤكداً.. وبقى السؤال كما هو:

ـ هل «موشيه بيراد» ما يزال حياً فى قبضة السوريين..؟

ـ هل انفجرت به الطائرة فى الجو.

لكن فى الحالة الثانية كان لابد أن يعثر السوريون على بعض أشلائه.. ومن ثم يعلنوا الخبر وهم يذيعون نبأ إسقاط الطائرة.

وهذا ما لم يحدث حتى بعد عثورهم على أجزاء الطائرة التى تناثرت على مساحة ٥٠ كيلو متراً مربعاً!

وبعد هذا اللقاء المثير.. عادت أمينة إلى فيلتها أكثر قلقاً.. وغضباً.. يحفها الإصرار على الذهاب إلى بيروت بدافع الانتقام والثأر لزوجها.

لكن صدمتها كانت أشد مرارة وقسوة.. عندما زارها مسؤول بالموساد.. قال لها بعد حديث طويل عن فدائيتها وإخلاصها للعمل فى لبنان:

ـ سيدتى.. بعد هذا العناء الكبير الذى قمت به فى لبنان وسوريا.. يرى رؤسائى فى الجهاز أنه من الواجب العمل على إراحتك.. وحمايتك.. لذلك جئت إليك لأعرض رغبتهم فى الوقوف على ما تريدينه.. ولأطلعك أيضاً على عرض العمل الجديد الذى اخترناه لك.. وهو بلا شك عمل رائع ومثير ويناسب مع...

قاطعته «آنى» لاهثة:

ـ أكاد لا أفهم شيئاً.. أتقصدون إنهاء عملى فى بيروت؟

وجاء رده أكثر حسماً:

ـ وفى الموساد سيدتى...!!

وتقديراً لجهودك سوف تحصلين على..

لم تتركه «آنى» يكمل جملته.. إذ انطلقت بكل الغضب الكامن بأعماقها تقول:

ـ لن أقبل أبداً.. لن أقبل ذلك يا سيدى مهما كان الثمن الذى تعرضونه.. فأنا ما جئت لإسرائيل هذه المرة إلا لأننى اهتززت قليلاً أمام موقف استدعائى الفجائى فى بيروت.

إن الأسلوب المرعب الذى تعاملوا به معى أشعرنى بأن أمرى قد كشف.. نعم.. ولا أنكر أننى بحثت عن كبسولة الموت لابتلعها.. لكننى كنت قد خبأتها جيداً فى شعرى ولو كنت عثرت عليها لتناولتها فى الحال.

فلماذا لا تقدرون هذا التصرف من امرأة غير مدربة على مثل هذه الأمور.. لقد علمتمونى فى «فيينا» أشياء كثيرة عن الحس الأمنى والتمويه والتشفير وتدريبات الذاكرة وخلافه.. لكنكم لم تعدوننى لمواجهة مثل هذه المواقف الصعبة.. تاركين لى حرية التصرف حسبما يتراءى لى وقتها.

وأضافت أمينة وقد تبلل وجهها توتراً:

ـ إننى لم أدرب جيداً يا سيدى حتى فى مواجهة المحققين إذا ما تم سقوطى وكأن احتمال سقوطى شبه مستحيل..! فلماذا تستغنون عن خدماتى لكم بمثل هذه السهولة؟ ألا تعرفون أننى فرصة ذهبية لكم.. لقد دخلت مكتب «عرفات» وجلس على مائدتى «على حسن سلامة».. الذى تطاردونه فى كل الدنيا.. وتجولت فى مخيمات اللاجئين وجئتكم بالكثير من أخبار المقاومة التى تهدد مستعمراتكم فى الشمال.. كذلك أطلعتكم على أشياء كثيرة كانت خافية عليكم..

كل ذلك دون أن أقبض منكم سوى ألفى دولار.. فهل نسيتم ذلك..؟

وهل نسيتم أننى خلعت ملابسى ووهبت جسدى للوصول إلى ما أريده لأجل إسرائيل..؟

هتف الرجل:

- أرجو أن...

صرخت أمينة وهى تكاد تبكى تأثراً وأشارت إليه ليسكت فيما أكملت هى:

- هل تستطيع أن تؤكد لى أن أحد عملائكم جلس وتحدث إلى «سلامة»؟

وهل وصف لك أحدهم مبنى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من الداخل؟

أما أنا فقد التقيت بعرفات ومنحنى تصريحاً بالتحرك ودخول شتى مخيمات اللاجئين والمؤسسات الفلسطينية.. كذلك التقيت والتقى بسلامة مرتين أسبوعياً.

وبواسطة جسدى هذا - «رفعت عباءتها فكشفت عن عورتها حتى لقرب صدرها» - جئتكم بالتليفونات السرية للقادة الفلسطينيين ليتنصت جواسيسكم هناك عليها.

وقالت وهى تنتحب وينتفض بدنها فى انفعال:

- لقد خلعت ثيابى لكل كلب نتن الرائحة وجعلته ينتهك جسدى لأجلب لكم الأسرار.. والوثائق.. والمعلومات.. وفى النهاية تقولون لى ببساطة: شكراً..!!؟

أجهشت بالبكاء فيما قال الرجل وهو يفرك يديه خجلاً:

- سيدة «آنى».. نحن ما فكرنا إلا بحمايتك.. فسقوطك فى لبنان فضيحة كبرى وصفعة شرسة لنا ستتضر كثيراً بسمعتنا.. وفى الوقت نفسه ستريك باقى رجالنا المنتشرون فى كل مكان.. لذلك كان الرأى الذى استقر عليه خبراؤنا هو ضرورة إنهاء مهمتك فى لبنان - على الأقل فى الوقت الحاضر - ثم يعاد بحث

الأمر فى أقرب وقت.

قالت «آنى» التى كان ترتجف حنفا وقد امتقع لونها واكفهر الوجه الجميل المستدير وقد غشاه اصفرار واضح:

ـ هل تستطيع أن تجيبنى يا سيدى وتقول لى: لماذا أنا فى إسرائيل الآن..؟ لأننى كنت لا أجد مأوى عند أهلى فى عمان..!؟ أم لأننى أحببت يهودياً وتزوجته..!؟

إن فيلتنا فى الأردن أجمل بكثير من هذه الفيلا.. وكان لى قريب مليونير يطاردنى ليتزوجنى.. ولا أقول ذلك لإحساس بالندم.. لا.. فأنا بعت كل شىء من أجل «زوجى» بعت وطنى وأهلى ودينى لأكون معه.

ولأنه مات على أيدى العرب.. فلن أكف عن الثأر لزوجى.. فلماذا تحرموننى من تحقيق رغبتى بالعمل لصالحكم..؟

أجاب:

ـ الأمر ليس كما تعتقدين سيدة «آنى».

ردت أمينة بصوت كفحيح الأفعى ينفث الغضب والكراهية كالسم:

ـ أبلغ رؤسائك أننى قررت ألا أتوقف أبداً.. حتى ولو أدى الأمر لأن أغادر إسرائيل إلى الأبد.. وعندها قد أفكر بعملية انتحارية داخل مكتب عرفات شخصياً.

انزعج الرجل وأسرع فى إنهاء زيارته.. وبلهجة الصدق والإصرار والغضب فى صوتها.. كان لابد من إيجاد حل.. وإلا فهناك كارثة قد تقع.. وفى الحال صدرت الأوامر للمطار بمنع «آنى موشيه بيراد» من مغادرة البلاد.

بشارع كيريا فى تل أبيب حيث يقع مقر الموساد.. اجتمع عدد من الخبراء للوصول إلى قرار حاسم بشأن العميلة المتمردة.. فإما عودتها إلى بيروت بعد خضوعها لعدة تدريبات أمنية.. أو التكتفاء بخدماتها وإبقائها فى إسرائيل.

كانوا جميعاً قد قرأوا تقريراً وافياً عن «آنى موشيه».. والتى تم تصنيفها ضمن الفئة "A".. وهذه الفئة من العملاء يندرج تحتها كل من يعملون فى

البلاد العربية بدون أى غطاء دبلوماسى يحميهم.. وكان ضمن هذه الفئة «إيلى كوهين» الذى أعدم فى دمشق فى ١٨ مايو ١٩٦٥.. وكذلك «فولفجانج لوتز» فى مصر الذى تم اعتقاله فى نفس الفترة تقريباً ونال حكماً بالحبس بعدما أكد للمحكمة أنه غير يهودى وكشف عورته للقضاة ليؤكد أنه لم يختتن كاليهود.

وصف التقرير «آنى موشيه» بأنها تعانى من اضطرابات شخصية.. وتمتلك القدرة التى تمكنها من الانتقال من أحد جوانب الموقف إلى جانب آخر.. وهو ما يعرف فى علم النفس بـ «الاتجاه المجرد» Astract Attitude.. وتتنامى لديها أعراض الكآبة نتيجة لومها الدائم لنفسها.. باعتبار أن ما حدث لزوجها كانت هى السبب فيه.. وعندما تزداد الأعراض حدة تصبح أكثر اكتئاباً وتخوماً.. مما ينمى لديها مشاعر «اتهام الذات» Self - Condemnation.. والمريض فى هذه الحالة فى يأس خطير لأنه مهموم بالماضى.. ويحس أن لا أمل البتة فى المستقبل بسبب الفعلة التى ارتكبها.

هذه المشاعر القلقة المحملة باليأس والألم والمعاناة.. عادة ما تعتصر المريض.. وقد تقوى عنده الرغبة فى الانتحار.

وأشار التقرير إلى أن حالة «آنى» هذه لا ينصح فيها بعلاج عقاقيرى.. حيث لن تنتظر التحسن طوال مدة العلاج بقدر ما تشعر بالتحسن والهدوء فى عملها بالموساد.. ففى ذلك إقناع لها على أن ما تؤديه من عمل.. يمثل قمة الثأر انتقاماً لموت «موشيه» الذى ترسخ لديها أنها كانت السبب فيه.

وبناءً على هذا التحليل رأى فريق من خبراء «الموساد» أن «آنى» ربما تشعر بالزهو Elation فى عملها.. فتتخلى عن حسها الأمنى وتنكشف.. فى حين رأت الغالبية منهم أنها جديرة بالعمل فى بيروت على أن تنال دورات تدريبية مكثفة.. فعند ذلك ستكون أكثر حذراً.. وإقبالاً.. ومهارة..!

وانتهى الاجتماع بالموافقة على عودتها إلى لبنان.

كانوا قبل ذلك قد جاءوا إلى المبنى المركزى.. حيث جلس إليها أحد كبار

الرسامين فى «الموساد».. ومن خلال وصفها للأمير الأحمر «على حسن سلامة» رسم صوراً تقريبية له.. ثم تعهد بها اثنان من الخبراء فقاموا باستجوابها وسؤالها عن كل ما يتصل بسلامة: حرسه.. ملابسه.. مشيته.. لفتاته.. لون شعره.. طريقته فى الكلام... و ... إلخ.

وبعد اختيارها للعودة مجدداً إلى بيروت.. أخضعت لدورة تدريبية تعلمت أثناءها استعمال أحدث ما ابتكره العلم فى مجال أجهزة اللاسلكى.. وبعد نجاحها الباهر تقرر أن تبث رسائلها فى أوقات معينة كل أسبوع.

وفى الثالث من أكتوبر غادرت «تل أبيب» إلى «فيينا» وفى اليوم نفسه حجزت تذكرة على الطائرة المتجهة إلى «بيروت» بعد عدة ساعات.

* * *

تقول «أمينة داوود المفتى»:

ـ هذه المرة عندما دخلت شقتى فى «فيينا» لأمكث بها عدة ساعات.. لاحظت أن ابتسامة «موشيه» أكثر إشراقاً وبهجة واطمئناناً مما كانت عليه من قبل.. كأنما كان يبارك خطواتى المستقبلية فى بيروت.

وقبيل مغادرة الشقة ببضع ثوان.. انتفضت فجأة عندما رن جرس الهاتف.. وتسمرت مكانى للحظة.. ثم اتجهت صوب الكابل فنزعته.. وانطلقت أغادر الشقة بى شوق جارف إلى العمل.. وبين أمتعتى كنت أحمل جهاز راديو لماركة عالمية معروفة.. هو بالأصل جهاز لاسلكى أكثر تطوراً ولا يمكن اكتشافه.. وبحقيبة يدى كنت أحتفظ بالمصحف الشريف المذهب.. وقد نزعت عدة صفحات منه واستبدلت بصفحات أخرى تحمل الشيفرة السرية التى سأستخدمها فى بث وتلقى الرسائل المبثوثة..!

القسم الثاني والعشرون
في لبنان (٣)

«كنت أول جاسوس للموساد يحمل جهازاً لاسلكيّاً متنقلاً داخل بلد عربي.. وهي جرأة لم تكن لدى «إيلي كوهين» أشهر جاسوس زرع في سوريا قبل سنوات.. ولم يفعلها أيضاً «فاروق الفقي» المقدم في الجيش المصري.. وذلك لأنني كنت أجرأ هؤلاء جميعاً.. مدفوعة برغبة مجنونة في الانتقام والثأر.. وليس طلباً للمال..!»

٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣:

صباح اليوم، من أمس - الثلاثاء - وصلت إلى بيروت.. وعندما كنت اتجه إلى حيث يتحرك سير الحقائب بالمطار.. صدمت بشدة لمشهد شاب عربى يقتاده رجال الأمن.. لفت انتباهى هذا الأمر وقلت فى نفسى:

- هل هو جاسوس يحمل أوراقاً ثبوتية مزورة..؟!

أم هو مهرب خطير يتبع إحدى المنظمات العالمية..؟

أسئلة عديدة أخرى دارت برأسى.. وكدت أنهار عندما فوجئت بيد قوية تربت على كتفى من الخلف.. وعند ذلك صدرت عنى صرخة مكبوتة هلوعة.. وسقطت فى الحال حقيبة يدى على الأرض وأوشكت أنا أيضاً على السقوط معها.. وعملاً بما تعلمته فى إسرائيل تماسكت.. واستدرت لأصطدم بوجه صديقى «مارون الحايك» تغطى وجهه نظارته الشمسية السوداء.. وينسدل شعره اللامع الناعم لقرب كتفيه.

استغرق هذا المشهد الأليم أقل من عشر ثوان.. فاستدعيت فى الحال ابتسامة باهتة وتنفست الصعداء وأنا أود أن أصفعه بقوة على وجهه.. وأظل هكذا أصفعه حتى ينقشع الخوف الذى حل بأعماقى من جديد.. حيث أنه - هذا الغبى - أرجعنى كثيراً إلى الوراء.. إلى تلك اللحظات المرعبة التى غادرت بيروت بسببها إلى النمسا ثم لإسرائيل.

وفى بشاشة مصطنعة سألته:

- أوه.. أيها الماكر.. أكنت معى على اللوفتهانزا قادماً من فيينا..؟

خلع نظارته مبتسماً وهو يضغط على كتفى ضغطاً ذا مغزى وأجاب فى خبث:

- بحثت كثيراً عنك فى بيروت فلم أجدك.. لقد كنت أمنى نفسى بأن نمضى معاً أسبوعاً خيالياً فى نيقوسيا.

قلت بدهشة:

- نيقوسيا..؟

وأخذت أضربه على صدره بلطف مفتعلة التحسر وأنا أردد:

- مجنون.. مجنون يا «مارون»!! لماذا لم تخبرنى قبلها بوقت كاف؟! كم كنت مشوقة لرحلة كهذه معك.

غمز بطرف عينه ضاحكاً وقال:

سنتدبر الأمر عما قريب أيتها الأنثى الشقية.. انظرى.. هاهى حقائبى وصلت الآن.. سأراك عما قريب فى بيروت..!!

ولأن لبنان بلد سياحى حر.. فأمور التفتيش والتدقيق فى المطارات والموانئ شكلية جداً.. ولا تخضع بالمرة لرقابة صارمة كما فى سائر البلدان العربية.. على اعتبار أن التدقيق الزائد يسىء إلى السواح الذين هم عماد الاقتصاد وأحد أهم أسباب الرخاء فى لبنان.

لذلك.. لم ينتبه رجال الجمارك لجهاز اللاسلكى المدسوس بحقيبتى.. ففى تلك الفترة كانت بيروت فى أوج انفتاحها.. وسوقاً رائجة لتجارة السلاح.. والمخدرات.. والرقيق الأبيض.. والجواسيس..!

كنت فى غاية النشاط.. واستطعت جمع بعض المعلومات التى تهم الموساد.. وصباح اليوم - الخميس - أطلقت أولى إشارات البث اللاسلكى إلى إسرائيل.. وبعثت بهذه الرسالة الهامة:

وصلت بسلام.. سمو الأمير «الأحمر» فى أوروبا.. تعرفت بضابط فلسطينى يدعى «أبو ناصر».. مارون فى قبرص ووعدنى بأن يأخذنى معه إلى غرفة الاستماع بمبنى الهاتف المركزى.. حبس غادر إلى تونس سراً.. رجاله يقتلون سبعة من أتباع حواتمة.. أبو عمار بالبيت مصاباً بالبرد.. وصلت شحنة أدوية رومانيا.. يوجد نقص كبير من «الأنتى بيوتك» تحياتى.. "R.Q.R - 3301".

لا أحد يدرى كيف استقت «أمينة» معلوماتها الهامة هذه التى تمكنت خلال ساعات من وصولها إلى بيروت من جمعها.. وفى ذات الوقت استقبلت الموساد رسالة «أمينة/ آنى» بشىء من الاطمئنان والفرح.. فالرسالة كانت واضحة الشيفرة وبلا أخطاء تذكر.. كما أن الأخبار التى بثتها كانت على درجة عالية من الخطورة والأهمية.. مما استدعى دخولها إلى غرفة التحليل والمتابعة على الفور.

وسرعان ما تسلمت «أمينة/ آن» أول رسالة بثت إليها من تل أبيب وجاء فيها:

- تهانينا بالوصول بسلام.. وصلت رسالتك سليمة من الأخطاء.. اهتمى بتحركات الأمير.. أبو ناصر خبيث جداً فاحذريه.. لا تهتمى بمارون الآن.. من «يطبّب» أبو عمار «عرفات».. ماذا ببطن الباخرة «كيفين» فى صيدا.. نريد معلومات عن مخازن الأسلحة والذخيرة بمخيم «البداوى» فى طرابلس.. وكذا مراكز التدريب فى قلعة «الشقيف»[1].

* * *

٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣:

بينما تهيأت للعمل بنشاط أكبر وتحركات أوسع.. انطلقت شرارة حرب السادس من تشرين الأول.. وعبر المصريون القناة ودمروا خط بارليف المنيع.. فغرقت بيروت فى مظاهرات الفرح.. بينما أصبت أنا بانهيار حاد.. وبعثت برسالة إلى تل أبيب:

«ماذا جرى.. هل أصدق ما أسمعه وأراه عبر شاشات التلفاز..؟ أم أن ذلك مجرد أضغاث أحلام..؟!».

وجاءنى الرد بأسرع ما يمكن:

- لا يجب أن تكون هذه الأحداث مصدر قلق لك.. نريد معلومات أكثر عما

---

(١) قلعة قديمة فى جنوب لبنان.. كان القائد صلاح الدين الأيوبى قد حررها من الصليبيين.. وانطلق منها إلى معركة «حطين» التاريخية فى عام ١١٧٨م لتحرير القدس وفلسطين من الاحتلال الأوروبى الصليبى الذى دام ٩٠ عاماً.

يجرى فى لبنان.

فكثفت من عملى كطبيبة عربية متطوعة تجوب أنحاء لبنان من الشمال إلى الجنوب.. يساعدنى فى ذلك التصريح الذى منحه لى «أبو عمار».. حيث كنت أزور المناطق المحظورة أحياناً بدعوى الفحص الطبى للمقاتلين.. وذلك خوفاً من وجود أمراض معدية أو أوبئة خبيثة.. وكان مجرد ذكر ذلك يفتح لى شتى الأماكن والمواقع التى لا يدخلها مطلقاً أى مدنى.

كان الفدائيون قد ابتهجوا بعبور القناة وموقف إسرائيل العسكرى الصعب.. وانتابهم حلم الانتصار وإزالة دولة إسرائيل من الوجود.. فأرادوا المشاركة فى هذا العمل الذى سيسجله التاريخ.. لذلك كثفوا من عملياتهم الفدائية فى جنوب لبنان وهددوا شمال إسرائيل.

قد شحنهم انتصار الجيوش العربية فازدادوا استبسالاً وضراوة.. واستغل «سلامة» انشغال إسرائيل فى سيناء والجولان.. وخطط لعمليات انتقامية وعسكرية واسعة أربكت إسرائيل المنهارة معنوياً وعسكرياً.. ذلك لأن المفاجأة كانت مستحكمة وقاتلة.. وصدمة العبور كانت بمثابة اللطمة التى تصيب بالدوار والترنح.

استغل «سلامة» ذلك أحسن استغلال.. فقد كان يعلم أن إسرائيل فقدت السيطرة على نفسها.. وعلى اتزانها.. وتركت الضربات العربية القوية والفجائية آثارها الواضحة على تصرفاتها وتخبطها أمام جبهتين عربيتين.. وضربات موجعة ومؤثرة إلى حد كبير تجىء من الشمال.

وجاءتنى رسالة بمثابة الصراخ:

- افعلى كل ما بوسعك لإعلامنا بتحركات رجال المقاومة فى جنوب لبنان.. من حيث أعدادهم.. والأسلحة التى لديهم.. وخطط عملياتهم والمواقع التى ينوون ضربها.

لكن كيف لى أن أتحرك بحرية فى الجنوب وسط المئات من رجال المقاومة الذين يرتادون الممرات الجبلية والمدقات ويختبئون فى الرمال كفئران الصحراء؟

٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣:

مع الضربات المتتالية التى يقوم بها شباب المقاومة.. تركت بيروت إلى صور بواسطة سيارتى المستأجرة ماركة «لاند روفر» Land Rover.. ومعى جهاز اللاسلكى الذى يشبه الراديو لذلك كان من الصعب اكتشافه.

فى صور اتجهت جنوباً إلى مخيم «الرشيدية» الذى يعد أقرب وأكبر المخيمات الفلسطينية إلى حدود إسرائيل الشمالية.. وهناك قابلت المسئول الصحى حيث قدمت إليه أوراقى وتوصية «ياسر عرفات».. فرحب بى الرجل وأوصلنى بنفسه إلى عيادة المخيم وهو يشكر لى فضل اهتمامى كمتطوعة عربية مخلصة.

ومن خلال عملى وتحركاتى الدائمة فى الجنوب.. حصلت على أسرار لا تقدر بمال عن تحركات الفدائيين وتنظيماتهم.. هؤلاء الذين وثقوا بى حتى أنهم تحدثوا معى وأمامى عن خططهم لضرب الشمال الإسرائيلى.. فعكفت على بث رسائل اللاسلكية يومياً من أماكن مختلفة.. والتى وصلت فى أحيان كثيرة إلى خمس رسائل قد تهدد حياتى للخطر وتضع حداً لحياتى.. مما اضطر الموساد إلى فتح جهاز الاستقبال على التردد المتفق عليه لساعات طويلة على مدار اليوم لتلقى رسائلى.

لقد كان عملى انتقاما فعليًا لما حل بى.. حيث كنت أفرغ شحنات غضبى فى رسائل يومية مبثوثة قد تعرضنى للانكشاف والسقوط.. لكننى كنت قد تزودت بالجرأة ولم أعد أسمع لنداءات الخوف أبداً.. إذ اندفعت بحماس مذهل إلى مواقع الفدائيين فى الجنوب بحجة تطبيبهم.. وكنت أحمل جهاز اللاسلكى فى سيارتى التى يعلوها الهوائى الصغير.

وفى إحدى جولاتى بمنطقة «بنت جبيل» على مساحة خمسة كيلو مترات تقريباً من الحدود الإسرائيلية.. فوجئت ببعض زعماء منظمة التحرير بينهم الرجل الثانى فى المنظمة: «أبو إياد».. حيث كانوا يتفقدون جبهة القتال ويخطبون فى الجنود فيثيرون حماستهم.

كنت لحظتها أرتدى الملابس الطبية.. ورمقنى «أبو إياد» بنظرات نارية لا تخلو من الامتنان والتساؤل فى ذات الوقت.. ولما أشار إلىّ أن أقترب رميت مخاوفى وفى جرأة اتجهت إليه وسألنى:

- فلسطينية..؟

قلت فى سرعة:

- أنا طبيبة أردنية متطوعة..!

ولما لمحت فى عينيه التساؤل المتوقع عن سبب تواجدى بهذه المنطقة العسكرية.. أردفت على الفور:

- ومنحنى القائد «أبو عمار» تصريحاً بالمرور على عيادات المخيمات ومتابعة علاج الفدائيين.

فسكت ولم يرد.. وبينما انهمك فى التحدث مع قيادات المقاومة.. انسحبت بعيداً ثم قدت سيارتى حتى مدخل أحد الكهوف وفتحت جهاز اللاسلكى بعدما قمت بتحويل رسالتى إلى وضع الشيفرة فى سرعة فائقة.. وبعثت عدة جمل إلى تل أبيب تحمل مفاجأة لهم:

- «عاجل جداً وهام.. للعرض على أعلى المستويات.. أبو إياد[1] وقيادات هامة يزورون بيت جبيل.. الموقع مائة وخمسون متراً شرقى التبة بجوار فنطاس المياه الأخضر.. بين شجرى الصنوبر مباشرة.. اضربوا الموقع كله الآن فى

---

(١) أبو إياد «صلاح خلف»: ولد عام ١٩٢٣ فى يافا.. وهرب مع أسرته إلى غزة قبل يوم واحد من إعلان دولة إسرائيل، تعلم الفلسفة فى كلية التربية جامعة القاهرة والتقى بياسر عرفات وصارا من يومها حليفين لا ينفصلان.. عاش أبو إياد حياة ثورى متجول. مهدد باستمرار.. فقد انفصل عن عائلته التى تقيم فى ضواحى القاهرة وتفرغ للقضية الفلسطينية.. حتى إنه لا يرى زوجته وأولاده الستة (ثلاث فتيات وثلاثة فتيان) إلا نادراً جداً.. وكان دائم الشوق لابنته جيهان المصابة بشلل الأطفال.

كان أبو إياد الرجل الثانى بعد عرفات.. قاد تنظيم أيلول الأسود الجناح العسكرى للمخابرات الفلسطينية التى كان قائداً لها أيضاً.. وخطط لسياسة المنظمة داخلياً وخارجياً، وبعد غزو صدام للكويت أيد عرفات عملية الغزو فيما عارض أبو إياد معلناً رأيه على الملأ.. وفى ١٤ يناير ١٩٩١ =

الحال.. دمروا السيارات الجيب والليموزين.. سأكون على بعد معقول منهم عند الكهف.. سأفتح الجهاز لأربع دقائق فقط لاستقبال ردكم.. R.Q.R- 3301».

وقبل انتهاء المهلة بثوان معدودة جاءنى الرد:

- «ابتعدى عن الرتل.. انبطحى أرضاً داخل الكهف عند ظهور الطائرات.. نريد معرفة النتائج والخسائر بعد انتهاء القصف.. خاصة ما أصاب أبو إياد».

بعدما ترجمت الرسالة وقفت أنتظر وصول الطائرات ووقوع المجزرة.. لكن يا للحظ السىء.. لعبد القدر لعبته وتحرك رتل القادة بعيداً عن الموقع لأغرق فى الحسرة.. وأخذت أقلب عينى فى السماء الصافية بانتظار الطائرات.. لكن لا شىء يأتى.. خمس دقائق تمر.. عشر دقائق.. عشرون.. ولما نهشنى الانتظار القاتل فتحت جهاز اللاسلكى من جديد:

- تحرك الهدف فى سبع سيارات إلى الشمال طريق تيبنين منذ (٢٥) دقيقة.. سيارة أبو إياد رقم (٣) فى الترتيب وهى سوبارو سوداء.

بعثت بالرسالة فى اللحظة التى لمحت فيها طائرتا ميراج تطلقان صواريخ «السيدوندر» والقنابل زنة الألف رطل.. ثم عادتا وارتفعتا إلى عنان السماء وعاودتا الانقضاض من جديد.. وهذه المرة بفتح خزانات النابالم الحارقة.

حدث كل شىء خلال دقائق معدودة.. كنت خلالها منبطحة أرضاً قرب مدخل الكهف.. ولم يمنعنى ذلك من مراقبة المشهد.. حيث رأيت الأجساد البشرية تتناثر كالشظايا فى الهواء.. واكتشفت أننى كنت أضحك فى هستيريا مجنونة مشبعة بالحسرة والشماتة.. حسرة انعتاق «أبو إياد» ورفاقه.. وشماتة فى هؤلاء الذين امتزجت بقاياهم بالتراب.. والدم.. والسلاح..!

هكذا كنت أحمل بحقيبتى جهاز اللاسلكى الصغير خلال تجوالى فى جنوب لبنان خلال حرب تشرين الأول.. وبواسطة كابل كهربائى طويل متصل بالبطارية.. كنت أبث الرسائل أولاً بأول إلى إسرائيل.. فى ذات الوقت الذى كنت

= قام حمزة أبو زيد الحارس الشخصى لأبى الهول رئيس مخابرات فتح باغتياله فى تونس.. وقيل أن صدام أمر بقتله لانتقاده سياسته.. وكان ذلك بواسطة صبرى البنا «أبو نضال» قائد تنظيم فتح الثورى المنشق الذى قتله صدام فى أغسطس ٢٠٠٢ ليموت السر معه.

أعالج فيه المصابين. وأنتقل بين المستشفيات العسكرية والميدانية هنا وهناك فأعطى الدواء وأجلب الأسرار.

* * *

٤ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٧٣:

كنت أول جاسوس للموساد ويحمل جهازاً لاسلكياً متنقلاً داخل بلد عربى.. وهى جرأة لم تكن لدى «إيلى كوهين» أشهر عملاء إسرائيل الذى زرع فى سوريا قبل سنوات.. برغم تجواله بين الوحدات العسكرية فى الجولان.

لم يفعلها أيضاً المقدم فى الجيش المصرى «فاروق الفقى».. وهو ضابط فى الاستخبارات العسكرية جندته عميلة الموساد «هبة سليم عامر».. كذلك لم تفعلها «إنشراح موسى» فى مصر التى عملت لصالح إسرائيل هى وزوجها وأولادها.. وكانوا يزورون منطقة القناة مع زوجها بحثاً عن الجديد من الأسرار[1].

لكننى كنت أجرأهم جميعاً قلباً وقالباً.. مدفوعة برغبة مجنونة فى الانتقام والثأر.. لا برغبة المغامرة والحصول على المال.

فمنذ أن حملت معى جهاز اللاسلكى لأول مرة إلى الجنوب.. لم أعرف الخوف للحظة واحدة.. وعندما شاهدت بنفسى هجوم الميراج على الموقع الفلسطينى بفرض تدميره وتصفية أبى إياد.. تملكنى شعور رائع بالزهو وجدت فيه لذة لا تدانيها لذة.. ومنذ تلك الحادثة وأنا أحرص على أن يكون الجهاز اللاسلكى معى.. بجواره المصحف ذو الجراب والشيفرة.

كنت أكتب رسالتى أولاً على ورقة منزوعة من بلوك نوت.. ثم أوقف سيارتى فى مكان اطمئن فيه من فضول العابرين.. وأسحب هوائى الجهاز بعدما اطمئن على عمل الدائرة الكهربائية.. وأقوم بالبث لدقائق، وفى أحوال محدودة كنت أبث الرسالة مرتين لتأكيدها وأحرق الورقة وأتحرك فى الحال إلى مكان آخر.

وبفضل تصريح المرور الموثق الذى وقعه «عرفات» كنت أجوب بأمان شتى المواقع

(١) يبدو أن أمينة المفتى كتبت اسمى فاروق الفقى وانشراح فيما بعد.. ذلك لأنهما اعتقلا فى مصر قبيل وخلال حرب أكتوبر ولم يذع أمرهما إلا بعدها بسنوات..!

بما فيها العسكرية.. فأطلع بنفسى على أنواع الأسلحة وكميات الذخائر التقريبية بالمستودعات الأمامية.. وحالفنى الحظ كثيراً عندما وثق بى القادة الفلسطينيون لأننى كنت أبدو متحمسة جداً لقضيتهم وحقهم فى الكفاح لاسترداد الأرض المغتصبة.. للدرجة التى دعت «أبى إياد» لأن يطلب منى إلقاء خطبة حماسية فى المقاتلين المعسكرين بالقرب من مخيم البرج الشمالى جنوبى «صور».

يومئذ ـ وكان أبو إياد قد جاء من القاهرة قبل أيام وذلك بعدما حضر أياماً من تشرين الأول هناك ـ ألقيت خطبة رائعة تتدفق منها الوطنية ومعانى الكفاح والعروبة.. لقد أجدت تماماً عندما صعَّدت من انفعالى فبكيت.. نعم بكيت وأنا أصف مشاهد القصف والقتل والإنكسار على وجوه الأطفال اليتامى.. بكيت حقيقة وأنا أحثهم على الإنتقام والثأر والجهاد.. وفى داخلى تعجبت:

ـ هل كنت أبكى «موشيه» الحبيب ولازالت تزلزلنى الثورة المصطخبة بالغضب فى أوردتى وشراييني. ونبضى..؟

أم كنت أعيش لحظة صدق حقيقية مع نفسى..؟

ترى لأيهما كنت أبكى..؟

إلا أن المؤكد أننى كنت أكره هؤلاء الأوغاد الذين زرعوا البرودة فى حياتى.. والأمن.. فأذلونى.. وأترعونى كؤوس الوحدة والصمت..!

كان انفعالى عجيباً.. ومؤثراً.. وظن القادة والجنود أنه إيمان منى بقضيتهم.. فأدمعت عيون البعض.. مثلى.. ولما بحثت عن منديل بحقيبتى اصطدمت يدى بجهاز اللاسلكى..!!

بعد إعلان وقف إطلاق النار انعقد مؤتمر القمة العربية فى الجزائر.. وتم التوصل إلى قرار بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى.. وكذا موافقة سوريا ومصر ـ دولتا المواجهة ـ على قرار مجلس الأمن ٣٣٨ الذى ينص على عودة السلام الدائم والعادل فى الشرق الأوسط.

رفضت منظمة التحرير قرار عودة السلام طالما لم تحرر فلسطين.. وأقرت مواصلة الكفاح المسلح بناءً على رغبة «الثورة الفلسطينية» وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣

بدأ أول عمل فدائى فلسطينى.. وذلك عندما تم اختطاف طائرة جامبو نفاثة.. تابعة للخطوط الجوية الهولندية KLM كانت فى طريقها من بيروت إلى طوكيو مروراً بنيودلهى تحمل على متنها ٢٤٤ راكباً وثلاثة من الفدائيين الفلسطينيين.

كانت مطالب هؤلاء الثلاثة إطلاق سراح سبعة من زملائهم فى قبرص.. وألا تمنح هولندا تراخيص مرور لليهود السوفييت الذين فى طريقهم لإسرائيل.. كذلك تعهدت الشركة بألا تنقل سلاحاً لإسرائيل من أية جهة.. وانتصر الفدائيون انتصاراً ساحقاً..!

وفى ١٧ ديسمبر ١٩٧٣ كانت هناك عملية كبيرة فى مطار روما.. عندما أطلق عدد من الفدائيين نيران مدافعهم الكلاشينكوف بصورة جنونية داخل صالة المطار المزدحمة.. ثم تمكنوا من اختطاف طائرة ٧٠٧ تابعة لشركة بان أمريكان كانت راسية على الممر.. ففجروا قنابلهم الفسفورية بالطائرة ليحترق عدد كبير من الركاب.. ثم جرى الفدائيون ومعهم بعض الرهائن واختطفوا إحدى طائرات شركة «لوفتهانزا» كانت على وشك الإقلاع وحطت بهم فى أثينا.. وكانت مطالهبم الإفراج عن زملاء لهم من جبهة «أيلول الأسود».

ومع بدايات العام الجديد ـ ١٩٧٤ ـ شكلت عدة منظمات فلسطينية باسم الجبهة هو الدكتور «جورج حبش»[1] زعيم الجبهة الشعبية وبطل خطف الطائرات الأول.

---

(١) جورج حبش: ولد عام ١٩٢٥ بقرية ليديا التى تسمى اليوم «اللد» فى فلسطين.. كان من أسرة ثرية وعاش فى رغد ودرس الطب بالجامعة الأمريكية ببيروت.. انخرط فى العمل الوطنى السياسى متخذاً من عمان ركيزته فى العمل.. ولما اختلف مع أحمد الشقيرى رئيس منظمة التحرير قرر الاتجاه إلى العمل المسلح.. وبعد نكسة ١٩٦٧ أسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ونفذ عمليات خارقة مع زميله وديع حداد.. ولجأ إلى خطف الطائرات المدنية كوسيلة لضرب مفاصل الأمن الإسرائيلية وتذكير العالم بمشكلة فلسطين.. فخطف طائرة العال الإسرائيلية فى ٢٣ يوليو ١٩٦٨ إلى الجزائر حيث جاءته معلومات أن شارون بين ركاب الطائرة.. وأطلق النار على شركة العال فى أثينا فى ديسمبر ١٩٦٨.. وبعد أيام هاجم طائرة العال فى مطار زيورخ.. وقادت الفدائية ليلى خالد عمليات خطف الطائرات.. ويتم خطف ثلاث طائرات دفعة واحدة اقتيدت إلى الأردن.. وهناك سجل طويل من العمليات مما دعا إسرائيل للبحث عن حبش لاغتياله.. لكنه إلى الآن ما يزال على قيد الحياة..!!

القسم الثالث والعشرون
تكليفات ومهام

«ناولته القلم والورقة التى حاول قراءتها..
فصرخت فيه بعنف.. وانتهزت فرصة وقوعه
تحت السيطرة والشلل العقلى الفجائى..
وصفعته بشدة على وجهه.. فتملكه الهلع
ووقف مذهولاً ثم اكتشف عريه فجلس
ثانية.. وَوَقَعَ..!!»

١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٣:

كانت التكليفات والضغوط الإسرائيلية فوق احتمالى فالعمليات الفدائية الفلسطينية التى تنطلق من الجنوب اللبنانى كانت تربك إسرائيل وتزعزع أمنها بشكل لم تعهده من قبل.. بل وأصيبت بعدوى العمليات الفدائية غالبية دول أوروبا المساندة لإسرائيل.. فالفلسطينيون أرادوا الإعلان عن وجودهم بشتى الطرق بما فيها العنف من خطف وتفجير.

ولأن إسرائيل لم تكن تعرف من أين ستجىء ضربات رجال المقاومة.. فقد اعتمدت العنف سلاحاً لها.. حتى إنها احتلت مطار بيروت الدولى بعض الوقت مساء ٢٨ كانون الأول ١٩٦٨ وفجرت ١٣ طائرة مدنية على أرضه.. انتقاماً لعملية فدائية نفذها رجال «حبش» فى «أثينا» قبل يومان فقط.. وإذ كانت إسرائيل قد لجأت إلى العنف الأكثر ضراوة وقسوة للرد على العمليات الفدائية. فالفلسطينيون كذلك.. رأوا الحل فى ذات السلاح.. دون غيره..!

وكان لتسارع الأحداث وشراسة الضربات الفلسطينية.. الأثر البالغ فى انتشار سحب الخوف السوداء فوق رؤوس الإسرائيليين.. ففقدت الموساد بذلك خاصية طالما ألصقت بها.. وهى أنها حامية الدولة اليهودية.. فسخر العسكريون فى إسرائيل من هيبة الجهاز الأسطورى التى سقطت.. ومن المقولة التى طالما ترددت وهى «أن الموساد تجعل العدو يرتجف.. وتمنح الإسرائيليين القدرة على النوم فى هدوء».

انعكس الوضع الآن.. فأصبح الإسرائيليون يرتجفون عند سماع أزيز طائرة.. أو فرقعة إطار سيارة.. أو انفجار عادم دراجة بخارية.. وانتقل هذا الضغط العصبى إلى عميلة الموساد فى بيروت: «آنى موشيه»، فالمطلوب منها إنجازه كان يفوق الوصف.. ويتجاوز قدراتها التى كانت فى طور الاكتمال.

لذلك انتقلت «آنى».. للإقامة شبه الدائمة فى «صور»..واستأجرت شقة بسيطة بمنطقة «الشجرة» على مسافة عدة كيلو مترات من الحدود الإسرائيلية.. اتخذت منها مقراً ومركز انطلاق لاستكشاف تحركات رجال المقاومة.

١٦ نيسان/ أبريل ١٩٧٤:

كنت قد اتصلت بالضابط الفلسطينى يوسف أبو ناصر.. وهو الذى سبق أن حذرتنى الموساد منه.. لكننى تجاوزت تلك الأوامر وارتبطت به رباطاً وثيقاً مستخدمة معه أسلوب «فورة الإثارة».. الذى يدفع المرء لأن يخرج ما عنده من أسرار بشكل طوعى لتأكيد الرجولة والفحولة والأهمية.

وفى شقتى طبقت معه ما سبق أن تدربت عليه.. وفوجئت به يتكلم وينطق ويبوح مزهواً بنفسه.. حتى إنه أعلن عن عملية فدائية ستتم فى اليوم التالى داخل الأراضى الإسرائيلية.. فضاعفت من جرعة إثارة رجولته وأهميته كمسئول متميز.. لكنه لم يتفوه بأكثر مما قال برغم ثمالته الشديدة.

وتخوفاً من شكوكه لم ألح عليه أو أحدثه كثيراً عن أمر هذه العملية المرتقبة.. وبعثت برسالة سريعة إلى الموساد بعد انصرافه.. جاء فيها:

ـ «عملية فدائية ستنفذ غداً داخل الأراضى الإسرائيلية.. التسلل بطريق البحر.. المصدر أبو ناصر. R.Q.R. 3301».

وفى اليوم التالى ـ ١١ أبريل ١٩٧٤ استنفرت القوات الإسرائيلية وتم تشديد المراقبة على ساحل البحر.. لكن العملية لم تتم بحراً.. إنما تمت براً عندما اقتحم رجال الكوماندوز مدينة «كريات شمونة» Qiryat shemona أقصى شمال إسرائيل.. والواقعة على مسافة خمسة كيلو مترات من الحدود اللبنانية.

يومها أصبت بالهلع.. فمعنى ذلك أن الضابط الفلسطينى خدعنى لأنه شك بى.. وربما كان ضابطاً وطنياً لا يبوح بأسراره.. لكننى تغابيت واتصلت به أهنئه على انتصاره.. فقد قتل فى الهجوم ثمانية عشر إسرائيلياً وأصيب أكثر من ٤٨ بجروح.. وصرح مسئول فلسطينى أن هذه العملية بداية عمليات أكثر شراسة داخل الأراضى الإسرائيلية لإعاقة الحل السلمى العربى.

لماذا إذن ضللنى هذا الرجل..؟!

وهل سأتعامل معه بعد ذلك..؟!

أرسلت إلى تل أبيب أطلب مساعدتى.. فأشاروا علىَّ بألا أظهر خوفى منه أو أحاول جرجرته للحديث مرة أخرى.. فربما يكون ضابط استخبارات يريد الإيقاع بى.

كان هذا الرد يحمل الكثير من المخاوف والهلع.. فالضابط الفلسطينى إذن يضعنى فى دائرة الشك. وبدلاً من اصطياده كان يخطط هو الآخر لاصطيادى!!

لقد كنت أخطو إلى نهايتى بلا شك.. فهذا الرجل كان محيط معلومات ويغرينى أن أتعامل معه وألاعبه لعبة الذكاء.. وبعد اتصالات كانت تبدو عفوية.. دعوته إلى شقتى من جديد.. وهيأت له نفسى مع أنواع جيدة من الخمر.. حتى إذا ما تمكن السكر منه انطلق لسانه متباهياً بعبقريته العسكرية.. وكيف أنه جهز فريقاً يعد من أكفأ الرجال للتسلل وضرب مدينة نهاريا Nahariyya الساحلية بالصواريخ.

وتوقعت أن يجود بمعلومات أخرى وهو بين أحضانى.. لكن عقدة لسانه لم تنفك وظل حديثه المتقطع غامضاً.. مبهماً.. لا يفهم منه شىء..!

استشطت غضباً أمام هذا الصمت.. فالمعلومة هكذا تبدو مبتورة تفتقد الكثير والكثير.. حيث كان عليها أن تعرف منه موعد العملية.. وهل سيتم التسلل بحراً أم براً.. وكيفية الانسحاب حال نجاح العملية..!؟

وبعد أن ذهب وعيه غط فى نوم عميق.. وبحذر بالغ فتشت جيوبه بحرص محافظة على ترتيب محتوياتها.. فاستوقفتنى وريقة كتبت بها عدة كلمات مرعبة.. وبيد مرتعشة نقلت ما بها بورقة أخرى خبأتها بمكان سرى داخل حذائى.. بعدها تمددت إلى جوار النائم المكدود.

(تل أبيب - ٩ إلى ٢٥ أيار - ٥٠٠ كيلو TNT - ش بلفور - كيديم - أرليخ وأكليتوس - ثم أليركون ورعنان - عدد «٥» فرق - ١٧ فولكس سوبارو وشيفر - يافا).

كانت هذه الكلمات الغامضة الغير مترابطة.. تثير الفزع بحق. وفى الصباح بعثت بها إلى تل أبيب ثم مزقت الورقة.

استقبلت إسرائيل رسالة «أمينة المفتى» فحل الهلع بجميع أجهزة الدول.. فالضابط الفلسطينى كان صادقاً عندما تحدث عن عملية «كريات شمونة» التى ستتم من خلال التسلل بحراً.. لكنها تمت فى مكان بعيد عن البحر.. وبطريق البر عبر الحدود.

أما خبر عملية تل أبيب التى قيد التخطيط.. فكان أكثر غموضاً ورعباً.. بل هو الرعب نفسه.. والدمار لأكبر مدن إسرائيل.

هكذا كان الوقت يمر سريعاً.. يحمل بين دقاته انفجارات الموت البطىء.. وعجز رجال الموساد والاستخبارات العسكرية فى التوصل إلى تحليل دقيق يؤدى إلى معرفة شىء بعينه.. كل ما فى الأمر أن هناك عملية فدائية مسلحة وفتاكة ستنفذ فى تاريخ غير معروف داخل تل أبيب.

وتخوفاً من أن تكون تلك الوريقة فى حافظة «أبى ناصر» مجرد كمين لاصطياد عميلة الموساد.. صدرت إليها الأوامر بالتوقف نهائياً عن بث الرسائل أو جلب المعلومات.. ومغادرة «صور» على الفور إلى «بيروت».. لكن العملية الغاضبة الثائرة العنيدة بثت رسالة جديدة إليهم قلبت الموازين كلها وأذهبت بعقول كبار رجال الأمن فى إسرائيل.

فقد زفت إليهم خبراً يفيد تسلل سبعة فدائيين فى غبش الفجر.. يحملون ال آر. بى. جيه ومدافع الكلاشينكوف القاذفة والقنابل الهنغارية.. فضلاً عن عجائن المتفجرات بقصد تفجير مستوطنة «جيشر هازيف» Gesher Haziv الواقعة شمال «نهاريا» بمناسبة عيد إسرائيل القومى.

انطلقت قوات الأمن تطوق المستوطنة وتفرض حزاماً أمنياً حولها.. كما انتشرت نقاط التفتيش على كل الطرق والمحاور.. ومع أولى تباشير الخامس عشر من مايو ١٩٧٤ كانت المعركة الشرسة قد بدأت.. ولكن بمنطقة أخرى بعيدة عن تصور الإسرائيليين.. وتوقعهم: قرية «معالوت».

حاصر الفدائيون السبعة القرية وأمطروها بوابل من قذائفهم الصاروخية.. وسيطروا تماماً على سكانها والطرق المؤدية إليها.. كما دمروا عدة سيارات

عسكرية حاولت الالتفاف لعزلهم عن القرية.. وبعد ست ساعات ونصف الساعة أسفرت المعركة عن إصابة عدد كبير بينهم ٢٥ قتيلاً.. ووقفت جولدا مائير أمام كاميرات التليفزيون فى الكنيست وهى تكفكف دموعها وتقول:

ـ اليوم عيد ميلاد دولتنا الخامس والعشرون.. وقد أحاله الإرهابيون إلى يوم مرير بالنسبة لإسرائيل..!!

وبرغم الشكوك التى شابت الضابط الفلسطينى والمعلومات المغلوطة التى مررها إلى «آنى موشيه».. لم تنصت عميلة الموساد للأوامر التى صدرت إليها بالتوقف عن العمل لبعض الوقت حفاظاً على أمنها الشخصى.. إلا أنها كانت قد تحولت إلى كتلة من الصخر الصلد ألقيت من فوق جبل.. فهرت مندفعة يستحيل إيقافها.

نعم.. بدت كفدائية شرسة تحمل روحها على كفها لا تفكر بالأخطار التى تحيق بها.

١٤ حزيران/ يونيو ١٩٧٤:

الأول من أمس كان يوماً مثيراً.. كنت قد فكرت قبلاً بضرورة تجنيد «مارون الحايك» لأعرف بالضبط أسرار قادة المنظمات الفلسطينية من خلال التنصت على مكالماتهم عبر «الغرفة السرية» بالمبنى المركزى الذى يعمل به «مارون».

استدعيته إلى شقتى بعد طول غياب.. فجاء مسرعاً يمنى نفسه بوليمة فسق مثيرة.. وبينما كان عارياً تماماً ناديته إلى الصالون فوقف مذهولاً وقد تجمدت الدماء فى عروقه.. وتعلقت عيناه بنجمة داوود السداسية الزرقاء.. وذلك الرجل الضخم الواقف وبيده مسدسه الصغير الكاتم للصوت.

ستر الرجل المرتجف عورته بيده.. واصفر وجهه وأنصت باهتمام بالغ وأنا أقول بلهجة آمرة وحاسمة:

ـ اجلس أيها الأبله..!!

قال فى هلع:

ـ أنت..؟!

قلت:

ـ نعم.. أنا إسرائيلية.

تلفت حواليه هلوعاً وهو يقول:

ـ أريد الذهاب إلى الحمام.. أرجوك..

أجبته:

ـ ليس الآن.

قال وهو على وشك البكاء:

ـ ماذا تريدين منى..؟!

قلت:

ـ بدأنا المشوار معاً.. ولابد أن نكمله حتى النهاية يا مارون..!

مرتجفاً:

ـ مشوار..؟ معاً..؟ أنا لم أبدأ.. أنا لا أعرف.. لا أفهم شيئاً.

صحت به:

ـ لا تكن مراوغاً أيها النتن.. فأنت تعلم جيداً أنك تعمل معى لصالح الموساد.. وحياتك وحياة أسرتك رهن إشارة واحدة منى..!

هتف:

ـ يا يسوع.. أنقذنى.. خلصنى..!

وبينما جسده ينتفض كالطير المذبوح.. نثرت أمامه عشرات الصور التى تجمعنا معاً فى أوضاع مشينة.. ثم فتحت جهاز الكاسيت ليجىء صوته وهو يدلى بأرقام التليفونات السرية للقادة الفلسطينيين.. ويحدثنى عن «على حسن سلامة».

تصبب عرقاً وقال فى مذلة:

ـ أرجوك.. أريد الذهاب إلى الحمام بسرعة.

قلت له مرة ثانية:

ـ ليس الآن.

سألنى خاضعاً مرتعباً:

ـ ماذا تريدون منى..؟

قلت:

ـ الموساد تريد منك تعاوناً أكثر..!

قال متلعثماً:

ـ تعاون..؟! كيف..؟ أنا لا أعرف.

أجبت:

ـ سأعرفك.

قال مذعوراً:

ـ أنا لا أفهم فى السياسة.

حدقت فى وجهه وقلت:

ـ ولكنك تحب الخمر والجنس والمال.. أليس كذلك يا مارون..؟

قال فى وهن وندم:

ـ أنا غبى.. تعس.

قلت له فى الحال:

ـ أنت تحب المال لتنفق على الخمر والنساء.. ستدفع لك الموساد مائتين وخمسين ليرة كل شهر.

انتفض وهو يقول:

ـ موساد..؟

علقت قائلة:

ـ الموساد إن كنت لا تعرف هى الاستخبارات الإسرائيلية.. وكلب مثلك يعبد المال يجب أن يكون وفياً لأسياده.

انفتح على حين فجأة باب إحدى الغرف.. فالتفت مارون وهو ينتفض.. وصدرت عنه أنّة هلع عندما رأى ثلاثة رجال ملثمين تراصوا بجانب بعضهم البعض كالتماثيل وأيديهم إلى الخلف.

مرت ثوان كالدهر لم ينطق مارون بكلمة لكنه كان يتمتم بما يشبه نشيج لوعة مكتومة.

ـ ماذا قلت يا مارون..؟

تنقلت عيناه بين الجميع وهو يردد:

ـ ماذا تريدون منى..؟

قلت:

ـ أتكره إسرائيل..؟

قال:

ـ أنا لا أكره أحداً.. لا.. لا.. بل أكره ياسر عرفات.. نعم.. أكره عرفات ورئيسى فى العمل.

وأضاف:

ـ أرجوكم.. ماذا تريدون منى..؟ أنا لا أفهم شيئاً ولكنى أوافق على ما تطلبونه.. إن عائلتى لا ذنب لها.. و..

قاطعته:

ـ عليك أن توقع هنا لتضمن الحماية والأمان.. والمال الوفير.

ناولته القلم والورقة التى حاول قراءتها.. فصرخت فيه بعنف.. وانتهزت فرصة وقوعه تحت السيطرة.. والشلل العقلى الفجائى.. وصفعته بشدة على

وجهه.. فتملكه الفزع ووقف مذهولاً ثم اكتشف عريه فجلس ثانية.. ووقَّع.

انصرف الرفاق الثلاثة بالورقة وأسرع مارون إلى الحمام.. وجاءنى صوت نشيجه الحزين فطرقت الباب.. وحاولت أن أوقظ رجولته لكنه بلا فائدة.. وسألنى فى رجاء:

ـ كنت أريد قراءة ما وقَّعتُ عليه..!

قلت:

ـ إنه إقرار بالصداقة والتعاون.

قال فى خزى:

ـ مع من..؟

أجبت:

ـ جهاز الموساد.

سأل:

ـ وماذا بيدى لكى أقدمه لكم..؟

قلت:

ـ أريد زيارة الغرفة السرية بالسنترال المركزى التى حدثتنى عنها.. وسوف أقوم بالتناوب ـ أنا وأنت ـ لتسجيل المكالمات الهاتفية بين القيادات الفلسطينية وكبار مساعديهم.

همس فى استغراب:

ـ تسجيل..؟

قلت مؤكدة:

ـ نعم.. ألم تسمع أيها الغبى عن العمليات الفدائية داخل إسرائيل لمتسللين فلسطينيين..؟

قال:

ـ أنت تعرفين أننى لا أقرأ فى السياسة ولا أهتم بها.

هتفت به ساخطة عليه:

ـ ولن تقرأ على قبرك: «طوبى للذى تختاره يارب»..!

وبعد برهة نطق قائلاً:

ـ بإمكانى التنصت أثناء نوبات عملى.. ولكن..

قلت:

ـ سيعاونك «مانويل»..!

حملق مندهشاً:

ـ مانويل..؟!!

ـ ألا تكفيه مائة ليرة..؟ هو يبيع امرأته من أجل ليرة واحدة..!

هذا ما قلته بينما مارون كان يرتعش كالفأر المذعور الذى وقع فى المصيدة.[1].

سنوات طويلة من حياته مرت به وهو يستمرئ المغامرة ويستلذ اصطياد الفرائس.. بيد أنه لم يتوقع يوماً أن تجىء فيها لحظة ما ينقلب فيها حاله.. ليصبح هو الفريسة المرتجفة بين يدى امرأة كانت إلى عهد قريب ناعمة.. ناعسة.. بضة.. مثيرة.. سرعان ما انقلبت فجأة إلى وحش مسعور.. تتبعث رائحة الموت من لفتاتها.. ويسمع له وقع فى صوتها الشيطانى الرهيب..!

* * *

(١) فى أسلوب تجنيد مارون الحايك مبالغة شديدة.. ويبدو أن خيال عميلة الموساد كان واسعاً جداً فهذا ليس أسلوباً للتجنيد بالمرة.. وأثناء الاستجواب أنكر مارون الحايك رواية أمينة وضحك قائلاً: (يبدو أنها كانت تحلم).

القسم الرابع والعشرون
الغرفة السرية

«انشـــغلت بشكل لم يســـبق له مـــثـــيل باســتــخــلاص اتجــهــات شــتى الــتــيــارات الفلسطينية.. وساعدها «مارون ومانويل» فى عــمليــات التنصت على هواتف القــيــادات الفلسطينيــة من داخل الغرفة السرية التى لا يسمح بدخولها إلا للمسئولين..!!»

أسفرت عملية تجنيد «مارون الحايك» عن فائدة عظيمة لإسرائيل.. إذ أن التنصت المستمر على مكالمات القادة وزعماء الجبهات الفلسطينية كشف خططهم تجاه الدولة العبرية.

هذا ولم تكن الأحاديث الهاتفية بينهم أحاديث مكشوفة تماماً.. بحيث يمكن للمتنصت عليها إدراك مضامينها بسهولة.. إنما اعتمدت على أسلوب التمويه والشيفرة الكلامية.. وثقة فى اللبنانيين كان زعماء المنظمات والجبهات ينسون أنفسهم أحياناً ويتحدثون علانية فيما بينهم بصراحة.. أو مع مساعديهم.. ظناً منهم ـ وهذا خطأ كبير ـ أن التجسس على مكالماتهم أمر مستحيل.. فالدوائر التليفونية المغلقة كانت محددة بكل منظمة أو جبهة.. والإتصال بالمنظمات أو الجبهات الأخرى فى بيروت نفسها كان يتم عبر خطوط شبكة المدينة.. وكذا الإتصال بالخارج.

وعلى ذلك كانت السرية خاضعة للخدش والاختراق عن طريق زرع أجهزة التنصت.. أو باستراق السمع بأسلوب «مارون الحايك» و «مانويل عساف» من خلال الغرفة السرية.

هذه الغرفة أقامتها الميليشيا المسيحية المسلحة فى لبنان بغرض التجسس على المسلمين اللبنانيين.. وعلى الفلسطينيين الذين اتخذوا من حى «الفكهانى» مقرّاً لهم.. فكان بمثابة عاصمة فلسطينية وسط بيروت وجنوبها.

فبالحى الذى يقع بالقرب من مخيمى «صبرا وشاتيلا».. أعدت منظمة التحرير مكاتبها بطريقة عشوائية حول مبنى جامعة الدول العربية.. وأقام قادتها فى مبان مجهولة تحت حراسات مشددة.

فالمنظمة التى أسسها «عرفات»[1] ـ خريج هندسة القاهرة عام ١٩٦٥ ـ

(١) يقول صلاح خلف «أبو إياد»: تقابلنا فى ١٠ أكتوبر ١٩٥٩.. مجموعة صغيرة فى منزل لعميد فى مدينة الكويت.. بهدف الانتهاء من البناء الهيكلى لمنظمة فتح.. كنا فى مجموعنا أقل من العشرين مشاركاً كممثلين لجماعات سرية من مختلف البلدان العربية وغير العربية. وأعلن تدشين منظمة «فتح» تصغير لـ «حركة التحرير الفلسطينية» مرتبة أول حروفها ترتيباً عكسياً.. وكان السبعة المؤسسون لفتح هم: =

كانت أكثر من مجرد مقاومة شعبية.. بل جيش مسلح مدرب يتربص بإسرائيل لضربها فى الأعماق..!

كانت «أمينة المفتى» تدرك ذلك جيداً.. وترى بنفسها الرقابة القوية الصارمة التى تفرضها كبرى المنظمات الفلسطينية - فتح - على منشآتها فى حى الفكهانى.. والحراسة المكثفة حول مكتب عرفات كلما ذهبت لمقابلته.

وصباح ٢٣ مايو ١٩٧٤ بدأت أولى رسائل مارون إليها.. حيث أبلغها بخبر هام للغاية بثته «أمينة» فوراً إلى إسرائيل:

- «بعد ثلثى الساعة من الآن.. سيهاجم ثمانية من الفدائيين المتسللين مستوطنة «زرعيت».. تسليحهم كلاشن وقنابل ٥٧ مم/ م. د».

وكانت المعلومة صادقة تماماً.. فقد قتل ثمانية فدائيين وأسر اثنان.

وبعد هذه العملية طلبت «أمينة» من «مارون» أن تتنصت بنفسها على مكالمات القادة الفلسطينيين.. فأتاح لها زميلها هذه الفرصة التى ما حلمت بها من قبل.. وعندها اقتحمت الخط السرى الخاص بمكتب «جورج حبش».. ولاحظت بعد عدة مكالمات له.. أن هناك ترتيبات لإحدى العمليات السرية يتم إعدادها.

وذات مرة.. انفجر الحوار ساخناً بينه وبين أحد مساعديه فى صيدا.. حيث بدأ «حبش» منفعلاً أشد الإنفعال وهو يأمر مساعده بالإسراع لإتمام العملية يوم

= ١ - ياسر عرفات: رئيس المنظمة - مات بباريس فى ٩ نوفمبر ٢٠٠٤.

٢ - صلاح خلف: مساعد عرفات وقائد عام أيلول الأسود.. والمشرف على الاستخبارات الفلسطينية.. اغتيل فى تونس فى يناير ١٩٩١.

٣ - كمال دوان: مسئول العمليات داخل الأرض المحتلة وعضو هيئة الأركان.. اغتيل ببيروت فى أبريل ١٩٧٣.

٤ - محمد يوسف النجار أبرز قادة أيلول الأسود بعد صلاح خلف.. ورئيس جهاز الاستخبارات «رصد».. اغتيل ببيروت فى أبريل ١٩٧٣.

٥ - فاروق قدومى: رئيس الدائرة السياسية وعضو اللجنة التنفيذية.

٦ - محمود عباس أبو مازن: عضو اللجنة المركزية.

٧ - خليل إبراهيم الوزير: المسئول عن العمليات داخل الأرض المحتلة.. اغتيل فى تونس فى أبريل ١٩٨٨.

٢٣ يونيو.. وفى غمرة انفعاله نسى القائد الكبير عوامل الحس الأمنى ونطق اسم «كيبوتز شامير» سهواً.. وبعد ثلاثة أيام كان هناك خمسة فدائيين قتلى على مشارف الكيبوتز.. بوغتوا قبلما يستعملوا رشاشاتهم.. وفى ٢٧ يونيو لقى ثلاثة فدائيين مصرعهم بعدما قتلوا أربعة جنود إسرائيليين فى «نهاريا»..!

* * *

تقول أمينة المفتى:

- كنت وراء أغلب هذه العمليات التى راح ضحيتها العديد من الفدائيين.. أولئك الذين غرر بهم باسم الجهاد والوطنية وثورة ثورة حتى النصر..!!

وبالرغم من أن هذه الهجمات البسيطة كانت غير مؤثرة بالمرة.. فقد دأبت الطائرات الحربية الإسرائيلية على الرد بوحشية إثر كل عملية.. فتدك المواقع الفلسطينية فى الجنوب من معسكرات ومحطات تموين ومراقبة.. بل وتضرب كل ما هو فلسطينى على أرض الدولة اللبنانية للوقيعة بين الشعبين.

فى تلك الفترة كانت المعلومات التى أتحصل عليها من خلال الغرفة السرية حيوية جداً وهامة للغاية.. ولا تحتمل تأويل أو شك لأنها تجىء عبر أحاديث أعلى المستويات القيادية الفلسطينية.

سلسلة طويلة من التبليغات قمت بها.. وأودت بحياة العشرات من الشباب الغض الفدائى المكافح.. عمليات ناجحة لعميلة مخلصة أشعرتها بأهمية دورها الإنتقامى دون إحساس ولو ضئيل بالندم.. بل ازدياد مستمر فى حدة الغضب وضراوة الثأر لفقد زوجها.

ومنذ منتصف عام ١٩٧٤ دعمت الموساد الاتصالات السرية مع ميليشيا الكتائب.. اعتقاداً منها بأنها ستعمل على إسكات المقاومة الفلسطينية فى جنوب لبنان.. وسيكون لها الدور الحيوى فى التجسس على الجيش السورى.

لذلك.. كانت صفوف طويلة من عملاء الموساد تعمل فى لبنان باطمئنان.. فى حين كان الخوف كل الخوف من جهاز الاستخبارات الفلسطينى وجناحه العسكرى الذى يترأسه «على حسن سلامة» الذى أحاط كل وافد غريب بدوائر

من الشكوك والريب.

وانتهزت هذا التقارب اللبنانى/ الإسرائيلى وسعيت خلف المارونى «بشير الجميّل» الذى كان محامياً فى بلاد لا قانون فيه.. حيث كان من المنتظر تصعيده إلى أعلى المناصب فى الكتائب.. فجمعت عنه حصيلة هامة من المعلومات زودت بها الموساد.. وكان من ضمنها أن الشاب اليافع ماكر وجرئ وإجرامى.. فرغم كونه أصغر ستة أبناء لبيار الجميّل.. إلا أنه تقدم بسرعة.. ولم يبد أى تردد فى قتل حلفائه المسيحيين ـ أفراد أسرتى شمعون وفرنجية ـ حتى أصبح فيما بعد مسئولاً عن أكبر ميليشيا مسيحية فى لبنان..!

٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٤:

مساء الأول من تشرين الأول ١٩٧٤ كنت بالغرفة السرية منهمكة فى عملى.. إلى جوارى تمتد كابلات جهاز التسجيل.. وعلى كرسيه يقبع خلفى «مارون الحايك» يتصفح مجلة ألمانية تعرض صوراً عارية.. وتلفح جسدى أحياناً نظراته اللاهثة برغم هواء الغرفة المكيف اللطيف.

كانت الغرفة الواسعة ذات بابين.. أحدهما مغلق دائماً من الداخل ولا يفتح إلا عند دخول أو خروج الموظف المختص.. وهو يؤدى إلى الممر الرئيسى.. أما الثانى فباب سرى يشكل جزءاً من دولاب حائط كبير.. ويتصل بسلم خلفى صاعد.. وهو المخبأ الخاص بى عند حدوث أى طارئ.

فى ذلك اليوم كنت أنصت إلى حديث هادئ بين «عبد العزيز الكيالى» زعيم جبهة التحرير العربية التى ارتبطت بحزب البعث العراقى.. و«أحمد جبريل» زعيم جبهة التحرير الشعبية.. وأصابنى الملل من حوارهما الذى لا جديد به.. فالتفت إلى مارون الذى كان يلتهمنى ويخترق مؤخرتى بنظراته وسألته عمن يعرف سر هذه الحجرة.. فأجابنى بأنهم نفر قليل.. وأن إجراءات دخولها تخضع لتعقيدات وقيود كثيرة.. وأنه لولا الأربعين ليرة التى دفعها لحارس الغرفة السكير ما استطاعا الدخول إليها.. أبداً..!

كان «مارون» يحدثنى بنبرة تفيض ثقة.. بما يدل على أنه قام بعمل بطولى

لأجلى.. لذلك ترك مقعده واقترب منى مبتسماً.. فقبلته.. وأحسست وهو يخاصرنى بأنه تجرأ أكثر وأكثر.. وازداد لهاثه يريد منى الكثير فنهرته بلطف.. وعاودت الاستماع بتركيز لكن معظم الخطوط كانت صامتة.. ففكرت بالتوقف والانصراف.. لكن طرأت ببالى فكرة التجسس على تليفون «سلامة».

كنا قبيل منتصف الليل بقليل.. وسمعت «سلامة» يتحدث وشخص ما ربما يكون «أبا نضال»[1].. فضغطت على ذر التسجيل وأحكمت سماعتى الميكروفون فوق أذنى وانتبهت للحوار الدائر بينهما.

كان «مارون» ما يزال ملتصقاً بى من الخلف يحاول إثارتى بقبلاته المجنونة ولمساته الضاغطة.. وفجأة اقشعر بدنى كله وبدأ شعر رأسى كأنه يتصلب كالمسامير.

كان سلامة يقول للطرف الآخر فى انفعال:

- التل[2] وحده لا يكفى.. علينا برأس الحية صديق اليهود.. ومؤتمر الرباط فرصتنا الأكيدة فلنكن حذرين.. والله معنا..!!

وحين نزعت الكابلات كانت رأسى تدور فى ذهول وتدور يد «مارون الحايك» تتحسسنى.. فأزحته بلطف وسألته أن يؤمن لى الطريق لأخرج.. وفى شقتى لم أقو على الانتظار حتى أبدل ملابسى.. فكتبت تقريراً مختصراً بعثته مشفراً إلى الموساد.

وبعد ست وثلاثين دقيقة جاءتنى رسالة تطلب منى إعادة البث.

لقد كانت المعلومات التى أرسلتها خطيرة جداً.. وعندما جاءتنى الرسالة أيقنت أن القلق ركب رؤوس القيادة فى إسرائيل.. خوفاً على حياة صديقهم العربى المخلص: «الملك حسين».. وتأكد لى أن الحكومة الإسرائيلية فى حالة

(١) أبو نضال «صبرى خليل البنا» قائد مجلس فتح الثورى.. قام بعمليات إرهابية عديدة وطاردته أغلب المخابرات فى العالم.. لجأ إلى العراق وقتل فى أغسطس ٢٠٠٢ ببغداد وقيل إن صدام قتله لتموت الأسرار معه.

(٢) وصفى التل: رئيس وزراء الأردن.. قيل إنه اشترك فى مذابح الفلسطينيين فى الأردن.. واغتاله اثنان من عناصر أيلول الأسود فى ١٨ نوفمبر ١٩٧١ بفندق شيراتون القاهرة.. وقام أحدهما بشرب دمه..!

رعب الآن وربما يعقد اجتماع سريع يضم أعلى المستويات لمناقشة كيفية التعامل مع هذا الخبر الرهيب.

مرت نصف الساعة حتى جاءتنى رسالة جديدة تحمل تكليفاً هو غاية فى العجب والدهشة.. إذ أُمرت بالبحث عن وسيلة لدخول شقة سلامة[1].. ولما كان ذلك مستحيلاً ألغى التكليف لخطورته.

لكن الجديد أننى حتى تلك اللحظة.. لم أكن أعرف أن لسلامة أولادا رزق بهم من زوجته الأولى التى قيل إنها ابنة أخت مفتى القدس الحاج أمين الحسينى.. وقلت فى نفسى متعبة وقد طغت علىّ الدهشة:

- أترضى ملكة جمال الكون بدور الزوجة الثانية..؟

بلا شك أنها رضيت بذلك لتفوز بذلك الشاب الأسطورى الذى يفيض رجولة ووسامة..!!

يا لسلامة المحظوظ.. الهانئ السعيد..!!

كانت فكرة اغتيال الملك حسين مسيطرة على الفلسطينيين لارتباطه بعلاقات سرية وثيقة بالإسرائيليين خوفاً على عرشه.. وأذيع عنه اجتماعه بموشى ديان لمرات عديدة وكذلك مع «مناحيم بيجن».. ففى تلك الفترة كان الفلسطينيون يشكلون نحو نصف سكان مملكته.. ويشكلون أيضاً مصدر إزعاج متزايدا له.. بقيامهم بعمليات فدائية مسلحة انطلاقاً من الأردن.. فيرد عليها الإسرائيليون بالمثل.. ويضغطون على الملك لوقف تلك العمليات التى تضر بمملكته.. وكانت مجزرة «أيلول الأسود» إحدى نتائج هذه الضغوطات التى أدت لنزوح المقاومة إلى جنوب لبنان.

وبعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ توصل العرب فى الجزائر إلى صيغة رسمية تعترف بأن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى..

---

(١) ذكرت بعض المصادر الإسرائيلية أن أمينة دخلت شقة سلامة بحجة علاج أطفال من زوجته الأولى.. لكن ذلك كان بغرض الدعاية فقط ولا أساس له من الصحة.. وإذا افترضنا حدوث ذلك بالفعل.. فسلامة كان يقيم بشقته الأخرى مع جورجينا.. ولم يكن يأخذ إلى مسكنة أية أوراق هامة بالمرة..!

وشكل الأمر خلافاً مع الملك حسين الذى كان يدعى لنفسه بهذا الحق.

وفى تموز ١٩٧٤ اتفق السادات وحسين على صيغة أخرى تحفظ ماء وجه الملك.. وهى أن المنظمة هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى باستثناء هؤلاء الذين يعيشون فى المملكة.. مما أثار الرأى العام الفلسطينى وفكر سلامة باغتيال الملك.

وبعد الرسالة التى بثتها «أمينة» إلى تل أبيب.. أخبر الملك بخطة اغتياله التى تقرر تنفيذها فى الرباط أثناء حضوره لمؤتمر القمة العربى فى أكتوبر ١٩٧٤.. لكن السلطات المغربية أفشلت العملية عندما ألقت القبض على وحدتى كوماندوز فلسطينيتين وصلتا من إسبانيا لتنفيذ العملية.. وتم التعتيم على العملية فى حينها خاصة وقد جاء عرفات لحضور المؤتمر.. وفيه حقق نجاحاً كبيراً وحصل على دعم عربى لشرعية منظمة التحرير.

وبموجب مقررات المؤتمر أصبحت المنظمة مسئولة عن وضع الاستراتيجية التى ترى أنها كفيلة باستعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين.. أى مطالبة باتخاذ مواقف واضحة ومحددة: فهل هى تريد تحرير فلسطين كلها أم جزء منها تقام عليه الدولة الفلسطينية.. وفى هذه الحالة كيف ستعمل للوصول إلى هذا الهدف..؟

هل تريد الوصول لهدفها بجهدها الخاص..؟

أم بالتنسيق بين مصر وسوريا دولتىْ المواجهة..؟

وهل تريد العودة إلى قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨؟

أم تريد إقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة..؟

وكيف ستحل مشكلة الإعتراف بالوجود الإسرائيلى فى فلسطين.. أو باعتراف إسرائيل بها..؟

وهل هى مستعدة للإعتراف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ إذا ما عدلت الفترة التى تتحدث عن «اللاجئين الفلسطينيين» إلى «الشعب الفلسطينى»؟

عشرات الأسئلة طولبت عميلة الموساد بالبحث عن إجابات لها بالتنصت على هواتف أعضاء اللجنة التنفيذية العشرة لاستبيان نواياهم.. وهم خليط من

كافة التيارات الفلسطينية.. يمينية.. ومتطرفة.. ويسارية محايدة.. ومتعصبة.. وشيوعيون.. وهناك أيضاً ديمقراطيون.. اتفقت جميع هذه التيارات على هدف واحد هو «تحرير فلسطين» مع اختلاف فى التكنيك.

انشغلت «آنى موشيه» بشكل لم يسبق له مثيل باستخلاص اتجهات شتى التيارات الفلسطينية.. وساعدها «مارون ومانويل» فى عمليات التنصت.. وإلى جانب ما كانت تمنحه لهما من مكافآت سخية.. تركت لهما جسدها أيضاً زيادة فى السخاء.

أما صديقتها «خديجة زهران» التى طلقت من زوجها الأول.. ثم انفصلت عن زوجها الثانى.. فقد مرت بظروف مادية سيئة بعدما استولى زوجها الأول على محل الملبوسات.. ثم استولى الثانى على كامل مدخراتها.. لذلك سقطت فريسة سهلة فى براثن «أمينة» فى فترة من أحلك لحظات ضعفها ويأسها وخوفها من المستقبل.

استغلت «أمينة» ظروف صديقتها الخائرة وحاجتها إلى النسيان والثراء.. وأغدقت عليها بما ظنت أنها افتقدته إلى الأبد.. وكان من السهل على امرأة فى مثل ظروفها أن تسقط.. لكن ليست مثل هذه الظروف ذريعة للخيانة.. فالمرأة المطلقة كانت سيئة السلوك لا تعر الشرف انتباهاً أو اهتماماً.. ولأنها كانت تقترب من الأربعين فالطلب عليها من هواة النساء كان قليلاً.. فكانت تضطر لشرائهم بالمال..!

وبعدما فقدت أموالها.. منحتها «أمينة المفتى» ما تحتاجه.. مقابل أن تبيع نفسها للموساد..!!

رباعى عجيب انطلق فى مهام تجسسية صعبة لإمداد إسرائيل بأخطر المعلومات عن القادة الفلسطينيين واستراتجيتهم فى الجهاد.. والقيام بعمليات مناوراتية أو عسكرية ليس فى فلسطين فحسب.. بل ضد المصالح الإسرائيلية المختلفة فى كل بلاد العالم.. وعن أولئك الذين قرروا اللجوء إلى السياسة والدبلوماسية لتحرير الأرض..!

استشعر الفلسطينيون فى ذلك الوقت وجود مؤامرات لبنانية لتصفيتهم.. وقالوا للبنانيين:

- أنتم لا تستطيعون تصفيتنا لأنكم لا تملكون القوة الكافية لذلك.. ونحن لا نريد منكم إلا تمهيد الطريق لنا إلى فلسطين.. والطريق إلى فلسطين يمر «بعينطورة وجونية» وهما منطقتان مسيحيتان.. إحداهما فى الجبل والثانية على الساحل.

فتساءل اللبنانيون:

- كيف ذلك والجبل يبعد عن طريق فلسطين بأكثر من مائة كيلو متر..؟!

وكانت تلك مقدمة الحرب الأهلية اللبنانية..!!

٢٣ كانون الثانى/يناير ١٩٧٥:

فى ٢٢ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٧٤ دخل ياسر عرفات لأول مرة مبنى الأمم المتحدة بردائه العسكرى ومسدسه.. وألقى كلمته التى استمرت تسعين دقيقة وسط تصفيق حاد منقطع النظير.

وجاء فى كلمته:

- جئت اليوم ومعى غصن الزيتون فى يد.. وسلاح المقاومة فى اليد الأخرى.. فلا تدعونى أسقط غصن الزيتون من يدى..!!

أقرت الجمعية العمومية مشاركة منظمة التحرير كمراقب.. فيما أعلن مندوب إسرائيل:

- ستتعقب إسرائيل القتلة من منظمة التحرير الفلسطينية.. ولن تسمح فى أى جزء من إسرائيل أن تصل إليه سلطة المنظمة.. إن قتلة الرياضيين فى ميونيخ.. وقتلة الدبلوماسيين فى الخرطوم لا ينتمون بكل بساطة لهذا المجتمع الدولى.

وبعد أسبوع واحد من هذا الحدث المثير.. بثت «أمينة» رسالة إلى الموساد تفيد بأن هجوما فدائيا سيتم بعد عدة ساعات على إحدى مدن الشمال.

وقبلما تتخذ السلطات الإسرائيلية التدابير الأمنية الكافية كان ثلاثة من

فدائى الجبهة الديمقراطية قد هاجموا مدينة «بيت شين» Bet shean انطلاقاً من الأراضى الأردنية على غير المتوقع.. فقتلوا أربعة إسرائيليين ثم جزوارؤوسهم وكتبوا بدمائهم:

- فليرحل أبناؤكم قبلما يلقوا ذات المصير.

بثت «أمينة المفتى» رسالة استنكار شديدة اللهجة بدعوى أنها أبلغت عن العميلة قبل وقوعها بوقت كاف.. وتشجيعاً لها جاءها الرد الذى يفيد امتنان الحكومة الإسرائيلية بما تتوصل إليه من أخبار.. لكن معرفة مكان العملية لم يكن بالأمر السهل.. وإضافة إلى ذلك فقد تقرر صرف مكافأة خاصة لها ولأعضاء شبكتها.

فى ذلك الوقت كانت مدخرات عميلة الموساد تزيد عن المائتى ألف دولار.. بالإضافة إلى خمسمائة ألف أخرى هى مكافأة خاصة صرفتها بعد مقتل «موشيه»..!

وبعد يومين فقط من عملية «بت شين».. اختطف أربعة فدائيين طائرة بريطانية بعدما تسلقوا سور مطار «دبى» الدولى وطاروا بها إلى تونس وعلى متنها «٤٧» راكباً.. وما هى إلا أيام حتى أعلن «أبو إياد» فى نهاية كانون الثانى/ يناير ١٩٧٥:

- إننى أعد بأن هذه الحادثة العارض سيكون الأخير.

كان هذا التصريح كالقنبلة.. إذ أصبح لا وجود لجبهة: «أيلول الأسود».. فقد غطت الحرب الأهلية اللبنانية على كل شىء.

وعندما طلبت «آنى داوود» الإذن بتفكيك شبكتها ومغاردة بيروت إلى تل أبيب.. أعيد تذكيرها بأن عليها إيجاد الفرص المناسبة لتوطيد علاقتها بـ «على حسن سلامة» فى محاولة للوصول إلى القوائم السرية لرجال مخابراته فى أوروبا.. وكذا خططه اللعمليات السرية المطروحة.

* * *

القسم الخامس والعشرون
السقوط

«قررت الا أموت بأيدى الفلسطينيين.. فهم سوف يقتلوننى لا محالة.. وبين خصلات شعرى كانت كبسولة سم السيانيد بحاجة إلى ثلاث ثوان فقط لمضغها.. وقبلما أمد يدى كانت أيدى رجال الأمن أسرع من انقضاض الكوبرا على فريستها..!»

وقعت أمينة فى الخطأ الفادح الذى قد يقع فيه أعتى خبراء التجسس.. خصوصاً عند التعامل مع رجل أمن يتمتع بذكاء فطرى غير عادى.. وحاسة أمينة تشبه حاسبة الكلب المدرب الذى أجاد التعامل مع المجرمين والإمساك بهم.

وكان ذلك أثناء لقاء جمعها بسلامة فى الكورال بيتش وسألته يومها عن أولاده وصحتهم.

دهش رجل المخابرات الذى أكدت له ذاكرته أنه لم يحدثها قط عن أولاده.. فهى مجرد امرأة عابرة لا صديقة حميمة.. حتى أنه قدم نفسه إليها كرجل أعمال ثرى باسم آخر وهى: «كمال ياسين».

وبحاسته الأمنية العالية ملأه الشك تجاهها.. وفى الحال قرر البحث عن ماضيها.. وطلب من رجاله فى عمان موافاته بشتى البيانات عن الطبيبة الأردنية «أمينة داوود المفتى» التى يعيش أهلها فى فيلا كبيرة بحى «صويلح» أرقى وأروع أحياء عمان.. وأنها غادرت وطنها للدراسة فى النمسا.. ولمشاحنات مع أهلها قررت عدم العودة وانقطعت صلتها بهم حتى تلك اللحظة.

نبذ «سلامة» شكوكه وعادت ثقته بأمينة المفتى من جديد.. وفى الوقت الذى كانت تمر فيه ببعض المشكلات المتعلقة بتجديد جواز سفرها أو استخراج آخر جديد.. وصلت «إخبارية» سرية من «فيينا» قلبت الأمور رأساً على عقب.

إذ تبلَّغ أن شاباً فلسطينياً يعيش فى «فرانكفورت».. صرح لمصدر سرى بأنه تقابل مع شاب فلسطينى فى «فيينا» جمعته به حانات المدينة.. وأخبره هذا الشاب الذى لا يعرف اسمه.. أن له صديقة نمساوية يهودية ماتت إثر تعاطيها جرعة زائدة من عقار مخدر.. وكان لها أخ يعمل طياراً تزوج من فتاة عربية مسلمة هربا معاً إلى إسرائيل.. ولأنها درست الطب انتقلت إلى لبنان للعمل ولتقصى أخبار زوجها الذى سقطت طائرته واعتبر مفقوداً.

كان البلاغ برغم محدودية معلوماته يحمل نبرة عالية من الشك.. فلو أن هذا الأمر حقيقياً فهناك إذن جاسوسة للموساد بين الفلسطينيين فى لبنان.

طلب سلامة الوصول إلى الشاب الفلسطينى فى «فرانكفورت» لإعادة

استجوابه ولو اضطروا لأخذه إلى النمسا ليدلهم على الفلسطينى الآخر الذى يحمل بقية المعلومات فى جعبته.. كاسم الفتاة وعنوانها أو مكان عملها.. وبذلك يتم التوصل إليها فى وقت وجيز.. وإلى حين تجيئه معلومات جديدة أمر «سلامة» بحصر كل الطبيبات العربيات المتطوعات فى المستشفيات الفلسطينية.. واللبنانية أيضاً.. خاصة الحاصلات على شهادة الطب من إحدى جامعات النمسا.

* * *

كان «على حسن سلامة» شاباً ذكياً خارق الذكاء.. شاهد بنفسه مقتل والده بين اليهود وهو فى الخامسة عشرة من عمره.. ففرت به والدته من «الرملة» إلى «نابلس» فى الأردن.. وهناك عاش مثل آلاف الفلسطينيين فى مخيم بائس يفتقر إلى المياه والكهرباء.. فأكمل تعليمه الثانوى متجاهلاً مطاردات الفتيات له بسبب وسامته وجسمه الرياضى.. حيث لم يكن يهتم إلا بالسياسة ونكبة فلسطين.. ثم حصل على منحة للدراسات بالجامعة الأمريكية ببيروت التى كانت وقتئذ مجتمعاً لكبار المثقفين الفلسطينيين.

وفى الجامعة تبلورت ثقافته السياسية وثوريته.. وكان يقول دائماً: لقد نسونا.. وإذا لم نفعل شيئاً سنبقى دائماً فى الطين والوحل. أذلاء بلا وطن(١).

وبعد ما أنهى دراسة الهندسة التقى بعرفات الذى كان قد أسس منظمة التحرير.. فشغل منصب قائد القوة (١٧) المنوطة بحراسة عرفات.. وسميت بذلك الاسم لأن تليفونها الداخلى كان يحمل الرقم (١٧).. ثم رئيس العمليات بجبهة «أيلول الأسود» التى دوخت إسرائيل.. كما شغل منصب قائد الجناح العسكرى بجهاز الاستخبارات الفلسطينى «رصد».

تعقب سلامة الجواسيس الذين اخترقوا صفوف المقاومة.. وحصل على دورات تدريبية على أيدى رجال المخابرات المصرية.. واستهواه العمل الفدائى ومطاردة الخونة الذين كان ينفذ فيهم بنفسه حكم الإعدام رمياً بالرصاص.

(١) وليم ديشيل: إريكا.. عملية الموساد. ترجمة د. رمضان أبو العلا.. د. عبد العظيم حسنة، مكتبة مدبولى الصغير.. القاهرة.

إضافة إلى ذلك اشتهر بأنه كان يجيد التخفى وتضليل مطارديه.. ويتمتع بمكر الثعلب وجسارة الأسد.. وصلابة الفولاذ.

ولما جاءته معلومات مبدئية تفيد وجود طبيبة عربية متطوعة تعمل لصالح الموساد فى لبنان.. كانت أمامه قائمة تضم (٣٧) طبيبة.. أربعة منهن فقد حصلن على شهاداتهن العلمية من جامعات النمسا.. إحداهن كانت «أمينة داوود المفتى».

وفى انتظار التقرير الحاسم الذى سيجىء من أوروبا.. أمر «سلامة» بوضع الأربعة تحت المراقبة الصارمة على مدار اليوم.

* * *

تقول أمينة المفتى فى مذكراتها:

- بعينى الجاسوسة المدربة أحسست بأن هناك عيوناً ترقبنى وتترصد خطواتى.. ولا تكاد تترك لى مساحة من الحرية لأتحرك هنا وهناك كما اعتدت دائماً.. وعندئذ أدركت بأن الموت يقترب منى أكثر وأكثر.. وفكرت بالتخلص من جهاز اللاسلكى دليل الإدانة الذى سيقدمنى إلى حبل المشنقة.. أما مذكراتى فقد قررت إرسالها إلى «فيينا».. وكتبت إلى صاحبة المسكن القديم بشارع «شتراوس» أطلب منها الاحتفاظ بهذه الأوراق إلى حين سفرى إليها.. وبعثت بآخر رسائلى إلى الموساد:

- «هناك من يراقبنى ليل نهار منذ صباح الأمس.. أنا خائفة ومرتبكة وسأموت رعباً.. أفيدونى».

- ضعى الجهاز ومحتوياته بسلة قمامة الشقة التى تعلوك مباشرة.. تخلصى من الشيفرة.. لا تخافى ويجب ألا تظهرى ذلك.. تصرفى بتلقائية شديدة ولا تتصلى بشركائك.. غادرى بيروت براً إلى دمشق.. ستجدين رسالة بمقهى الشام.

* * *

وبرغم الأوامر شديدة الوضوح.. إلا أنها وقد فعلت كل شىء اتصلت بأحد أفراد شبكتها بدافع التحذير وعدم الاتصال بها أو ببقية الأعضاء.. إذ اتصلت بخديجة زهران وأخبرتها أنها فى طريقها إلى دمشق «الشام» لعدة أيام.

يشفق خبراء أجهزة الاستخبارات دائماً على العميل الخائف.. خاصة إذا كان مزروعاً ببلاد الأعداء.. ويدركون جيداً حجم المعاناة النفسية التى تغشى تفكيره مما يعرضه للسقوط لوقوعه فى حالة ضعف تدمر أعصابه وتشل تفكيره بل وتعصف بثباته وجرأته.

وهم فى هذه الحالة يفضلون أن يفر عميلهم إنقاذاً لحياته.. لذلك أصدروا أوامرهم لأمينة المفتى بالهرب.. وشرعت فوراً فى تنفيذ أوامر رؤسائها.

* * *

يعصف بها الخوف والهلع.. حملت «أمينة» حقيبة يدها الصغيرة وغادرت شقتها لآخر مرة.. لتدور بعدها فى شوارع «بيروت» أشرس عملية هروب ومطاردة من جاسوسة الموساد الخائفة وقوات الأمن الفلسطينية.

* * *

بعد سنوات.. قالت أمينة فى مذكراتها عندما أتيح لها تذكُّر تفاصيل تلك الفترة:

- كنت فى حالة تشبه الانهيار.. إذ تمكن الخوف منى ولم أعد بقادرة على التصرف بهدوء كما طُلب منى.. أعرف أن هناك من يطاردوننى ويقتفون خطواتى.. وبما لدىّ من حاسة أمينة استطعت أن أميزهم يلاحقوننى عبر الشوارع والباصات.

ساعتئذ أدركت بأن النهاية قد اقتربت.. ويجب على أن أدفع ثمن ما ارتكبته من جرائم فى لبنان.

وفى موقف الباصات المتجهة إلى «الشام» اعتقدت أننى ضلَّلتهم.. حتى إذا ما صعدت إلى الباص وجلست ألوك «العلكة» لأتزود ببعض اطمئنان.. فوجئت برجلى أمن يقفان إلى جوارى.. فألجمنى الخوف والهلع وانخرست الكلمات بحلقومى.

قال لى أحدهما بلهجة آمرة: نريدك لدقائق.. لن نؤخرك..!

التفت حولى.. لم يكن أى من الركاب يشعر بأى شىء.. ويبدو أننى تأخرت فى القيام لمصاحبتهما.. لذلك لمحت نظرات الشر بأعينهما والتصميم على اصطحابى ولو بالقوة.. كما لمحت سيارة أمن تقف ومن حولها عدة أشخاص.

فى تلك اللحظة قررت ألا أموت بأيدى الفلسطينيين.. فهم سوف يقتلوننى لا محالة.. وبين خصلات شعرى كانت كبسولة سم السيانيد بحاجة إلى ثلاث ثوان فقط لمضغها.. وقبلما أمد يدى فى حركة سريعة لتناول الكبسولة.. كانت أيدى رجال الأمن أسرع.. إذ انقضَّت على يدى انقضاض الكوبرا على فريستها.

حملتنى الأيدى القوية حملاً إلى خارج الباص وسط ذهول الركاب.. حيث كانت هناك سيارة «بيجو ستيشن» مفتوحة الأبواب كانت تقف خلف الباص.. إلى جوارها وقف رجلان مسلحان جامدى الملامح.. وقبلما أصل إلى السيارة انهرت وبكيت.. فقاما بتكبيل يدى ثم رفعانى عن الأرض رفعاً وألقيا بى داخل السيارة التى انطلقت بى إلى حى الفكهانى تسبقها سيارة «أودى» تقل أربعة رجال أقوياء مدججين بالسلاح.

وفى موضع آخر من مذكراتها تقول «أمينة المفتى»:

- أمام أحد مبانى منظمة التحرير بالقرب من المدينة الرياضية قاموا بتغميتى.. ثم أودعونى غرفة ضيقة تحت الأرض وبالغوا فى تقييد يدى من الخلف بسلسلة حديدية ربطت إلى الحائط.

والذى عرفته فيما بعد أنهم لم يكونوا قد حصلوا على دليل واحد لإدانتى.. فالتقرير الأمنى لم يكن قد وصل بعد من أوروبا.. لكننى عجلت بكشف نفسى لهم عندما حاولت الانتحار بالسم.. وجاءت نتيجة التحاليل أسرع من توقعى.. وعلى ذلك تأكد تورطى فى أعمال خطيرة استدعت إنهاء حياتى بيدى.

قبعت داخل زنزانتى المظلمة أرقب الموت القادم.. وتنسل من عروقى نبضات القوة والصبر رويداً رويداً.. حتى استحالت الدقائق عندى إلى جحيم مهلك.. وانقلب الانتظار إلى وحش مسعور يفتك بعقلى.. وعند تفتيش شقتى ببيروت لم يعثروا على دليل مادى يديننى.. فقد كان لدى الوقت الكافى لإزالة أى شىء يؤخذ ضدى.. ولم أترك خلفى سوى «المصحف الشريف» وقد انتزعت منه عدة صفحات تشكل فى مجملها كل سورة «بنى إسرائيل» وصفحة من سورة «الكهف».

هذا الأمر مثَّل لغزاً محيراً لرجال الاستخبارات الفلسطينية «رصد».. الذين فشلوا فى «رصد» عميلة الموساد والتحرى عنها عندما وصلت إلى بيروت

كطبيبة متطوعة.

* * *

وفى «فيينا».. كان رجال «رصد» يلهثون وراء البحث عن الشاب الفلسطينى العابث يرافقهم الشاب الآخر صاحب البلاغ الذى جىء به من فرانكفورت خصيصاً لإتمام هذه العملية.. وبعد بحث طويل مرهق فى شوارع وحدائق وحانات «فيينا» فشلوا فى العثور على ضالتهم.. ولم يكن أمام رجال «رصد» إلا أن يسلكوا الطريق الصعب باللجوء إلى «مكتب الزواج من أجانب».. وهى خطوة جريئة وخطيرة.. إذ ربما يؤدى ذلك إلى لفت رجال الموساد فى «النمسا» إلى ما ينقبون عنه.. فكانت عملية البحث وفقاً لهذه المخاطر تتم تحت ستار كثيف من السرية والتكتم.

وبواسطة خطاب مزور صادر عن إحدى الجهات الرسمية يخاطب مكتب الزواج.. أمكن كشف الحقيقة المذهلة.. والوصول بالتالى إلى عنوان شقتها.. وبعد مراقبات دقيقة أمكن اقتحام الشقة والعثور على بقية الأدلة التى تبين كيف وقع هذا الزواج المحرم.. وكان ضمن الأدلة أجندة سجلت بها «أمينة المفتى» مذكراتها.. وتفاصيل عملها التجسس فى بيروت.

هكذا انكشف الأمر دون أن يلاحظ عملاء الموساد المنتشرون فى النمسا تحركات الفلسطينيين وبحثهم وراء الحقيقة.

كل هذه الأدلة بداية من شهادة تغيير ديانتها.. وعقد زواجها باسمها الجديد.. وصور الزفاف.. والمذكرات.. تجمعت فى ملف ضخم وضع أمام «صلاح خلف» الرجل الثانى بعد عرفات.. وبدأ فى الحال محاصرة عميلة «الموساد» والسيطرة على أعصابها لكى تنهار فتكشف عن بقية أعضاء شبكتها.. وعما أبلغته لإسرائيل من معلومات.. كذلك دورها الحقيقى فى ترصد حركة المقاومة.. خاصة بعد فشل عدة عمليات فدائية كان وراءها أحد جواسيس «الموساد» النافذين.

* * *

القسم السادس والعشرون
الانهيار

«كان الموقف عصيباً جداً عند عميلة الموساد.. فقد أوصلها الاستجواب إلى مرحلة الشك فالترنح.. وليس هناك من شئ يلى ذلك سوى الانهيار.. فهى اللحظة التى يكون فيها الجاسوس فى أقصى حالات ضعفه.. ويأسه.. وقهره.. فلا عقل إذن أو إرادة.. إنما انصياع كامل يغلفه الخوار..!!

كان العديد من الخطط لاستجواب الخونة والجواسيس... أما والحالة هنا لامرأة عربية ـ امرأة درست علم النفس ـ فالوضع يختلف.. إنها إحدى الحالات النادرة التى تواجه صلاح خلف «أبو إياد» ورجاله.

لذلك نوقش الأمر من شتى جوانبه واحتمالاته.. واقترح «سلامة» اعتماد خطة جديدة للتعامل مع هذه الخائنة.. تقوم على إيهامها بأن زوجها كان أسيراً لدى السوريين.. وقد أطلق سراحه منذ مدة ضمن عملية مبادلة نشرت عنها الصحف.. وقد رفضت إسرائيل إعلامها بالأمر لاستغلالها فى التجسس لأطول وقت ممكن.. ثم إن إسرائيل كانت على علم منذ أسقطت الطائرة أن «موشيه» حىٌّ وكانت هناك مفاوضات طويلة بواسطة الصليب الأحمر الدولى لمبادلته.

كان معنى ذلك أن «الموساد» خدعتها بحقارة وخسة حتى استنزفتها لآخر نفس كما يقولون.

وكان الغرض أيضاً إشعار الجاسوسة المتهالكة بـ «عقدة الذنب» فيتملكها الندم الشديد على ما ارتكبته مقابل خدعة حقيرة.. وعند ذلك ستعترف بلا إكراه كرد فعل طبيعى.. ولكى تكتمل الخدعة سربوا إليها إحدى الصحف اللبنانية اليومية وقد تصدرت صفحتها الأولى صورة زوجها الأسير ضمن العديد من زملائه أثناء عملية المبادلة.

كانت هناك بالطبع نسخة وحيدة من تلك الصحيفة طبعت خصيصاً لأجل هذه المهمة.. أما صورة موشيه فمن خلال صوره التى أُخذت من شقة «فيينا» ثم تركيبها فنياً ضمن إحدى اللقطات التى بدت حقيقية لا شك فيها.

وما إن سمعت الخبر.. حتى لفها صمت يمتزج بالذهول وقد جحظت عيناها لهول المفاجأة التى كانت بمثابة الصدمة.. صدمة وجود «موشيه» حيّاً.. وصدمة الخدعة القذرة التى حاكتها الموساد لاستغلالها.. وانطلق من أعماق صدرها صوت نحيب متحسر كأنه العواء.. وليس هناك أبلغ مما كتبته بنفسه عن تلك اللحظة المريرة فى حياتها.

تقول «أمينة المفتى»:

ـ تركونى ألوك الخوف لفترة طويلة.. خلالها كانت أحاول أن ألملم ذاتى المبعثرة داخل زنزانة ضيقة حقيرة مقيدة بالجنازير إلى الحائط.. وفى السادس من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥ انفتح الباب ودخل الحارس المسلح ذو الشارب الكث الكثيف.. كان يحمل فطورى المكون من رغيف خبز وشريحة من الجبن المطبوخ.. وكالمعتاد جلس أمامى يتصفح جريدته ويناولنى قضمة بعد قضمة.. فلمحت الخبر بالصفحة الأولى.

يا إلهى..! إنه «موشيه».. نعم «موشيه» تتصدر صورته مع رفاقه الأسرى الصفحة ومن تحتها اسمه كاملاً مع أسماء الآخرين.

خيل إلى لحظتئذ أننى أحلم.. أطير إلى الأفق وأكبو.. فأنهمد.. يتشقق حلقومى وتتأرجح رأسى غصباً عنى.. وكأننى فى غيبوبة الموت.

رجوت الحارس أن يطلعنى على ما كتب بالصفحة الأولى.. أو أن يقرأ لى بنفسه فنهرنى ساخراً.. ولحظتئذٍ صرخت متوسلة إليه أن يقرأ.. فأغلق فمى بقطعة كبيرة من الخبز ولطمنى بقسوة على وجهى وهو يردد:

ـ ما لك وما بالصحيفة أيتها المومس الحقيرة..؟

لفظت قطعة الخبز وابتهلت إليه مسترحمة فى ذل ومهانة.. فبسط الصحيفة أمامى على الأرض.. وانحنيت التهم الخبر وأنا لا أصدق.. لقد كان الخبر صحيحاً وكان «موشيه» مايزال حياً.. فانكفأت على وجهى ملتاعة بائسة.. لقد خدعونى إذن فى إسرائيل..!! خدعونى بقذارة لأننى افتقدت المأوى الآمن ولم يعد لى إلا أن أعيش فى «أرض الميعاد».. الخدعة التى أقنعونى بها كما أقنعوا العالم من قبلى.. فأخذت أعض البلاط وألعق الحسرة.. وألعن عمراً ذاب فى الوهم والحقد والغضب..!

لست أدرى بالضبط كنة المشاعر الجياشة التى اجتاحتنى.. لكنها خليط عجيب من التضاربات تفتك بى وتعصف بآمالى.

كم كنت فى حاجة لأن أصرخ.. وأصرخ.. وأنهش وجهى بأظافرى حتى يتقطع.. لكن يداى مغلولتان.. مشدودتان بالجنازير ولا قبل لى إلا بالصراخ.. فصرخت من أعماقى ومن جذور أنسجتى وشراييني.

إذ جثم على صدرى حمل ثقيل من الندم والخوف.. الندم على انتقاماتى البشعة من أبرياء.. والخوف من نهايتى المظلمة.. وطالعتنى على جدران زنزانتى الموحشة أشباح أناس بلا أطراف أو رؤوس.. ينزفون الدم فى فورة كالبركان.. فينزلق على أرض الغرفة وأحس به لزجاً ساخناً.

يا إلهى.. إنها أشباح عشرات الضحايا الذين قتلتهم وقد شحنت بالغباء والقذارة.. أشباح تطوف من حولى فى حجلان مرعب.. ينبعث منها طنين مخيف.. فأضحك ثم.. أصرخ.. وأضرب رأسى فى الهواء لأصرف الأشباح عنى.. وأفيق على «موشيه» الحبيب وقد جاء لينقذنى من عذاباتى.. وأنانيتى القاتلة.

* * *

اقتيدت «أمينة المفتى» إلى مكتب «أبى داوود»[1]، فى الثامن من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥ وهو الذى يجيد عملية استجواب الخونة والجواسيس بذات الأسلوب الذى استخدمه الجستابو خلال الحرب العالمية الثانية مع أسرى الحلفاء.

يعتمد هذا الأسلوب على التوسل بعلم النفس فى كسر حدة الخوف لدى الأسرى.. دون اللجوء إلى أى وسيلة ضغط أو تعذيب.. مع محاصرته بوابل من المعلومات التى تم جمعها عنه وعن رؤسائه.. فيضطر مذعناً إلى الاعتراف بكل ما لديه حيث يرى أنه لا ضرورة للإنكار طالما انكشفت الأسرار التى كان يعتقد بأنها مجهولة.

---

(١) محمد داوود عودة: أبو داوود: ضابط فلسطينى له تاريخ طويل فى الكفاح والمقاومة.. كان أحد المخططين لمذبحة ميونيخ الذى راح ضحيتها أحد عشر إسرائيلياً.. وفيما بعد استدرج إلى الأردن واعتقل هناك وعذب للاشتباه فى تورطه فى محاولة اغتيال الملك حسين بالرباط عام ١٩٧٤.

وبعد إطلاق الرصاص عليه فى وارسو وإصابته إصابة خطيرة.. وكان ذلك فى أواخر السبعينيات.. اختفى نهائياً فى الظلال.. وورد أنه شوهد فى السنوات الأخيرة فى مصر والأردن.

ولكى نشرح أسلوب «أبو داوود» فى استجواب العميلة.. علينا أن نقرأ الشهادة الرسمية التى أداها العريف «سكراف» من المخابرات الألمانية أمام هيئات التحقيق الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا.. وجاء ذلك بعدما تشكلت فى أمريكا هيئة للتحقيق مع بضع مئات من الطيارين الأمريكيين الذين أسروا فى ألمانيا أثناء الحرب.. وكانت قد وجهت إليهم اتهامات بالخيانة وإفشاء الأسرار الحربية عقب أسرهم.

بيد أنهم نفوا جميعاً أنهم تفوهوا بأى سر.. كما أكدوا أنه لم يتم تعذيبهم أو امتهانهم.. وبالتالى لم يحاول أى إنسان أن يرغمهم على الإدلاء بأى أقوال.. فتطلب الأمر استدعاء العريف الألمانى الذى اختص باستجواب الأسرى للمثول أمام إحدى هيئات التحقيق الأمريكية.. لمناقشته فى شأن التقارير التى كان يرفعها إلى قيادته بعد استجوابه لكل طيار أسير.. وكان لشهادته هذه أكبر الأثر فى تبرئة ساحة هؤلاء الطيارين.

يقول «سكراف»:

- خلال سنين الحرب الطويلة المريرة.. قمت منتصباً فى وضع الانتباه ضارباً كعبى أكثر من خمسمائة مرة.. مؤدياً التحية العسكرية لكل طيار أمريكى شاء حظه أن يقع أسيراً فى أيدى قواتنا.. وكنت أقدم نفسى للأسير قائلاً فى أدب وبشاشة:

- سيدى.. أنا العريف «سكراف» وأنا مكلف بسؤالكم بضع أسئلة.. هل لسيدى أن يجلس..؟ من واجبى أن أذكرك بحقوقك التى كفلتها لك اتفاقية جنين لمعاملة أسرى الحرب.. فلك أن تجيب على الأسئلة الثلاثة: اسمك.. ورقمك.. ورتبتك فقط ولا شىء خلاف ذلك.. سيجارة سيدى؟

وكالمعتاد.. أجاب جميع الطيارين على الأسئلة الثلاثة عند بدء أسرهم.. وأستطيع أن أقرر أن كل فرد من الخمسمائة ضابط الذين مروا بغرفتى.. قد أدلى بكل المعلومات التى طلب منى أن أحصل عليها منهم.. دون إهانة أو

تعذيب.. ذلك لأنهم لقنوا عن الطريقة التى يتصرفون بها إذا ما وقعوا فى الأسر.. واحتمال التعذيب الشديد حتى يرغموا على الكلام.

لكن... غاب عنهم الحالة النفسية التى يكون عليها الأسير بعد اكتسابه لهذه الصفة.. فمبجرد شعور المرء بأنه أسير تتولد عنده ضغوط شديدة تشعره كأنه المذنب.. (!) حتى ولو كان أسره خارجاً كلية عن إرادته.. فسيظل موطناً نفسه على مقاومة كل وسيلة لاستجوابه.. وكان علينا أن نستغل هذه الحالة فى عملنا.. بأن نتصرف فى معاملة الأسير على العكس تماماً ممّا يتوقع.

كان الضابط الفلسطينى أحد القلائل الذين تميزوا بأسلوب المهادنة فى استجواب الخونة لإشعارهم بمدى فداحة الجرم الذى اقترفوه.. لكن يبدو أن فلسفة الألمان لم تكن ذات نفع مع جاسوسة محترفة مثل «أمينة المفتى» التى دربت على كيفية مجابهة مثل هذه المواقف الصعبة.. وترتيب الأفكار بحيث لا تخطئ إذا ما اضطرت إلى سرد رواية ما عدة مرات.

وكانت تمارين الذاكرة التى أجادتها خير وسيلة لها للتمسك بأقوالها دون تغيير.. حتى عندما ووجهت بمذكراتها التى كتبتها بخطها وخبأتها فى شقتها بفيينا.. أنكرت كل شىء بدعوى أنها مريضة بالتوهم Delusion وبأحلام اليقظة.. حتى ظنت نفسها بالفعل عميلة للموساد لتمتعها بخيال خصب جامح.. وتأثرها بقصة حياة الجاسوسة الهولندية الشهيرة «مارجريتا جيرترود» أو «ماتا هارى» وابنتها الجاسوسة أيضاً «باندا ماكلويد».

وفى النهاية هناك رغبتها فى الانتقام من العرب لفقد زوجها «موشيه» وعجزها عن ذلك.. مع شعورها بالغربة والكآبة.. وكانت إجاباتها المرتبة.. وبكاؤها المتواصل.. وتشنجات عضلات وجهها أمور تدعو إلى الشعور بالأسف البعيد عن الشفقة.

فقد كانت عميلة الموساد تفلت من مأزق تلو الآخر.. وكأنما أيام الاعتقال كانت بالنسبة لها الفرصة الذهبية لاستعادة توازنها النفسى انتظاراً للمواجهة المصيرية.

فبعقلها.. كانت هناك عمليات معقدة.. تتفاعل.. وتستنبط.. وتحلل.. وتختزن.. وتتوهج.

أما الضابط الفلسطينى فلم يكن من السهل أن يقتنع بصدق إجاباتها.. فهو رجل مخابرات من الطراز الأول.. حاد الذكاء.. نال دورات استخباراتية عديدة فى مصر فى كيفية تعقب الجواسيس.. وقرأ كثيراً فى علم النفس والمنطق وتصنيفات الأمراض النفسية.. وبرع فى التعامل مع مرضى الخيانة والكذب.. حتى اشتهر عنه امتلاكه لحاسة شم قوية تجاه الجواسيس وقدرته على اختراقهم والحصول على اعترافاتهم بسهولة.

وبرغم كل هذه الخبرات.. وقف حائراً أمام تلك المرأة حادة الذكاء التى استجمعت كل قواها وقاومته بشراسة لم يعدها..(!) كانت تدافع عن مصيرها باستماتة من يوشك على الغرق.. فهى تعرف أن مستجوبها أكثر منها ذكاءً.. وأشرس منها صلابة وقوة..!

ندان متضادان كل منهما يسعى إلى هدف مغاير..!!

ثمانية عشرة ساعة من الاستجواب المتواصل و«أمينة» لم تخضع أو تنهار.. أو حتى تبدل كلمة واحدة من إجاباتها التى صرحت بها عشرات المرات.

لكن.. كانت هناك حكاية كبسولة السم..

وجاءت إجابتها عجيبة كل العجب.

فقد بررت وجود السم معها لإصابتها بالجنون الدورى Cyclothynia الذى يسبب لها مضايقات وتشنجات تدفعها للتفكير بالانتحار.

ولما كان سم السيانيد غير متواجد بالأسواق أصلاً.. وتستخدمه أجهزة الاستخبارات فقط لتصفية ضحاياها.. فقد جاءت إجابة «أمينة» مخالفة للحقيقة.. وهنا اضطر الضابط الفلسطينى إلى تغيير أسلوبه فى الاستجواب واللجوء إلى العنف.. وكان كارهاً لذلك جداً إلا أنه اضطر لذلك اضطراراً.. فهو كما قال كان يتعامل مع حية ناعمة الملمس... كلما حاول الإمساك بها انزلقت

فى سلاسة من بين أصابعه.

تقول «أمينة المفتى» فى أوراقها:

- بعد فشل الضابط الفلسطينى فى استنطاقى وهددنى باللجوء إلى القوة.. أوحيت إلى جسدى بأنهم لن يقتلونى بقسوة العذاب.. بل سيكونوا رحماء بى ليتمكنوا من مبادلتى بآخرين فى المعتقلات الإسرائيلية.. وظللت أردد هذه المقولة حتى تهيأت نفسياً لتحمل أقسى أنواع التعذيب.

وهذا ما حدث بالفعل.. فبعد عدة أيام من التعذيب الشديد.. توقفوا عن الضرب والصعق بالكهرباء والتعليق على أحد الأبواب وحرمانى من الشراب والطعام.

وجاءنى «هايل عبد الحميد»[1] الملقب بـ «أبو الهول» للتحقيق معى.. وإذا كان محمد داوود عودة قد حصل منى على أية معلومات أو اعترافات مفيدة.. فقد نال «أبو الهول» مثلها أيضاً.. وبذلك فشل أعتى اثنين من رجال المخابرات فى الوصول إلى أى معلومة منى.. وأصابهما اليأس كل اليأس.

وفى إسرائيل كانت الأمور هناك شديدة السوء.. فنبأ اعتقالى كان بمثابة الكارثة التى حلت بهم.. وعندما تأكدوا أن شركائى الثلاثة لم يقبض عليهم كان ذلك يعنى أحد أمرين:

- أننى لم أعترف أصلاً.

- أو أننى اعترفت تحت التعذيب وترك شركائى لاصطياد كل من يحاول الاتصال بهم.

وقع رجال الموساد فى حيرة بالغة.. وأمروا عيونهم فى بيروت بالابتعاد عن الثلاثة الطلقاء مهما كان السبب.. فهم يعلمون مدى شراسة المخابرات الفلسطينية

---

(١) هايل عبد الحميد: رئيس مخابرات فتح الأسبق.. وهو رجل مخابرات محترف وقدير.. وظل بصفة عامة بعيداً عن الخلافات الداخلية فى منظمة التحرير الفلسطينية.. اغتيل فى تونس مع «صلاح خلف» فى ١٤ يناير ١٩٩١ بواسطة الإرهابى الدولى «صبرى البنا» الذى قتله صدام حسين فى أغسطس ٢٠٠٢ ببغداد.

فى معاملة الجواسيس الأجانب.. فما بالك والحالة هنا لعميلة أردنية خدعتهم وامتزجت بقادتهم وتجولت بكل الأماكن العسكرية المحظورة فى لبنان.

كانت المشكلة عند الموساد أكبر بكثير من مجرد سقوط إحدى عميلاتها.. بل فى حالة الهلع التى ستصيب بقية عملائهم فى لبنان إذا ما نشر الخبر فى الصحف.. وساعتئذٍ فقط قد ينكشف آخرون أفلت منهم زمام الجرأة وانكسرت صلابتهم.. وباتوا عرضة لهدم شبكات إسرائيلية عديدة فى بيروت تعمل فى أمان بعيداً عن الخوف الذى هو وراء الشجاعة وقاتلها.

تلك الشجاعة التى تكون هشة مصطنعة لا أرض صلبة لها أو جدران.. تماماً هى كالسراب الذى نراه أيام القيظ فى الصحراء.. مجرد وهم خادع..!

أما «أمينة المفتى» فيالها من امرأة عجيبة.. متماسكة.. فبرغم ابتلاعها طعم بقاء «موشيه» حيّاً ومبادلته بأسرى سوريين - تلك الخطة البارعة التى وضعها رجال الاستخبارات الفلسطينية - إلا أن شعورها بالذنب تجاه ما اقترفته بحق الأبرياء لم يطغ عليها أو يفتك بأعصابها فى ذلك الوقت.. إذ تقمصت شخصية أخرى أمام المحقق.. وبدت مريضة بالوهم وما كانت فى حقيقتها إلا متخمة بالخيلاء Conceit والعظمة.. وسيطرت عليها أوهام العبقرية والذكاء والانتصار.. حتى أنها ترقبت مظاهر الاحتفاء ببطولتها فى إسرائيل.. وسترى كل ذلك فى عينى زوجها العائد من الأسر.

كانت تريد إشباع غرورها كأنثى تؤكد أنها أحبت بصدق.. وأدمنت عشق زوجها حتى الثمالة.. فمزقها غيابه إلى ألف قطعة.. تحولت كل واحدة منها إلى قنبلة من الغضب أقسمت أن تفجرها فى جسد العرب الذين أذلوها وحطموها.. لقد كان قلبها يفيض لوعة وحزناً.. وبدأ كبركان ينفث همه فى وجه البشر.. وصراخ لوعتها على زوجها المفقود يصم أسماع الكون ويمزق سكوته.

وماذا ينتظر من امرأة وحيدة فى الحياة هربت مع زوجها اليهودى إلى الأعداء نابذة الدين والوطن والأهل.. فذهب الزوج ولم يعد.. تركها متفردة

الوجد تبكى ما ضاع من حاضر ومستقبل.. لتتقلب إلى امرأة ضد الطبيعة.. تقتل بدم بارد بعدما فقدت مشاعر الرحمة ونبضات الإنسانية.. تقتل أبرياء لا ذنب لهم فى اختفاء زوجها.. لكن الإنتقام عندها لا يفرق بين أبرياء وغير أبرياء.. فقد أضيفت إلى غرائزها الطبيعية كبشر غريزة أخرى.. وهى الإنتقام.

وبدلاً من أن تفكر فى الندم على ما ارتكبته من أهوال.. استغلت حبسها الانفرادى لتفكر بهدوء كيف تستعد للمعركة القادمة.. وتشحن ذاتها بكل ما تبقى لديها من قوة ومناورة.. وتعيد تنظيم خطوط دفاعها وسد أية ثغرة أملاً فى الإفلات من المصير الذى ينتظرها.

لقد كانت حتى تلك اللحظة تعلم بأن أدلة خيانتها هشة لأنها مجرد تخمينات بلا دليل ويمكن تفنيدها بسهولة.. كذلك لم يضبط أحد أعضاء شبكتها فيعترف عليها وتحاصرها الأدلة.

لذلك وطنت نفسها على المقاومة والاستبسال فى الإنكار والدفاع.. فحتماً سيضيقون بها ولن يكون أمامهم سوى طردها من بيروت إلى النمسا.. وربما إلى الأردن.. لكن وقعت مفاجأة مذهلة لم يتوقعها أحد مطلقاً.. وهى أن سلطات الأمن اللبنانية تدخلت.. وأجبرت الفلسطينيين على الإفراج عن المتهمة لتقوم هى بالتحقيق معها.. ونظراً لعدم وجود أدلة.. فالأمر سيتحول إلى نكتة..!!

هكذا خرجت «أمينة» المفتى من محبسها ـ وكما توقعت ـ منتصرة.. فالسلطات اللبنانية رأت أنها بريئة وأن «الشكوك» التى طالتها باطلة مجحفة.. فهى طبيبة عربية مخلصة لوطنها أيما إخلاص برغم زواجها من طيار يهودى أو بوذى.. وكان أن خيرتها ما بين البقاء فى «بيروت» أو المغادرة مع وافر الشكر.. فاختارت أن تعود إلى «فيينا» وطالبت بوثيقة سفرها التى احتجزها الفلسطينيون.

رأى القادة الفلسطينيون أن يسلموا «أمينة» للبنانيين احتراماً لسيادة الدولة اللبنانية فى وقت كانت تتصاعد فيه أزمة الحرب الأهلية.. وفى لقاء فى «عالية» مع وزير الداخلية الشيخ «بهيج تقى الدين» ألح عليه صلاح خلف «أبو إياد» منح

الفلسطينيين مهلة بسيطة للتحقيق مع «أمينة المفتى».. وبموافقة الوزير عادت عميلة الموساد مرة ثانية إلى الجانب الفلسطينى للتحقيق معها والحصول على اعترافاتها كاملة.

رأت القيادة الفلسطينية ضرورة نقل «أمينة المفتى» بعيداً عن بيروت.. وكانت حجة «صلاح خلف» أن عملية النقل هذه ضرورية للغاية لأن «أمينة المفتى» استشعرت الأمان فى محبسها الحالى بالقرب من اللبنانيين الذين لن يتركوها لفترة طويلة مقيدة بالجنازير داخل زنزانة كريهة بباطن الأرض.

وجىء بخارطة كبيرة للجنوب اللبنانى انكبوا عليها يتفحصون عدة مواقع.. إلى أن انتهوا إلى موقع كهف يقع شرق جسر «القاسمية» بين صيدا وصور.. أطلق عليه اسم «كهف السعرانة» الذى تقع على القرب منه بعض معسكرات منظمة التحرير.

نقلت «أمينة» إلى محبسها الجديد فى عتمة الليل.. وكانت برغم ذلك مغماة ومكبلة من الخلف.. وهنا فقط اهتزت أعصابها بسبب افتقادها للرقابة اللبنانية وإمكانية تدخلها.

كان قد تم منع الطعام عنها لمدة يوم كامل.. وعندما سحبها جنديان مفتولا العضلات ليصعدا بها إلى الكهف سرت بأوصالها قشعريرة مخيفة.. فالمكان شبه خاو بلا حركة أو حياة.. ويزيدها هلعاً صوت الأقدام الصاعدة بها وهى ترتطم بالحصى وبالصخور.. ولما طلبت أن تأكل شيئاً أجيبت بصمت مفزع.

وعن نقطة محددة بعد صعود شاق مرهق.. أزيل الكيس الأسود عن وجهها لتصطدم عيناها فى ظلام الليل بأشباح عدد جرار من الضباط والجنود يقفون فى جمود وامتعاض وتتدلى الرشاشات من أكتافهم.

استسلمت للأيدى التى تدفعها بقسوة إلى عمق الكهف الممتد بباطن الجبل تبدو نتوءاته فى ظلال الضوء الباهت المتحرك كجنيات الأساطير المرعبة.. وفجأة شق الصمت القاتل المحيط بوقع الأقدام صراخاً مرعباً مريراً كأن هناك

من يُقّد اللحم من جسد حى.. وكلما اقترب صوت الصراخ انحسرت إرادة العميلة الأسيرة وذهب عقلها.

تصبب منها العرق المالح.. وارتعد الجسد الناعم السخى بالأنوثة.. ومع دفعها إلى عمق الكهف الموحش فقدت إلى الأبد بصيص أمل فى النجاة.. وبينما يتشقق حلقومها الجاف المر الرضاب وينسحب منها أى أمل كانت تتمسك به.. انطلق بولها غصباً عنها ساخناً يزيد الجسد جفافاً وانطفاء.. ويولد لديها أقصى مشاعر المهانة والفزع وذلك عندما وقفت أمام مشهد مروع هو بحق أفظع من وصف مذبحة بشرية حية..!!

كانت هناك فتاة أجنبية علقت من ساقيها إلى الحائط.. تمتد خيوط الدم من كل موضع فى جسدها لتتجمع فى النهاية فى بقعة متجلطة أسفل رأسها مباشرة.. وكان شعرها الأصفر الطويل المدلى يصل لقرب البقعة تفور صنابير الدماء المتفجرة.. وأفاقت على صوت القائد وهو يقول لها كأنه صاعقة:

- أيتها العاهرة.. اخلعى ملابسك وارتدى البنطلون والسترة «هكذا ترتدى المعتقلات لكى لا تظهر عوراتهن أثناء التحقيق أو التعذيب» وأشار إلى أحد الجنود:

- حل قيودها حتى تبدل ملابسها.. هنا.

انصاعت «أمينة» للأمر.. وسخرت فى مرارة من نفسها.. فقد كان جسدها العارى لوقت قريب يذيب العقول.. والآن تقف عارية وعشرات الأعين ترقبها لكنها تنظر إلى جسدها باحتقار:

- «يا لكم من أغبياء.. لا تدركون بالطبع لسع أنوثتى وجحيمها السرمدى.. لو أنكم مائة رجل لأسلمت لكم نفسى طواعية مقابل شربة ماء وشريحة خبز صخرى أسود».

هكذا قالت فى داخلها وهى ترتجف من الجوع والعطش والرعب.. ترمقهم فى انكسار ووهن وهم يدقون الحلقات الحديدية بالجدار ليعلقوها كالذبيحة كزميلتها الأجنبية.

فى الوقت الذى حمل فيه أحد الجنود فى تأفف ملابسها الداخلية المبتلة.. وصل طبيب بزى عسكرى للكشف على زميلتها فاقدة الوعى فأعطاها بعض الأدوية وانصرف.. وما هى إلا بضع دقائق حتى انصرف الجميع وخيم الصمت والظلام على المكان الموحش.. وكان أنين الفتاة المتوجعة مرآة الرعب بعينها وصدى الرعب فى كهف السعرانة.

هدها الجوع والعطش والخوف فنامت متهالكة وهى مربوطة إلى الحائط.. وقرب الفجر أفاقت زميلتها وأخذت تهذى باللغة الفرنسية التى كانت تفهمها «أمينة».. وبعد حديث خافت بينهما اتضح لأمينة أن الفتاة الفرنسية واسمها «سيمون دوابرفيه» اعتقلت بتهمة التجسس لصالح الموساد.. ولمدة عشرة أيام تحت التعذيب الشديد والجوع لا تدرى ما مصيرها بعد ذلك.. وأعطت رقم تليفون أمها لأمينة لكى تتصل بها وتخبرها بما حدث لها.

وبيأس قاتل قالت لها «أمينة المفتى»:

- أنا لا أضمن لك ذلك يا عزيزتى.. فمصيرى أنا الأخرى مجهول.. ومظلم كهذا الكهف الكريه.

وقالت لها «سيمون»:

- هل خدعك رجال الموساد مثلى..؟ لقد أقنعونى بأن الفلسطينيين أغبياء.. وفى حالة انكشافى لن يتخلوا عنى أو يتركونى بين أيديهم.. وسوف يخطفوننى كما خطفوا النازى السابق «إيخمان» من الأرجنتين.

أجابتها «أمينة»:

- هم قالوا لى أكثر من ذلك «هكذا اعترفت وسقطت فى الفخ» ووعدونى بألا يمسنى أحد بأذى مهما كانت ظروف اعتقالى.

همست لها «سيمون»:

- لا تعترفى لهم بأى شىء.. فكلما اعترفت طلبوا منك المزيد.. والمزيد.. وأطلقوا كلابهم البشرية تفتك بك فى ضراوة وتشفٍّ.

قطع الحوار بينهما وقع أقدام ثقيلة تقترب.. وسرعان ما ظهر ثلاثة ضباط يتبعهم عدد من الجنود يحملون الكشافات المبهرة.. تجاهلوا «أمينة» وأمر الضابط الكبير أحد مرافقيه أن يسأل الفتاة الفرنسية لآخر مرة عن أعوانها فى لبنان.. ولما أجابت بالنفى وهى تقسم بصدق.. أشار بيده فى حركة ذات مغزى.. فاصطف أربعة جنود يحملون بنادقهم الآلية ثم أخذوا وضع الاستعداد.

ولما كرر الضابط عليها السؤال وجاءته الإجابة نفسها: صرخ فى نفاد صبر:

- استعداد تام... (!!).. اجذب الأجزاء.

سمعت طرقعة جذب الأجزاء الحديدية.. وانطلق صوته مدوياً:

- إعدام يا سيمون أم هناك اعترافات تودين الإدلاء بها..؟

نفت أن تكون لديها أى معلومات لتعترف بها.

فصاح الضابط الكبير:

- اضرب..!!

وانطلقت الرصاصات إلى صدر الفتاة الفرنسية فسكن جسدها.. وبينما كانوا يجهزون لحملها إلى بعيد كان صراخ «أمينة المفتى» يشرخ جدران الكهف الصخرية.. ويتموج ملتاعاً فى جوف الليل إلى عنان الفضاء.. صراخ هستيرى متواصل يحمل الرعب وهى التى تعودت التوحش والانتقام والسادية.. وقال الضابط لقائده:

- سيدى.. ألا نعدم هذه المرأة هى الأخرى؟

أجاب:

- لو لم تتكلم قبل منتصف النهار فلن يكون هناك حلٌّ آخر.

ومشيراً إلى الجنود فى قرف:

- ارموا هذه الجثة خلف الجبل.. بعد أن تدق رأسها بالصخور..!

وقعت عينا «أمينة» على مشهد جثة الفتاة القتيلة الغارقة فى دمها.. وعندما سحبوها إلى الخارج كانت العميلة المروعة قد فقدت آخر قلاع دفاعاتها.. وصرخت فى الضابط الكبير قبلما يبتعد.

ـ سيادة الضابط.. سأتكلم.. سأقول لكم كل شىء.. أخرجونى من هنا لأننى خائفة من الدم.. أخرجونى لأتكلم.

وعلى مدخل الكهف كانت الفتاة الفرنسية «فرانسواز كاستيمان»[1] تقف فى زهو وقد أدت دورها ببراعة منقطعة النظير.

لم يهتم الضابط الكبير باستغاثة «أمينة» حيث كان قد وضع خطة محبكة لانتزاع اعترافاتها بأسرع ما يمكن.. معتمداً أولاً على المتطوعة الفرنسية المخلصة فى بث الرعب بقلب «أمينة» لتطويعها.. واللجوء ثانياً إلى وصلة بسيطة من التعذيب الشديد لتخور تماماً حيث اقتربت المهلة المحددة لتسليمها إلى السلطات اللبنانية.. أو تسليم ملف اعترافاتها.

لقد عمد الضابط الفلسطينى إلى تجاهل رغبتها فى أن تعترف.. لثقته فى أنها ستناور وتحيك الأكاذيب إذا ما أنصت إليها فوراً.. لذلك رأى أن التعذيب سيفك قيد إرادتها خاصة وقد كانت فى حالة رعب هستيرية خوفاً على حياتها، فالتعذيب المصحوب بالهلع طريق سهل للسيطرة على نوعية معينة من الجواسيس الأذكياء الحاذقين إذا ما فقدوا منافذ الأمل والنجاة.

لقد أفاقت «أمينة المفتى» على حقيقة كذب الموساد وإمكانية خطفها من لبنان حسبما قيل لها.. وآمنت ـ وهى ترى إعدام زميلتها بهذه السهولة ـ أن الإعتراف هو طريق الخلاص الوحيد من النهاية المرعبة.

أما وقد علقوها إلى السقف وتناوبوا ضربها بالسياط بدون رحمة[1].. فقد

(١) ولدت «فرانسواز» فى «نيس» عام ١٩٥٥ وعرفت باسم الشهرة «ريما نابلسى» بعد انضمامها إلى منظمة التحرير.. وفى ٢٣ سبتمبر ١٩٨٤ أثناء عملية فدائية ضد القوات الإسرائيلية قتلت «فرانسواز».. بينما استشهد أربعة فدائيين هم: سمير البصرى.. ومحمد زهير.. وفتحى طاهر.. وطارق مصطفى.. وكان ذلك عندما ركبوا زورقاً مطاطياً بهدف الوصول إلى الشواطئ الإسرائيلية لأسر رهائن. وأغرقوا زورقاً بحرياً للعدو الصهيونى.

تضاعف إصرارها على الاعتراف بكل شيء ليكف الجنود عن تمزيق جسدها.. لكنهم لم يرحموها.. وتناوبوا تعذيبها دون اكتراث بصراخها واستغاثاتها.. أو إلى حقيقة كونهم يضربون امرأة.. كانت عربية مسلمة تحولت إلى اليهودية بسبب الحب..!

وقرب الظهر انهمك أحد الجنود فى شد أسلاك كهربائية إلى بطارية إحدى السيارات.. وحمل أحدهم جهاز تسجيل متطور ذا سعة عالية.. فأوصل به الأسلاك ووضعه بالقرب من «أمينة».. فيما وقف الضابط الكبير يقلب بعض الأوراق بين يديه متجاهلاً همس الفتاة الواهن:

- سأموت عطشاً.. أسقنى.

فهوى على ظهرها سوط ثقيل ذاب صداه وسط صراخها المكتوم.

فسألها:

- من هو رئيسك المباشر فى الموساد..؟!

أجابت على الفور:

- أشيتوف.. إيربيل أشيتوف.

أين جهاز اللاسلكى ونوتة الشيفرة..؟

- أمرونى أن أضعه بصندوق القمامة أعلى شقتى ببيروت.. وأن أحرق أوراق الشيفرة التى كانت بالمصحف.

- كم تقاضيت من الموساد أجراً مقابل التجسس علينا..؟

- لم آخذ حتى الآن سوى أربعة آلاف دولار.. وكنت أنفق من أموالى الخاصة بعدما صرفوا لى تعويضات زوجى المفقود.

- إياك أن تكذبى أيتها العاهرة.. إننا نعرف عنك كل شيء.. كل شيء بالتفصيل منذ خدعك «موشيه» وتزوجك وهاجر بك إلى إسرائيل تنفيذاً للخطة المرسومة

(١) يخطئ من يستبعد لجوء أجهزة الاستخبارات - بما فيها العربية - إلى شتى الوسائل بما فيها الضرب الشديد لاستنطاق العملاء والخونة لكسر إرادتهم ومقاومتهم.

بدقة.. أفكنت تعتقدين أنه كان يحبك حقاً..؟! خرقاء أنت إن كنت تصورت ذلك.. فيهودى مثله لن يترك حسان قومه ليقترن بدمية مثلك باسم الحب.

واصل الضابط الفلسطينى أمام ذهول عميلة الموساد:

- لقد وقعت أيتها الحمقاء الغبية فى براثن شبكة خداع متقنة أوقعتك بها «سارة بيراد» التى هى بالأصل عميلة للموساد.. واستطاع رجالنا فى «النمسا» الإجهاز عليها وتصفيتها.. وفى إسرائيل خدعوك عندما ادعوا بأن «موشيه» انفجرت به الطائرة فوق سوريا.. فى حين أن «موشيه» نفّذ خطتهم لخداعك بمهارة فائقة.

هكذا كانت خطة الخداع الفلسطينية تكتمل فتزرع الشك فى صدر «أمينة».. وفى لحظات مر ببالها شريط حياتها فى «النمسا» منذ تعرفت بسارة وشاركتها الشذوذ حتى قدمتها لـ «موشيه» فأحبته وتزوجته.. وفى نفسها تساءلت:

- ترى هل كان «موشيه» صادقاً فى حبه.. أم أن القصة كلها مجرد خدعة لذيذة ستقودها إلى الإعدام والقذف من أعلى الجبل..؟ لقد خدعتنى «سارة» هذا مؤكد.. نعم.. خدعتنى وأحكم «موشيه» حلقة الخداع حول عنقى.

نجحت الخطة فى زعزعة ثقة العميلة فى قصة حبها.. ففقدت السيطرة بذلك على مقاومتها وإرادتها وأعصابها.. كذلك فقدت الهدف الذى من أجله جاءت وقتلت ودمرت.. ومن أجله باعت دينها ووطنها.. وبضياع ذلك الهدف انقلب إيمانها بالانتقام من العرب إلى هدأة رفض هى مزيج من الندم والحسرة.. لكنها - فيما بعد - أوجدت مبررات أخرى لفعلتها فى محاولة لتسكين لسعة المرارة التى التصقت بعقلها.

كان الموقف عصيبا جداً عند عميلة الموساد.. فقد أوصلها الاستجواب إلى مرحلة الشك فالترنح.. وليس هنا من شىء يلى ذلك سوى الانهيار.. فهى اللحظة التى يكون فيها المرء فى أقصى حالات ضعفه.. ويأسه.. وقهره.. فلا عقل إذن أو إرادة.. إنما انصياع كامل يغلفه الخوار.

القسم السابع والعشرون
الاعتراف

«سيدى.. كنت وقتها غبية حمقاء.. أجرمت فى حق وطنى ودينى وعـــروبتى.. وارتكبت أفظع الجرائم لأننى كنت مهددة.. وخائفة.. شريدة لا وطن لى.. وصدقتهم وآمنت بما كانوا يقولونه لى.. فقد أوهمونى بأننى مطاردة من قبل المخابرات الأردنية.. وكنت مغيبة لا أعى أين الحقيقة..!!»

وفى مذكراتها تصف أمينة بتلقائية شديدة تلك اللحظات الحاسمة من حياتها والتى عاشتها فى كهف «السعرانة» وجاء وصفها لتفاعلاتها النفسية الداخلية فى سرد رائع صادق يحمل كل صراعاتها من أجل الحياة.. معتمدة على أسلوبها الشيق فى الوصف والتحليل بلغة عربية.

تقول «أمينة المفتى»:

- عشت أسوأ لحظات حياتى بعدما أطلقوا الرصاص أمامى على الفتاة الفرنسية.. كانت الفجيعة على عمرى قاسية.. والألم النازف أقسى.. وقلت فى نفسى: «هكذا يموت الخونة».

تصورت لحظتئذٍ أننى سألقى ذات المصير.. وكأننى كلب عقور لا ذكر لى ولا اعتبار.. وتعجبت من الضابط الشرس - أبو الهول - الذى أرعبنى اسمه.. فهو لا يريد أن يسمع اعترافى.. بالطبع كان لا يثق بى.. فزميله «أبو داوود» ضج منى وفشل من قبل.. لقد كان أبو داوود طيباً ومريحاً.. أما أبو الهول فخروف كلماته طلقات رصاص بلا ترو أو صبر.

ارتعد بدنى وأنا أستعيد ملامح وجهه.. ووددت لو أنه يجىء ثانية لاستخلاص جوابى بنفسه.. فساعتئذ لن أنتظر منه سؤالاً واحداً.. نعم.. كنت قد قررت ألا أدعه يسألنى لأننى سأنطق فى الحال بكل شىء.. سأقول الحقيقة مهما كانت.. وبسرعة.. قبلما يثور ويأمر بإعدامى كما تقتل الحشرة.

لكنه لم يجئ هذا القائد.. بل أرسل بدلاً منه ضابطاً آخر يماثله فى الشراسة والقسوة.. بلا شك كان هذا الضابط أكفأ تلاميذه النجباء الذين انتهجوا أسلوبه.. لذلك ضغط بعنف على أعصابى.. أشعرنى بتفاهتى وحقارتى.. ورأيت الموت يتربص بى بين أصابعه حيث ينتظر الجنود الإشارة منه.. بل كنت أرى النهاية تطل من ماسورة مسدسه.

لقد كنت لا أنوى خداعه أبداً أو مراوغته.. سأقول كل شىء أمام جهاز التسجيل.. فلا فائدة من الإنكار والمراوغة.. ولا حيلة أمام سهام الموت المصوبة

تجاهي.. سأنطق وأنا أتمنى ألا أموت ويلقى بجسدى فى العراء بعد دق رأسى بالصخر.. نعم سأقول كل شىء فلم التكتم..؟ لقد اكتشفت مؤخراً أننى ضحية مؤامرة قذرة بطلها زوجى «موشيه» شخصياً.. بمعاونة «سارة» عميلة الموساد التى ربما تكون قد زودت إسرائيل بأسرارى الشخصية جداً.. وشذوذى.. وربما أيضاً تكون قد سجلت مواقف ضعفى هذه كوسيلة للضغط علىّ مستقبلاً إذا فشلت عملية «موشيه» معى.

فى تلك اللحظات تمنيت ألا يقتلوننى.. وتضرعت إلى «الله».. نعم إلى ربى الذى عصيته وكفرت به أن ينقذنى من الموت لأرى «موشيه».. الحبيب الرومانسى الرقيق الحنون الذى خدعنى وأضاعنى بعدما نسج أروع قصة حب حلقت بها بين السحب ثم هويت إلى الأرض..!

كنت فى حالة صراع قاسية.. صراع بين حبى لموشيه وبين الحقيقة التى توضحت خطوطها ولاحت تفاصيلها.. وتساءلت: ماذا سأفعل معه لو أنه كان حياً بالفعل فى إسرائيل.. هل سأنتقم منه كما خدعنى أم سأضعف أمامه وأصفح..؟

لا أدرى.. فقد كنت مازلت لا أعرف النهاية..!!

سيطر الضابط المحقق على أعصابى فخضعت له فى استسلام وقد خارت إلى الأبد عزيمتى وهدت صريعة الرعب فى كهف موحش وسط الجبال.. تنبعث منه رائحة العذاب والموت.

وسألنى بمنتهى الإهانة:

- مع من مارست الجنس فى لبنان..؟

أجبته بصوت مرتعش:

- تسعة أشخاص.. لبنانيان يعملان معى هما مارون الحايك وعساف ويعملان بشركة الهاتف.. وضابط فلسطينى فشلت فى تجنيده اسمه «أبو ناصر».. وخمسة أجانب.

ـ هؤلاء ثمانية فقط.. من التاسع..؟!

أجبت بنبرة خجل شديدة:

ـ خديجة زهران.. وهى أول من عرفت فى لبنان وتملك محلاً للملبوسات اسمه «اللوار».

ـ أنت سحاقية إذن أم هى خديجة زهران..؟

ـ أنا وهى..!!

* * *

فى كتابه الشيق «قبل الإفاقة» يقول ضابط سوفييتى اسمه «ليونيد بوكوف» وهو خبير بشؤون المخابرات ومتخصص فى استجواب العملاء والجواسيس:

ـ عندما ينهار العميل المعتقل ويعترف بأول معلومة بعد جهاد.. يكون كالكهل الذى يرتقى الجبل ويجر خلفه سلسلة طويلة متصلة الحلقات تمتد بين الحصى والصخور.. كأنما جلس ليستريح دق بعض حلقاتها ليسهل عليه الجر.

وقد يعتقد البعض أن اعترافات «أمينة المفتى» التى أدلت بها لا تفى بالغرض.. فالمحقق الفلسطينى لم يسألها سوى خمسة أسئلة فقط.. لكن حملت إجاباتها اعترافاً صريحاً بالتعامل مع الموساد.. وكذا أسماء أعضاء شبكتها ووظائفهم.

وظهر عند ذلك فريق من رجال المخابرات الفلسطينية برئاسة العقيد «أبى الهول».. لمباشرة التحقيق مع الجاسوسة المنهارة دون منحها فرصة واحدة للراحة أو لاسترداد أنفاسها.. إنه التوقيت الذهبى لاستجلاء خفايا الأسرار التى يحملها الجاسوس المعتقل.. حيث يكون واقعاً تحت ظروف نفسية وجسدية مرهقة.. ومنحه فرصة ـ ولو قصيرة ـ للراحة معناه خسارة فادحة لا تعوض.. لأنه بذلك سيعيد ترتيب أفكاره متحصناً بالأكاذيب التى درب عليها واسترجعها لحظة عمل العقل المعطل.

وكان لوصول العقيد الشرس وقع الصدمة عند «أمينة».. فهو رجل بلا قلب

أعدم الفتاة الفرنسية وأمر برميها خلف الجبل وتحطيم رأسها بالصخور لتتوه معالمها.

صرخت أمينة عندما اقترب منها ويأمر أحد الجنود بتعرية ظهرها.. ولما انكشف الظهر بدت خطوط السياط الحمراء المتقاطعة فى كثافة.. فصرخ فى جنوده بصوت جهورى أجش:

ـ أكنتم تدللونها يا أولاد الـ...؟!

وانهال ضرباً وركلاً فى الجنود وهو يسبهم ويقول:

ـ كانت الفرنسية تمطر دماً.. أين دم هذه الـ.. يا أوغاد..؟!

ثم اتجه بوجهه ناحية الضابط الذى حقق معها وسأله:

ـ هل اعترفت بكل شىء..؟

أجابه الضابط:

ـ لم تعترف بعد سيادة العقيد.. إنها كاذبة ومراوغة.

صرخت «أمينة» فى وهن ومذلة وأدركت أن النهاية قد قربت.. واستجمعت ما بق لديها من قوة وقالت للقائد:

ـ لقد اعترفت.. اعترفت بكل شىء يا سيدى حتى بأسماء شركائى.. اسألونى وسأجيب عما تريدون فى الحال.

ثم بكت يأساً وهى تردد مسترحمة:

ـ لا أريد أن أموت.. أن أموت.

رصت عدة مقاعد خشبية داخل الكهف على شكل نصف دائرة كان يتصدرها القائد وبجواره آخرون.. بينما أجلست «أمينة» على الأرض وبدأت تعترف تفصيلياً بقصة سقوطها فى شرك الجاسوسية منذ البداية.. البداية الأولى فى «فيينا».. لقد كانت خائرة تماماً لا تملك إلا قول الصدق.. كل الصدق

أملاً فى النجاة من الموت.

وجاء فى محضر استجوابها أنه فى يوم الجمعة ١٢ أيلول ١٩٧٥ أخضعت «أمينة المفتى» للتحقيق واستجوبها العقيد «أبو الهول» بنفسه وبإشراف القائد «محمد داوود عودة» أبو داوود»:

ـ.......؟

ـ أمينة داوود محمد المفتى.

ـ .....؟

ـ أردنية.

ـ .....؟

ـ ٣٦ عاماً.

ـ ......؟

ـ بكالوريوس علم النفس الطبى جامعة «فيينا» عام ١٩٦٢ ثم الماجستير فى علم الأمراض النفسية.

ـ ......؟

ـ كنت أسعى للحصول على درجة الدكتوراه فى جامعة «فيينا».. ولما فشلت فى ذلك تخوفت من أهلى فزوجت بطيار نمساوى يهودى اسمه «موشيه بيراد» هو بالأصل الشقيق الأكبر لصديقتى «سارة» وكنا قد ارتبطنا معاً بعلاقة حب دامت عدة سنوات.

ـ .....؟

ـ كانت ظروفى النفسية سيئة وتزوجت بإلحاح منه.. ولم أكن أعلم أن ذلك حراماً لأننى غير متدينة ولم تكن تعنينى مسألة الدين فى شىء.

- .....؟

- لا .. لم أشك فى نواياه مطلقاً وهو يلح فى الزواج منى.. فقد كان يحبنى جداً ويسعى لإسعادى..!

- .....؟

- حتى الآن لا أعرف أن أهلى وقفوا على الحقيقة أم لا.. لكن عندما أخبرتهم من قبل برغبتى فى الزواج من نمساوى عارضونى بشدة.. برغم أننى كذبت وقلت لهم إنه مسلم ومن جذور تركية. لذلك هربت مع «موشيه» إلى إسرائيل خوفاً من أن تطاردنى أسرتى أو جهاز المخابرات فى الأردن.. وربما أجهزة الاستخبارات العربية أيضاً.

- .....؟

- جاءت قصة هروبنا إلى إسرائيل عندما قرأنا بإحدى الصحف حكاية غريبة عن طبيب إيطالى يغتصب مريضاته فى حجرة العمليات بعد تخديرهم.. ولفت انتباهنا وجود إعلان بجوار هذا الخبر مباشرة يقول: إن دولة إسرائيل تطلب للهجرة إليها طيارين أوروبيين وتخصصات تقنية عديدة.. ولما كانت المزايا التى سيحصلون عليها مغرية جداً ومثيرة.. تحدثت مع موشيه وناقشنا الأمر معاً.. ونظراً لخوفى من مطاردة أهلى والانتقام منى وافق على الهجرة برغم معارضة أسرته.. لكن حتى لا يرفض طلب الهجرة لكونى مسلمة وعربية.. طلب منى «موشيه» أن أتهود.. واصطحبنى إلى المعبد اليهودى حيث تم تعميدى وأصبحت يهودية.

- .....؟

- لم أكن أكره كونى عربية.. لكننى كنت أكره مظاهر التخلف فى بلادى.

- .....؟

- ربما كان يدفعنى لأن ألح عليه أكثر وأكثر.. فقد كانت لديه رغبة الهجرة على كل حال.. لكنه على ما يبدو أرادنى ألح فى ذلك.

- .....؟

- لا .. لم يكن موشيه يهودياً متديناً.. فنادراً ما كان يذهب إلى المعبد.. لكنه كان يحب إسرائيل ويفتخر بلطف بتفوقها وتقدمها.. أما سارة فكانت مجنونة بإسرائيل وتذهب للاصطياف بها كل عام.

- .....؟

- لا .. لم تستدعنى السفارة الإسرائيلية فى فيينا لمناقشتى قبل الهجرة حول موضوع تهودى أو خلافه.. فموشيه أعطاهم عنى كل ما يريدون من معلومات.. لكن استدعتنى جهات أمنية فى إسرائيل لا أعرفها.. وربما كانت الموساد.

- .....؟

- برروا لى حروبهم مع العرب وكيف أنهم يدافعون عن وطنهم ولا يبغون عدواناً على أحد.. وأنهم يسعون إلى إقرار السلام مع جيرانهم ومع سائر العرب.. لكننى لم أكن مقتنعة تماماً بما يقولون «كانت تكذب وهى التى تهودت وارتدت عن دينها وخانت وطنها».

- .....؟

- ذهبت إلى مكتب الأمن فى تل أبيب لمرة واحدة فقط.. وهناك قابلنى ضابط اسمه «أبو يعقوب» كان يزورنا بعد ذلك ويجلس معى كثيراً ليؤكد تبريراته وموقف إسرائيل من السلام.

- .....؟

- اسمى الرسمى فى إسرائيل هو «آنى موشيه بيراد».

- .....؟

- فى ١١ أبريل ١٩٧٢ أخبرونى بسقوط طائرة «موشيه» بصواريخ سورية وأن «دمشق» لم تعلن عن مقتله أو أسره.. بما يعنى أنه كان حيّاً وربما تمكن من الهرب والاختباء فى «الجولان».

- .....؟

- لم يطلبوا منى صراحة التوجه إلى «سوريا» أو «لبنان» للبحث عنه.. لكنهم أوحوا إلىّ أنه ربما التجأ إلى أحد الكهوف الجبلية فى انتظار نجدة.. ولكن من المستحيل أن يتم التوصل إلى مكانه بعدما فقد وسيلة الاتصال بإسرائيل لاسلكياً لتحديد موقعه.. كما توقعوا أيضاً أن تكون إحدى الجبهات الفلسطينية المنشقة عن المنظمة تحتفظ به سراً للمساومة عليه.. ولما أنبأونى بأنهم يبحثون عمن يتقصى أخباره فى «دمشق» و «بيروت».. عرضت عليهم أن أقوم بدور ما لإنجاز هذه المهمة بواسطة جواز سفرى الأردنى.

- .....؟

- لا.. لم يتم تدريبى فى تلك الفترة على كيفية المعلومات بالشكل المتعارف عليه مخابراتياً.. لكنهم طلبوا منى فقط الاحتراس والحذر.

- .....؟

- أنا لم أجند.. فأثناء وجودى فى «فيينا» اتصل بى ثلاثة إسرائيليون وأفهمونى أنهم جاءوا لتسهيل حصولى على إرث زوجى والتعويض الذى تقرر لى فى إسرائيل.

- .....؟

- صرف تعويض يعنى أن «موشيه» مات بالفعل.. نعم هذه حقيقة لم أدركها وقتها.. لكنهم نصحونى بسرعة التحرك لتقصى أخبار منظمة التحرير فى «بيروت» والجبهات الأخرى، فقد استدل عليه من خلال الأحاديث العادية واختراق التنظيمات الفلسطينية.

- .....؟

- تم تدريبى بعد ذلك لمدة أربعة شهور وعشرة أيام فى «فيينا».. حيث تعلمت كيف أكتب بالحبر السرى وأظهر الرسائل الواردة إلى.. كذلك أساليب التشفير

والتصوير وتلقط الأخبار.. والالتزم بالحس الأمنى.. إضافة إلى تحميض الأفلام والهرب من المراقبة والتمييز بين الأسلحة المختلفة.. وأيضاً أساليب إثارة حمية المتحدث ليفشى أسراره.. ثم استقدموا من تل أبيب أحد الضباط المتخصصين فى تقوية الذاكرة وتخزين المعلومات والأرقام والأسماء والصور[١].

- إذن كان المطلوب منك تقصى أخبار الفلسطينيين وليس أخبار زوجك؟

- تقصى أخبار الفلسطينين بغرض تسقط المعلومات منهم عن «موشيه»[٢].

- .....؟

- نعم.. حددوا لى بعض المهام بعينها.. حيث طلبوا منى التحرى عن مقار إقامة قادة المنظمات الفلسطينية.. والتغلغل داخل نسيج رجال المقاومة لمعرفة أخبارهم.. إذ ربما يكون لديهم معلومات عن «موشيه».

- هل هناك مهام أخرى أوكلوا بها إليك؟

- كل ما طلبوه منى هو التحرى عن إقامة قيادات المنظمات الفلسطينية ورجال المقاومة ولا شىء غير ذلك.

- وهل كانت لديك مهما أخرى محددة؟

- أذكر أنهم كانوا يسعون لمعرفة الطرق التى يسلكها رجال المقاومة للتسلل إلى حدود إسرائيل الشمالية.. كذلك الأعداد التقريبية للفدائيين.. وأسلحتهم.. وتدريبهم.. ومواعيد هجماتهم المرتقبة.. كذلك مخازن الإعاشة والذخيرة ومواقع تجمعاتهم.

- قلت أنهم هددوك فى «فيينا» فى مايو ١٩٧٢.. كيف..؟

- هذا صحيح.. إذ قال لى أحدهم أننى الآن وحيدة لا حول لى.. وأن المخابرات العربية وليست الأردنية فقط تسعى ورائى.. ولأننى أصبحت يهودية

(١) الاعتراف بالتجسس هنا كان واضحاً جداً لا يحمل أية شبهة.

(٢) هنا كانت تحاول المراوغة والتشكيك فى مهمتها.

ومواطنة إسرائيلية فهم سيعملون على حمايتى فى أى مكان مهما كلفهم الأمر.. وأمام هذا التهديد لم يكن أمامى أى خيار.. إذ تملكنى الرعب خاصة وأنا صرت وحيدة غريبة وأرملة مكلومة.. فوافقت على العمل فى لبنان حيث لن يشك بى الأمن هناك.. لأن لبنان كانت بلا جهاز أمن سرى تقريباً.. وكانت الحكومة التى تعتمد على السياحة بالدرجة الأولى لا تهتم بعمليات التجسس ولا يهمها سوى استقرار الأمور الداخلية.

- إذن أنت وافقت على العمل معهم من أجل حمايتك ليس إلا.. وذلك بعدما أقنعوك بأن لبنان يفتقر إلى أجهزة أمن قوية.. وبالتالى لم يكن تعاونك بغرض إنهاء موضوع الإرث والتعويض؟

- سيدى.. فى الحقيقة لم أكن أفكر كثيراً فى الإرث بقدر ما كنت أبحث عن أمنى الشخصى والعثور على مكان آخر يأوينى وأشعر فيه بالأمان.

- لذلك تسلمت من الموساد أربعة آلاف دولار فقط - وكنت تنفقين من جيبك كل تلك المدة..؟

- ....

- أين تدربت على استخدام جهاز اللاسلكى؟

- فى أحد المقرات الخاصة بالموساد.

- متى كان ذلك..؟

- فى منتصف سبتمبر حتى أكتوبر ١٩٧٢.

- من قام على تدريبك؟

- ضابط مهندس عراقى الأصل اسمه يوسف بن بورات.

- هل كانت الأيام القليلة تلك كافية لتدريبك على الجهاز..؟

- نعم.. فبرغم أن الجهاز تقنياً كان متقدماً جداً.. إلا أنه كان بسيطاً فى

طريقة بثه.. وسريعاً فى ذات الوقت.. حيث كانت رسائلى الطويلة تستغرق عدة ثوانٍ فى بثها.

- وما سر صفحات المصحف الناقصة؟

- كانت توجد مكانها أوراق الشيفرة التى أستعين بها فى التراسل.

طلبت أمينة المفتى عند ذلك كوباً من الماء.. فجئ لها به فى الحال.. حيث لم يعد هناك أدنى شك فى أنها كانت خائرة القوى والإرادة.. ولن تتوانى عن الإدلاء بكل ما لديها من معلومات حفاظاً على حياتها التى بدت لها بلا ثمن فى ذلك الكوخ الجبلى الموحش.

سئلت:

- كيف تعرفت بمانويل ومارون..؟

- عرفتنى عليهما خديجة زهران بسبب حاجتى لتركيب تليفون.

- وكيف جندت الثلاثة لمعاونتك؟

- تعرفت أولاً بمانويل ثم جاءنى بمارون بعد ذلك ثم عملوا جميعاً معى.

- هل مارس مانويل ومارون الجنس معك..؟

- نعم.. وكان ذلك قبل أن يعملا معى.

- هل نصحك ضابط حالتك الإسرائيلى بذلك..؟

- لا.. فعلت ذلك لأضمن ولاءهما لى عندما أجندهما.

- وهل تم ذلك بالفعل..؟

- بدأت أولاً مع مارون واستخدمت معه نظرية الصدمة الفجائية والتخويف لأضمن سيطرتى عليه.

- وخديجة زهران.. هل كانت شريكة لك منذ البداية؟

ـ لا.. إنها حتى لم تكن تعرف بهمتى إلا منذ فترة وجيزة.. لكنها سبق أن ساعدتنى قبل ذلك بحسن نية..!

ـ كم أنفقت على شركائك الثلاثة من أموال..؟

ـ لا أدرى بالضبط.. لكنى على ثقة بأن «مارون» تسلم منى ما يزيد عن الثلاثة آلاف ليرة قبلما ينضم إلى.

ـ تقصدين قبل أن يكتشف أنه يعمل لصالح الموساد.. وماذا قدم لك «مارون»؟

ـ عرفنى أين يتوجد «على حسن سلامة» وأمدنى بأرقام تليفونات مكتبه ومنزله السرية.. وهذا ما تم أيضاً بالنسبة للقيادات الفلسطينية.

ـ و «مانويل»..؟

ـ كان يشارك «مارون» الذى تولى مسئوليته.

ـ وما دور خديجة زهران معك..؟

ـ كانت تمدنى ببعض المعلومات التى تجلبها من زوجات الضباط الفلسطينيين من المترددات عليها.

ـ وهل حصلت بالفعل على أية أسرار من خلال تنصتك على تليفونات القيادات الفلسطينية..؟

ـ فى الغالب لم يكونوا يتكلمون سوى بلغة الشيفرة التى لم أكن أعرفها وفشلت فى فهمها.

ـ و«سلامة» هل طُلب منك اغتياله..؟

ـ لا.. مطلقاً.. لم يطلبوا منى ذلك.. لكنهم أمرونى أن أوطد علاقتى به لأقصى درجة وأن أقوم بتصويره إن استطعت.

ـ يفهم من ذلك أنهم أمروك بأن تستسلمى له إن سنحت الظروف بذلك؟

ـ نعم.

ـ وهل مارست الجنس معه..؟

ـ لا.. لا.. فقد كانت لديه ملكة جمال الكون.

ـ وهل كان يعلم أنك تعرفين شخصيته الحقيقية..؟

ـ لا.. فقد كنت أتظاهر بالغباء أمامه بحيث لا يشك فى أننى أعرف من هو بالضبط.

ولماذا طلبوا منك تصويره.. لا اغتياله..؟

ـ لأنهم كانوا يجهلون ملامحه وألحوا كثيراً فى ذلك.. حيث كانت هناك نية اغتياله فى أى مكان وبواسطة رجال محترفين يجيدون عمليات التصفية الجسدية.

ـ و«أبو ناصر»؟

ـ «أبو ناصر»..؟ إنه لا يعرف أى شىء عنى سوى أننى طبيبة متطوعة.. لقد كنا أصدقاء فقط.

ـ هل مارستما الجنس معاً..؟

ـ ثلاث مرات فقط قبل أن يختفى فجأة.. ثم علمت بعد ذلك أنه سافر لبعض المهام فى قبرص.

ـ من هم الأجانب الخمسة الذين ضاجعتيهم..؟

ـ إنهم رجال من جنسيات مختلفة يعملون لصالح «الموساد» وكانوا يجيئون كل بمفرده إلى بيروت، بغرض تسلم الأفلام والخرائط والتقارير التى بحوزتى قبلما يمدوننى بجهاز اللاسلكى.

ـ وأين كانت تتم اللقاءات بينكم..؟

ـ فى حجراتهم بالفنادق.. ومرة واحدة فى شقتى.

ـ هل من الممكن أن تدلينا على أسمائهم الحقيقية..؟

ـ أنا لا أعرف لهم سوى أسماء حركية.. وعادة كانوا يحملون جوازات سفر مزورة.. وأذكر أن أحدهم كان اسمه «بيتر» وآخر اسمه «ريتشارد».

ـ وهل طُلب منك ممارسة الجنس مع هؤلاء الخمسة..؟

ـ أبداً.. فما حدث لم يكن مرتباً له وجاء بشكل عفوى.. بدليل أن ثلاثة آخرين جاءوا والتقيت بهم ولم نمارس الجنس معاً على الإطلاق.

ـ هل كان بينهم عربٌ..؟

ـ مغربى كان يعيش فى تطوان قبلما يهاجر إلى إسرائيل.. وكان يحمل جنسية أوروبية لا أذكرها.. وهو ذلك الشخص الذى يدعى «بيتر» أما اسمه الرسمى فى المغرب فهو «عازار».

ـ هل زرعت أجهزة تنصت بمكتب «ياسر عرفات..؟

ـ كانوا يفكرون فى ذلك وناقشونى كثيراً فى هذا الأمر عندما كنت فى «إسرائيل».. لكننى لم أفعل.

ـ هل أعطوك أية أجهزة لاقطة..؟

ـ حاولوا.. بل ألحوا فى ذلك.. لكننى تخوفت ورفضت.

ـ ما الدور الذى قمت به لمحاولة اغتيال القائد «أبو إياد» فى أكتوبر ١٩٧٣؟

ـ كنت فى جنوب لبنان فى ذلك الوقت بغرض إسعاف الجرحى الفلسطينيين.. وحدث أن جاء «أبو إياد» لزيارة أحد المواقع.. فأبلغت «الموساد» على الفور وأرشدتهم عن المكان تحديداً بواسطة جهاز اللاسلكى المطور الذى كان يعمل على بطارية السيارة.. وجاءت الطائرات بالفعل لتضرب الموقع الذى أرشدت عنه.

أجهشت بالبكاء وأردفت:

ـ سيدى.. كنت وقتها غبية حمقاء.. أجرمت فى حق وطنى وعروبتى..

ودينى.. لقد ارتكبت أفظع الجرائم لأننى كنت مهددة.. وخائفة.. شريدة لا وطن لى.. وصدقتهم وآمنت بما كانوا يقولونه لى دون أن أفكر وأتحسس طريق الصواب.. فقد أوهمونى بأن المخابرات الأردنية تطاردنى بغية اغتيالى.. وكنت مغيبة لا أعى أين الحقيقة.. أو لأى طريق أقاد.

ـ تحولت مهمتك إذن إلى عملية تجسس بعيداً عن الهدف الذى كنت تسعين إليه وهو البحث عن زوجك المفقود؟

ـ نعم.. انتفى هدف البحث عن «موشيه» شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى جاسوسة خائنة تعمل لصالح الموساد.. لقد كنت أمدهم بالمعلومات ليس حباً فى «إسرائيل» أو كراهية للعرب.. بل لأضمن الوطن والأمن بعدما ضيعت نفسى بغبائى.. ووقعت أسيرة مؤامرة أحبكت «إسرائيل» حولى شباكها بمساعدة «سارة» وربما «موشيه» أيضاً.

هكذا جاءت اعترافات عملية «الموساد» فى وضوح وصراحة.. حيث حرصت على أن تجىء إجاباتها تحمل بين طياتها كل ما يريده الفلسطينيون من إجابات شافية عن قصة تجسسها.. ولم يكن ذلك إلا لمحاولة إنقاذ حياتها التى بدت رخيصة بلا ثمن فى ذلك الكهف الموحش.

وفى صفحة بمستهل الملف الخاص بالعملية كتب العقيد «أبو الهول»:

ـ الجاسوسة الإسرائيلية أمينة داود المفتى أخضعت تماماً للسيطرة الكاملة.. وقانعة بوجود زوجها اليهودى «موشيه بيراد» حياً.. وأنه قد يكون له دور رئيسى هو وشقيقته «سارة» فى حبك قصة الخداع قصداً لخدمة جهاز «الموساد»..!

أهم إصدارات المؤلف

١ ـ أمينة المفتى.. أشهر جاسوسة عربية للموساد.

٢ ـ جواسيس الموساد العربى.. قصة سقوط أشهر ٢٥ جاسوساً.

٣ ـ العميلة ٠٠٧.. وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل.

٤ ـ أحمد الحلاق.. أول جاسوس أعدم فى لبنان.

٥ ـ انشراح موسى.. أعدمها السادات فأعتقها بيجن.

٦ ـ حراس الهيكل.. العمليات الخارجية للموساد فى نصف قرن. الجزء الأول: الخطف.

٧ ـ حراس الهيكل. العمليات الخارجية للموساد فى نصف قرن. الجزء الثانى: الاغتيالات.

٨ ـ حراس الهيكل.. العمليات الخارجية للموساد فى نصف قرن. الجزء الثالث: الفضائح.

٩ ـ قصتى مع الموساد.. مذكرات جاسوس الإسكندرية.

١٠ ـ رصاصة الرحمة.. اللحظات الأخيرة فى حياة الجواسيس.

١١ ـ الملازم أول دينا عمر.. جندها زوجها فجندت أولادها الثلاثة.

١٢ ـ جاسوسات عاشقات.. «سلسلة فى ٢٠ جزءًا».

١٣ ـ مذكرات منسية لأخطر جاسوسة عربية للموساد.

١٤ ـ ماذا حدث فى بغداد.. قصة الخيانة والسقوط.

١٥ ـ التاريخ السرى للصحاف.. بين المخابرات والخارجية والإعلام.

١٦ ـ الحرب العالمية الثانية.. أحداث قديمة من منظور عصرى «موسوعة» (١) ـ دار

الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

١٧ ـ معارك فاصلة فى الحرب العالمية الثانية (٢) ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

١٨ ـ قيادات وزعماء الحرب العالمية الثالثة (٣) ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

١٩ ـ الطابور الخامس.. جواسيس الحرب العالمية الثانية (٤) ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

٢٠ ـ موسوعة أشهر المنتحرين فى العالم «مشترك» ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

٢١ ـ قراءة جديدة فى مذكرات هتلر ونهايته ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

٢٢ ـ الوجه الآخر لأدولف هتلر «مشترك» ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

٢٣ ـ تشى جيفار.. نهاية بطل وميلاد أسطورة «مشترك» ـ دار الكتاب العربى دمشق ـ القاهرة.

٢٤ ـ أبو عمار.. عاش مهموماً ومات مسموماً.

٢٥ ـ البكاء الصامت.. دراسة سيكولوجية عن دموع العظماء.

٢٦ ـ الأمير لمكيافلى «تعريب مشترك».

مراجعة وإعداد:

١ ـ التسلسل الزمنى لتاريخ العالم «من.. قبل الميلاد حتى ٢٠٠١م».

٢ ـ أساطير اليهود.

٣ ـ كيف تكسب ثقة الناس وتؤثر فى الآخرين..؟

٤ ـ ٤٠٠٠ حقيقة مذهلة.

فهرس المحتويات